القائمة القصيرة لجائزة "بوكر" لأفضل رواية مكتوبة بالإنجليزية

Shortlist
The 2020 Booker Prize

آفـني دوشي

سُكَّر محروق

ترجمة: عبد الرحيم يوسف

رواية





سُكّر محروق

عبد الرحيم يوسف/ من مواليد الإسكندرية في 1975. تخرج من قسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية جامعة الإسكندرية عام 1997. يعمل مُدرِّسًا ومترجمًا حرًا. شارك كمحرر مساعد للترجمة في مجلة مينا من عام 2005 إلى 2009. نشر ترجمات في جريدة أخبار الأدب المصرية وموقع مدى مصر ويرأس تحرير موقع (ترى البحر). ترجم عددا من التقارير كمترجم حر لمنظمة هيومن رايتس ووتش واليونسكو ومنظمة الأمم المتحدة للسكان. نشر سبعة دواوين بالعامية المصرية وخمسة عشر كتابا مترجما في دور نشر مختلفة. وفاز عن ترجمته لكتاب (ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة) لبرنارد ماندفيل والصادر عن دار صفصافة بجائزة الدولة التشجيعية للآداب فرع ترجمة الأعمال الفكرية لعام 2016.

....

سُكَّر محروق

طبعة 2021

رقم الإيـــــداع: 2021/2541

الترقيم الدولي: 978-977-821-185-6



الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

This is a full translation of the novel: Burnt Sugar © by Avni Doshi, 2020, by Agreement with Pontas Literary & Film Agency



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

آفني دوشي

سُكَّر محروق

ترجمة: عبد الرحيم يوسف





هذه هي الترجمة الكاملة لرواية

Burnt Sugar





بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

دوشي، آفني ، ١٩٨٢-
سُكّر محروق: رواية/ آفني دوشي، ترجمة عبد الرحيم يوسف
الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢١
٣٠٤ ص، ٢٢ سم
تدمك ٦-١٨٥-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص الأمريكية
أ- يوسف، عبد الرحيم (مترجم)
ب- العنوان
٨٢٣

رقم الإيداع: ٢٠٢١/٢٥٤١



إلى نيشي ونارين وبوشبا الشجاعة

«هل يتحول جرح الابنة إلى شيء آخر لو تُرك بلا رعاية؟»

- ليديا يوكناڤيتش

أكون كاذبة لو قلت إن بؤس أمي لم يمنحني سعادةً قَطّ.

عانيت على يديها وأنا طفلة، وأي ألم تحملته هي بالتالي بدا لي نوعا من القصاص – إعادة توازن للكون، حيث يتعادل النظام العقلاني للسبب والنتيجة.

لكن الآن، لا يمكنني معادلة الكفَّتين بيننا.

والسبب بسيط: أمي تنسى، ولا شيء يمكنني فعله حيال ذلك. ليست هناك طريقة لجعلها تتذكر الأشياء التي قامت بفعلها في الماضي، لا طريقة هناك لإغراقها في الشعور بالذنب. اعتدت أن أستحضر أمثلة على قسوتها، عرَضا، ونحن نتناول الشاي، ومراقبة وجهها وهو يلتوي في تقطيبة. لكنها الآن لا تستطيع غالبا أن تتذكر ما أتحدث عنه؛ حيث تشرد عيناها بعيدا في بهجة أبدية. وأي شخص يشاهد هذا سيلمس يدي ويهمس: كفى الآن. إنها لا تتذكر، المسكينة.

هذا التعاطف الذي تستثيره لدى الآخرين يوقظ بداخلي شيئا مريرا.

شككت في شيء ما منذ عام، عندما بدأت تتجول في أرجاء البيت ليلا. كانت خادمتها، **كاشتا**، تتصل بي مذعورة.

«أمك تبحث عن بطانات من المشمع.. تحسبا لأن تبللي فراشك.» هكذا قالت **كاشتا** ذات مرة.

رفعت الهاتف بعيدا عن أذني وبحثت عن نظارتي على منضدة السرير. إلى جواري كان زوجي مازال نائما وسدادتا أذنيه تتوهجان بالنيون في الظلام.

قلت: «لا بد أنها تحلم..»

بدت **كاشتا** غير مقتنعة: «لم أكن أعرف أنك اعتدت على أن تبللي فراشك.»

أنزلت الهاتف وظللت، لبقية الليلة، غير قادرة على النوم. حتى في جنونها، تمكنت أمي من إذلالي.

ذات يوم دقت فتاة التنظيف جرس الباب ولم تعرف أمي من تكون. وكانت هناك حوادث أخرى – عندما نسيت كيف تسدد فاتورة الكهرباء وأخطأت وضع سيارتها في ساحة صف السيارات أسفل شقتها. كان هذا منذ ستة شهور.

أحيانا أشعر أن بمقدوري رؤية النهاية؛ عندما لا تكون شيئا أكثر من نبتة متعفنة. عندما تنسى كيف تتكلم، كيف تتحكم في مثانتها، وفي النهاية تنسى كيف تتنفس. إن الانحدار الإنساني يتوقف قليلا ويتلعثم، لكنه لا يعود القهقرى.

يشير ديليب، زوجي، إلى أن ذاكرتها ربما تحتاج إلى إنعاش مناسب. لذا أكتب قصصا من ماضي أمي على قصاصات صغيرة من الورق وأدسها في أركان شقتها. تجدها من وقت لآخر وتتصل بي ضاحكة:

«لا يمكنني أن أصدق أن أي طفلة لي يمكن أن يكون خطها سيئا هكذا.»

في اليوم الذي نسيت فيه اسم الشارع الذي عاشت فيه طوال عقدين، اتصلت بي أمي لتقول إنها قد اشترت علبة أمواس وأنها لن تخشى من استخدامها لو تدهورت الأحوال أكثر من هذا. ثم بدأت في البكاء. عبر

الهاتف كان بمقدوري سماع أبواق سيارات تنطلق كالثغاء، وأشخاص يتصايحون. أصوات شوارع مدينة بونيه[1]. بدأت تسعل وأفلت منها حبل أفكارها. كان بمقدوري فعليا أن أشم أدخنة التوك-توك الذي كانت جالسة فيه، الدخان الأسود الذي كان يضخه، وكأني كنت واقفة إلى جوارها مباشرة. للحظة، أحسست بشعور سيء. لا بد أنه أسوأ أنواع العذاب – إدراك المرء لانهياره، كفّارة أن تراقب الأشياء وهي تنفلت بعيدا. ومن ناحية أخرى، كنت أعرف أن هذه مجرد كذبة. لم تكن أمي لتنفق قط كل هذا. علبة أمواس، في الوقت الذي يكفي موس واحد فقط لأداء المهمة؟ كان لديها دائما ولع بإظهار المشاعر على الملأ. قررتُ أن أفضل طريقة للتعامل مع الموقف هي حل وسط من نوع ما: طلبت من أمي ألا تكون دراماتيكية، لكني دوّنت الحادثة حتى أتمكن من البحث عن أي أمواس والتخلص منها في وقت لاحق.

لقد دوّنت الكثير من الأشياء عن أمي: الساعة التي تسقط فيها نائمة في الليل، عندما تنزلق نظارتها للقراءة من فوق قنطرة أنفها الدهنية، أو عدد رقائق بسكويت (مازورين) التي تأكلها على الإفطار – كنت أتتبع هذه التفاصيل. أعلم المسؤوليات التي جرى تجنبها، وأين جرى صقل سطح القصة ليبدو ناعما أملس.

أحيانا عندما أزورها، تطلب مني الاتصال تليفونيا بأصدقاء ماتوا منذ زمن بعيد.

كانت أمي امرأة بمقدورها حفظ وصفات قرأتها مرة واحدة فقط. وكان بمقدورها تذكر تنويعات من الشاي صُنعت في بيوت أشخاص آخرين. وعندما كانت تطبخ، كانت تمد يدها نحو الزجاجات وخلطات

1- مدينة بونيه (بونه، بوني) Pune واحدة من أكثر المدن الهندية ازدحاما، وهي ثاني أكبر مدينة في ولاية ماهاراشترا.

التوابل دون أن ترفع عينيها.

كانت أمي تتذكر الأسلوب الذي كان يستخدمه الجيران من شعب ميمون المسلمين لذبح الماعز أثناء عيد الأضحى في الشرفة أعلى شقة والديها القديمة، وهو ما كان يصيب مالك البيت الجايني[2] بذعر هائل، وكيف أعطاها الخياط المسلم ذو الشعر الأجعد كالسلك ذات مرة طشتا صدئا لتجمع الدم فيه. وصفت لي المذاق المعدني، وكيف لعقت أصابعها الحمراء.

قالت: «أول مرة أتذوق فيها شيئا غير نباتي..». كنا جالستين بمحاذاة الماء في مدينة آلاندي. وكان الحجاج يغتسلون والمتسربلون بالحداد يغمرون الرماد. وكان النهر القاتم يتدفق على نحو غير محسوس، بلون الغرغرينا. وكانت أمي قد أرادت الابتعاد عن البيت، عن جدتي، عن الحديث حول أبي. كان وقتا مستقطعا، بعد أن تركنا الأشرم[3] وقبل أن يرسلوني بعيدا إلى مدرسة داخلية. للحظة كانت هناك هدنة بيني وبين أمي، عندما كان مازال بمقدوري أن أصدق أن الأسوأ قد مر وخلفناه وراءنا. لم تخبرني إلى أين كنا ذاهبتين في الظلام، ولم أستطع قراءة اللافتة الورقية الملصقة على مقدمة الحافلة التي ركبناها. قرقرت معدتي، ممتلئة بالخوف من اختفائنا من جديد في نزوة أخرى من نزوات أمي، لكننا بقينا قرب النهر الذي أنزلتنا الحافلة عنده، وعندما ارتفعت الشمس، صنع الضوء أقواس قزح في برك البنزين التي تجمعت على سطح الماء. وبمجرد أن صار النهار حارا، عدنا للبيت. كان جدي وجدتي في حالة غضب محموم، لكن أمي قالت إننا لم نترك أراضي المجمع

2- الجاينيّة أو اليانيّة (كما تُعرف أيضًا باسم «جاين دارما») هي ديانة هنديّة قديمة، ويطلق على أتباع هذه الديانة اسم (اليانيّون) أو (الجاينيّون) كلمة مشتقّة من الكلمة السنسكريتيّة (جينا) وتعني المنتصر إلى طريق النّصر بعد تجاوز تيّار الحياة والانبعاث من جديد خلال حياةٍ أخلاقيّة وروحيّة.

3- معزل روحي أو دير في الديانات الهندية.

السكني الذي كنا نعيش فيه. صدقاها لأنهما كانا يريدان ذلك، رغم أن قصتها لم تكن محتملة الحدوث بما أن المجمع السكني الذي نهضت فيه بنايتهم لم يكن كبيرا بما يكفي لأن يتوه المرء فيه. كانت أمي تبتسم وهي تتحدث – كان بمقدورها الكذب بسهولة.

أعجبني كونها كاذبة بهذه الطريقة. ولفترة أردت أن أضاهي هذه الخصلة؛ فقد بدت أشبه بالسمة النافعة الوحيدة التي تمتلكها. سأل جداي الغفير لكنه لم يتمكن من تأكيد صحة أي شيء – فقد كان غالبا ينام أثناء أدائه لعمله. وهكذا علقنا في ذلك المأزق لفترة قصيرة، كما سيحدث لنا كثيرا من جديد، وكل واحد مستعد بأكاذيبه، على يقين أن مصلحته الشخصية ستنتصر. كررت قصة أمي عندما سُئلت مرة أخرى لاحقا. لم أكن قد تعلمت بعد ماهية الانشقاق. كنت مازلت منصاعة ككلب.

أحيانا أشير إلى أمي بصيغة الماضي رغم أنها مازالت حية. كان هذا ليؤلمها لو تمكنت من تذكره ما يكفي من الوقت. حاليا ديليب هو الشخص المفضل لديها. إنه زوج ابنة نموذجي. عندما يلتقيان، ليس ثمة توقعات تغيم الجو حولهما. هو لا يتذكرها كما كانت – بل يقبلها كما هي، ويكون سعيدا بإعادة تقديم نفسه لو نسيت اسمه.

أتمنى لو كان بمقدوري أن أكون على هذا الحال، لكن الأم التي أتذكرها تلوح وتختفي أمامي، مثل دمية تعمل بالبطارية تتعطل آلية عملها. تصير الدمية هامدة. تنكسر التعويذة. لا تعرف الطفلة ما هو حقيقي وما يمكن الاعتماد عليه. ربما هي لم تعرف قط. تبكي الطفلة.

أتمنى لو كانت الهند تسمح بالانتحار بمساعدة الغير كما تفعل هولندا.

ليس فقط من أجل كرامة المريض، لكن من أجل كل الأطراف.

ينبغي أن أكون حزينة بدلا من أن أكون غاضبة.

أحيانا أبكي عندما لا يكون أحد حولي – أشعر بالأسى، لكن مازال الوقت مبكرا جدا على حرق الجسد.

تسترعي الساعة على حائط عيادة الطبيب انتباهي. عقرب الساعات يشير إلى الواحدة. وعقرب الدقائق يستقر بين الثامنة والتاسعة. يظل الترتيب على هذا النحو لمدة ثلاثين دقيقة. ساعة الحائط تلك ذكرى باهتة لوقت آخر، ذكرى متعطلة، لم يجرِ قط استبدالها.

أما الجزء الأكثر شيطانية فهو عقرب الثواني، الذي -مثل عصا سحرية- هو الجزء الوحيد الذي يتحرك من الساعة. ليس فقط إلى الأمام لكن إلى الخلف أيضا، إلى الخلف وإلى الأمام في ترددات غريبة الأطوار.

تزمجر معدتي.

تخرج تنهيدة مسموعة من الآخرين المنتظرين عندما يتوقف عقرب الثواني عن الحركة تماما، لكنه فقط يلعب دور الميت للحظة قبل أن يعاود الحركة من جديد. أقرر ألا أنظر نحوه، لكن صوت التكتكة يتردد صداه عبر الحجرة.

أنظر إلى أمي. إنها تغفو في مقعدها.

أشعر بصوت الساعة يتحرك عبر جسدي، مغيرا معدل نبضات قلبي. إنه ليس صوت تك-توك. فهذه التكة كلية الحضور، نبض، نَفَس، كلمة. التكة تحتوي على صدى حيوي، شيء يمكنني استبطانه وتجاهله. هذا الصوت عبارة عن تك-تك-تك، متبوعة بصمت طويل، ثم توك-تك-توك.

يسقط فم أمي منفتحا، متراخيا مثل كيس ورقي.

عبر طاقة الزجاج المتموجة يمكنني رؤية مجموعة من الكادحين البؤساء متجمعين حول منضدة ضيقة، ينصتون إلى تعليق على مباراة تيست كريكيت. يهللون، ويستمتعون ببث المجد الصادر عن المعلق. تتغير التكتكة من جديد.

داخل حجرة الفحص الخاصة بالطبيب، نواجه ساعة من نوع آخر. تلك ساعة يرسمها على ورقة بيضاء، تاركا إياها دون أرقام.

يقول لأمي: «املئي هذه يا مدام لامبا..»

تأخذ قلم الرصاص السنون من يده وتبدأ عند الواحدة. وعندما تصل إلى الخامسة عشر يوقفها.

«هل يمكنك أن تقولي لي تاريخ اليوم؟»

تنظر أمي إليّ وتعاود النظر إلى الطبيب. ترفع كتفيها ردا عليه، ويرتفع جانب أعلى من الآخر، في مسافة ما بين هزة الكتف والانتفاضة. كل علامة على تدهورها الجسدي تبدو مثيرة للاشمئزاز. أنظر إلى الجدران المدهونة بلون الكِريمة. شهادات الطبيب معلقة بطريقة مائلة.

«أو السنة؟»

تومئ أمي ببطء.

يقول: «ابدئي بالقرن قبل السنة..»

تفتح فمها وتتهدل أطراف شفتيها مثل سمكة: «ألف وتسعمائة...» تبدأ، وتنظر إلى بعيد.

يميل الطبيب رأسه: «تقصدين ألفين، فيما أعتقد.»

توافقه، وتبتسم له كأنها فخورة بإنجاز ما. ينظر كلانا أنا والطبيب إلى أحدنا الآخر في انتظار إجابة.

يتابع الحديث ليقول إنه في حالات خاصة يأخذون سائلا من العمود الفقري، لكنه لم يقرر بعد إن كانت أمي حالة خاصة. وبدلا من ذلك يقوم بفحوصات بالأشعة، ويسحب عينات من الدم، ويتفحص الفتحات والغدد، ويضع خريطة لمخها أمام لوح من الضوء. يحلل الظلال والأشكال، ويبحث عن ثقوب سوداء. يصر على أن لديها مخ امرأة شابة، مخ يفعل ما هو مفترض منه أن يفعله.

أسأل ما هو المفترض بالمخ أن يفعله. يطلق الخلايا العصبية ويفرقع مع التيارات الكهربية؟

يضيق عينيه ولا يجيب. تمنحه عضلات فكه رأسا مربعا وإفراطا قليلا في انطباقة أسنانه.

أقول: «لكن أمي تنسى...»

يقول: «نعم، هذا صحيح...» وأبدأ في ملاحظة لثغة في حديثه. يرسم الطبيب صورة على قطعة جديدة من الورق، سحابة منفوشة من المفترض أن تكون رسمة لمخ. يرفع قلمه عن الصفحة قبل الأوان ولا تلتقي الخطوط المنحنية عند نهاياتها، كما لو أن السحابة ترشح بالماء. «ينبغي أن نتوقع تدهورا معرفيا سيتجلى في فقدان الذاكرة وتغيرات الشخصية. ولن يختلف الأمر كثيرا عما لاحظناه بالفعل...» ويوضح: «عما لاحظتيه بالفعل. فمن غير الواضح كم يبلغ الحد الذي تلاحظه أمك.»

بقلم رصاص، يضع خطوطا أسفل المناطق التي تتدهور فيها الوظائف التشابكية العصبية، حيث تموت الخلايا العصبية. تبدو السحابة البيضاء الأصلية وقد بدأت في الازدحام بالخطوط. وتبدو الآن الفتحة التي تكونت

حيث لم يُكمل الشكل نعمة، طريقا للسماح بدخول بعض الهواء. ترتسم خريطة للقشرة المخية الحديثة والنظام الحوفي والمناطق تحت القشرية بضربات قلم عشوائية. أجلس على يديّ.

(قرن آمون) هو بنك الذاكرة، وفي هذا المرض، يجري تفريغ الخزائن. لا يمكن تكوين الذكريات طويلة المدى، وتتلاشى الذكريات قصيرة المدى إحداها في الأخرى. يصبح الحاضر شيئا هشا ويبدو بعد لحظات كما لو أنه لم يحدث قط. ومع ازدياد ضعف قرن آمون، قد يبدو الفراغ مختلفا، مشوها.

«هل تعرضت قط لإصابة كبيرة في الرأس ولديك علم بها؟ هل تعرضت قط، على حد علمك، لأي مواد سامة لفترات طويلة؟ ربما بعض المعادن الثقيلة؟ هل عانى أي شخص آخر في العائلة من أي مشكلة تتعلق بالذاكرة من قبل؟ وأي مشكلة تتعلق بالمناعة؟ أنا آسف، لكن علينا أن نسأل عن فيروس نقص المناعة البشرية والإيدز.»

تتدفق الأسئلة من فمه قبل أن أملك الوقت للرد، وأدرك أن ما أقوله قليل الأهمية في النهاية. لن تغير الإجراءات الواجبة ما تشاركناه بيننا في هذه العيادة، ولن يكون لتاريخ أمي أي علاقة بتشخيص حالتها.

داخل منحنيات السحابة، يرسم نجمة. وإلى جوارها يكتب «لوحة نشوانيات». هذه اللوحات عبارة عن تجمعات من البروتين تظهر عادةً في أمخاخ مرضى الألزهايمر.

أسأله: «هل رأيت واحدة منها في الأشعة؟»

يقول: «لا. ليس بعد، على الأقل. لكن أمك تنسى.»

أخبره أني لا أفهم كيف يمكن أن يحدث هذا، وردًّا على هذا يسرد قائمة

ببعض الأدوية الطبية الموجودة في السوق. أشهرها دونيبيزيل. يضع حوله دائرة ثلاث مرات.

«ما هي الآثار الجانبية؟»

«ارتفاع ضغط الدم، صداع، مشاكل في المعدة، اكتئاب.» يتطلع إلى السقف ويغمض عينيه نصف إغماضة، محاولا تذكر المزيد. في الرسمة، لا تبدو لوحة النشوانيات شديدة السوء. تكاد تكون ساحرة، كتلة متشابكة من الغزل الطويل. أنطق بهذا بصوت عال وأندم عليه بعد لحظة.

يسأل: «هل تخيط؟»

«لا. هي تكره أي شيء يبدو عملا منزليا. ما عدا الطبخ. إنها طاهية رائعة.»

«حسن، هذا لن يفيد. من الصعب للغاية التمييز بين وصفات الأكل. يمكن للخياطة، عندما تصبح ذاكرة عضلية، أن تتجاوز أجزاء المخ.»

أهز كتفيّ: «أظن أن بإمكاني المحاولة. ستكره الحياة.»

يقول: «لا يوجد شيء أكيد فيما يتعلق بها. قد تكون شخصا مختلفا تماما غدا.»

في طريق الخروج، يسألني الطبيب إن كنا على صلة قرابة بالدكتور ڤيناي لامبا، شخص له شأنه في مستشفى هام في بومباي. أخبره أننا لسنا كذلك، ويبدو محبطا، حزينا من أجلنا. أتساءل إن كان اختراع علاقة ما كان يمكن أن يفيد.

يقول: «هل تعيش أمك مع أحد؛ زوج أو ابن؟»

أقول: «لا. تعيش وحدها. حاليا.»

«لا تقضمي أظافرك..» تقول أمي في طريق العودة.

أعيد يدي اليمنى إلى عجلة القيادة وأحاول ألا أطبق عليها، لكن يدي اليسرى تتحرك بشكل آلي إلى فمي.

«أنا لا أقضم الظفر في الحقيقة، بل الجلد الميت.»

تقول أمي إنها لا تبالي بالفرق وأنها تعتقد أنه من الخزي أن تبدو أصابعي على هذا الحال بينما أنا دائما أفعل الكثير بيديّ. أظل صامتة بينما هي تتحدث لبقية الرحلة، منصتة إلى الطريقة التي تتحدث بها أكثر مما تقوله، الإيقاع والتردد في صوتها عندما لا تقول ما تعنيه، تخطئ في الكلام، تقحم كلمة تأنيب لتغطي على انعدام يقينها. تعتذر، تقول إني الملومة على أخطائي، تشكرني وتتنهد، وتمسد صدغيها. تغور شفتاها حيث تغيب اثنتان من أسنانها في جانب فمها، ويبدو كأنها أكلت شيئا مرا.

أسأل أمي إلى من تتحدث، لكنها لا تجيب. ألقي نظرة خاطفة على المقعد الخلفي، تحسبًا فقط.

في شقتها، نشرب الشاي مع بسكويت دايجستيف لأنه المفضل لدى أمي ولأنه كان يوما شاقا. أطلب من **كاشتا** أن تصنع معجون العسل والزنجبيل من أجل حلقي الذي يوخزني. لا تنطق أمي بكلمة بينما ألقي بهذه التعليمات.

«أضيفي بعض الكركم الطازج إلى هذا..» تقول بعد لحظة. «فقط قطعة في حجم قلفة رضيع ستكون كافية.»

تضغط ظفر إبهامها على طرف إصبعها الأوسط وهي تقول هذا،

لتقيس المقدار المضبوط. ثم تطرق بناظريها داخل فنجان شايها، مقلبة شيئا مبهما في صفحته.

أقول وأنا أكسر قطع البسكويت أنصافا: «من فضلك لا تتحدثي عن القلفة..»

«وما المشكلة في قلفة صغيرة؟ لا تكوني متصنعة للاحتشام هكذا.» إنها تتذكر كيف تهينني بطريقة جيدة بما يكفي.

شقتها عبارة عن فوضى هادئة. ثلاث رشاشات ملح أدمج محتوياتها في واحدة. مجموعة من الجرائد التي لم تمس تستقر على منضدة السفرة ذات المقاعد الأربعة. تصر أمي على الاحتفاظ بها، وتقول إنها ستقرأها يوما ما.

أقلب كيسا صغيرا من اللوبياء من السوق داخل طبق تالي[4] وأبدأ في تنقيتها. تحاول **كاشتا** أن تجذب الطبق مني لكني أدفعها بعيدا. وعندما أنتهي، أبدأ في فصل اللوبياء وفقا لدرجات اللون – الأخضر الزيتوني، الرمادي الداكن، البني الفاتح. تنظر أمي إلى الأكوام المنفصلة وتهز رأسها. أطرقع أصابعي وأستمر في الفصل. أعرف أن هذا لن يمثل فارقا بمجرد أن توضع كلها في موقد الطبخ، لكني بدأت الآن ولن أستطيع التوقف، لا أستطيع التوقف عن البحث عن الاختلافات، حتى تكون كلها في المواضع التي ينبغي لها أن تكون فيها، مصنفة، محاطة بعائلاتها.

تغفو أمي على الأريكة، وللحظة يمكنني تخيل كيف ستبدو عندما تموت، عندما يتهدل وجهها ويهجر الهواء رئتيها. حولها أشياء، وجرائد، وإطارات صور مليئة بوجوه لم ترها منذ سنوات. ووسط هذه الأشياء

4- طبق مستدير يستخدم لتقديم الطعام في جنوب وجنوب شرق أسيا، كما يشير إلى وجبة على الطريقة الهندية مكونة من مجموعة مختارة من الأطباق المختلفة التي يتم تقديمها على طبق كبير.

يبدو جسدها وحيدا وبلا حياة، وأتساءل إن كان الأداء من أجل العالم يبث شيئا حيويا، إن كان ضغط جمهورٍ ما هو ما يجبر الدم على الضخ. من السهل أن تنحل الخيوط عندما لا يكون هناك أحد يشاهدك.

تقف حجرتي القديمة بمعزل عن بقية الشقة، مثل ترقيع من جلد أجنبي. ثمة نظام، نسق ما تركته خلفي – شيء لم تتمكن من هدمه. على الحائط، في أطر متطابقة، هناك اسكتشات بالأبيض والأسود لوجوه علقتها على بعد خمسة سنيتمترات من بعضها البعض. الفراش مرتب، وأمرر يديّ فوق الملاءات لأزيل التجعدات، لكنها مكوية داخل النسيج.

*

منذ الانتخابات الأخيرة، تصيح أمي في شاشة التلفزيون كلما ظهر رئيس الوزراء الجديد عليها. يلبس رداءه الزعفراني كأنه ينتسب لمعبود هندوسي – مع طيات منمنمة ومتجعدة دائما في نفس المكان. تقول إنه السبب في أنها لم تعرف أبدا الحب الحقيقي.

أصحو في الظلام. هاتفي مضاء بدستة مكالمات فائتة من ديليب. تومض الأضواء من حجرة المعيشة. لا بد أن أمي تتفرج على أفواه تتحرك وهي مكتومة الصوت في التلفزيون.

السماء مظلمة، لكن المجمع الصناعي على مبعدة خمسة عشر كيلومترا يمنحنا ضوءا ورديا كاستهلال لقدوم الشمس. عندما أخرج لا أجد أمي على الأريكة، ولا أراها في البداية وهي واقفة خلف الستائر الشفافة بجسدها المنضغط على النافذة. الستائر المنسوجة، بنقوش البيزلي[5]

5- نقش على شكل نقطة الدمع من أصول فارسية. شاع تصميم البيزلي في الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وذلك بعد استيراد أقمشة ونسيج تحمل نقشة البيزلي في شكلها في فترة ما بعد المغول من الهند.

الرمادية والبيضاء، كفنتها جزئيا، تاركة ظلالا على جسدها. عبر النسيج، أرى وحمتها الغامقة: قرص مستطيل يقطع صفحة كتفها، نقطة تصويب على ظهرها. صدرها ساكن، كأنها لا تتنفس.

هي عارية، وتخطو إلى الخلف لتنظر إلى انعكاسها في الزجاج. تنظر إلى انعكاسي، حيث يلوح مجاورا لانعكاسها، وتنتقل بنظرها بينهما، كما لو أنها لا تستطيع تحديد الفارق. كثيرا ما تشبه المتناقضات بعضها البعض.

ألمس كوع أمي وتجفل. ثم تشير إلى شاشة التليفزيون، إلى الرجل الذي أسكتته بالتحكم عن بعد.

تهمس: «أنتما متواطئان معا..»

«أمي..» أحاول أن أهدئها، أن أجذبها بعيدا عن الزجاج، لكنها تتراجع إلى الوراء، وعيناها مذعورتان، ولست واثقة إن كانت تميز وجهي. تعود إلى طبيعتها بسرعة، لكن تلك النظرة كافية لسحب الهواء من رئتيّ. للحظة لم تعرف من أكون، وطوال تلك اللحظة أنا لا أحد.

ألاطفها حتى تعود إلى الفراش وأتصل بالطبيب. صوته خشن. كيف حصلت على هذا الرقم، يريد أن يعرف. تبدو مكالمتنا فجأة حميمية، وكأني قد عبرت خطا. لا بد أن زوجته إلى جواره، قامت منزعجة من نومها. أتخيل ما يرتديانه في الفراش، كيف تتغير ثيابهما في الليل. أشعر بشيء رطب بين ساقيّ.

أقول: «أمي لم تتعرف عليّ للحظة..»

«يمكن لهذا أن يحدث. ينبغي أن تعوِّدي نفسك على الطريقة التي سيتطور بها الأمر.» يبدو لسانه كبيرا في فمه، وصوته يفضح ضيقه،

ولديّ شعور أشبه بالرسوب في امتحان.

أقضي اليوم وأنا أقلب الأفكار في رأسي. لم يثر العلم اهتمامي قط، لكني أفتح نفسي أمام طوفان المصطلحات.

أبحث عن التركيب الكيميائي لدواء أمي، سلسلة من السداسيات الأنيقة، وجزيء من كلوريد الهيدروجين متدلٍ مثل ذيل. أنبش في دراسات الحيوان، الرسوم التوضيحية لأمخاخ الفئران التي فُتحت لرسم نشاطها. الأقراص الصغيرة التي يجب على أمي تناولها تعيق الكولينستريز؛ وهو إنزيم يدمر الأسيتيلكولين: الناقل العصبي. يزيد هذا من النشاط الذي ينبغي أن يحسن أعراض تطور المرض.

الأسيتيلكولين المتكون في الجسد يمكن أن يكون ساما.

يوجد الأسيتيلكولين في المبيدات الحشرية وفي أدوات الحرب الكيميائية، الشائع تسميتها بغاز الأعصاب.

يمكن لجرعة صغيرة من شيء ما أن تكون ترياقا. ويمكن لجرعة كبيرة أن تكون قاتلة.

أفتح نافذة أخرى. يمكن لجرثومة المعدة *Helicobacter pylori* أن تسبب قرح المعدة والسرطان لو تضاعفت بشكل خارج عن السيطرة، لكن عندما تغيب تماما عن أجساد الأطفال، تزداد معدلات الإصابة بالربو.

أتمنى لو كان الاعتدال حالة مريحة.

قائمة الآثار الجانبية أطول مما أشار إليه الطبيب. أريد أن أتصل به مرة أخرى لكني خائفة. علاقتي به متوترة. هل يمكن تسميتها بعلاقة؟ أمنع نفسي بقوة من التفكير أطول من اللازم في هذا الأمر.

هناك مجموعات دردشة مخصصة للقضاء على دونيبيزيل، منوهة بعدم فعاليته ضمن مساوئ أخرى. يوصى بزيت الكريل[6] في العموم من أجل صحة المخ. ثمة شيء كامل في بنية هذا النوع من القشريات الصغيرة، هذا المخلوق الذي يستطيع تحريك جسده بأرجل ليست أكثر من خيوط. الكريل أفضل من السمك، ويوضح رسم بياني السبب: يفضل المخ شكل الدهن الفوسفوري الذي يتخذه زيت الكريل.

أنقل التراكيب والصيغ الكيميائية للزيت في ورقة، لكن رسوماتي تنحرف عن الرسومات الأصلية، لتبدو أشبه بالكريل من الجزيئات. الهيكل الخارجي عبارة عن حمض إيثيل إستر، وثمة ثلاثة أحماض دهنية تشكل أطرافه المتأرجحة. وعندما أحاول الاستمرار في عملية شراء الزيت، أتلقى تحذيرا بأن الشركة غير مسؤولة عن التأخيرات الناتجة عن مصلحة الجمارك الهندية.

ويذكرونني بأن الزيت حساس للضوء وسيفسد في درجات الحرارة العالية.



6- رتبة من المفصليات تتبع طائفة اللينات الدرقة من شعبة المفصليات الأرجل، وتشبه الجمبري.

شب زوجي، ديليب، في أمريكا وهو يكسر بيديه أرغفته من خبز روتي[7]. قابلته منذ بضعة أعوام عندما انتقل إلى مدينة بونيه للعمل. كان هذا الانتقال بمثابة تخفيض في الدرجة، لكنه لم يذكر ذلك عندما بدأ الدردشة معي في مقهى (المخبز الألماني) على طريق نورث الرئيسي. لم أكن أتوقع رؤية شخص آخر هناك، بما أنه كان صباح يوم أحد ولا أحد يذهب إلى المقهى كثيرا منذ أن انفجرت قنبلة بداخله عام 2010.

كان المقام قد استقر بي على مقعد بلاستيكي أحمر مع حاسوبي الشخصي عندما انزلق جالسا في المكان المجاور لي. ابتسم. كانت أسنانه أشبه ببلاطات بيضاء مستقيمة. سألني إن كنت أعرف كلمة مرور الواي فاي وإن كان يمكنه أن يدعوني لتناول كوب من القهوة. قلت له إن القهوة تجعلني مهتاجة الأعصاب، وأحيانا متبجحة. سألني عما كنت أعمل عليه، ورغم أني لم أرغب في إخباره بأمر رسوماتي، إلا أني فكرت أن الفنانين لا يمكن أن يكونوا خائفين من تقاسم الأسرار مع الغرباء.

كان يتنفس بعمق وهو منصت ومائل إلى الأمام. كان المقعد البلاستيكي الأحمر يئن تحت ثقله وقد ضم ركبتيه في زاوية حادة. حدق أحدنا في الآخر لفترة وسألني إذا كنت أريد أن أخرج لتناول وجبة في نهاية ذلك الأسبوع. احترت أمام كلمة «وجبة» قبل أن أدرك أنه يقصد العشاء. (ومن ساعتها بدأت في التقاط الكثير من لزمات كلامه).

سألني إن كنت أعرف أيا من المطاعم الكائنة في طريق الأشرم.

7- خبز مستدير يُصنع في شبه القارة الهندية من طحين القمح الكامل والماء وهو خالٍ من الخميرة.

قلت: «نعم، قضيت بعضا من طفولتي مقيمة في الأشرم. أعرف المنطقة جيدا.»

كان الموعد مبهجا. تشاركنا الإسباجيتي، وطهونا وقدمنا الطعام في أعشاش صغيرة. أوراق خضراء من الريحان مطوية عند الحواف وفي وسطها طماطم الكرز الصغيرة مشوية حمراء وصفراء، موضوعة كأنها بيض لم يفقس. ألقت أشجار التين البنغالي الطويلة ظلالها حول الساحة الغارقة في الأضواء الصناعية، وبدت وجوه الحاضرين غائمة. أخذنا مائدة متوارية في الركن، مائدة كانت لتغدو مثالية لاثنين بينهما علاقة عاطفية، مثالية جدا حتى أن بمقدور أحدهما أن يرسل إلى الآخر رسائل شفوية من رمز واحد -رقم واحد ليدل على الزمن- لأن الموقع يمكن أن يظل على حاله.

قلت هذا بصوت عال دون أن أنقح كلامي ووجده هو مسليا، بل ومبدعا، وسألني إن كنت أحب خلق القصص. قلت: «التواصل بأكبر كفاءة ممكنة كان دائما يثير اهتمامي.» أردت أن أسأل إن كنا في موعد غرامي. كنت أنام عادة مع رجال كانوا أصدقاء أو قابلتهم من خلال أصدقاء، وظللنا شيئا ما بين الأصدقاء والعشاق، لكن لم يكن هناك قط طبق مليء بالطعام في الموضوع أو دفع فاتورة حساب.

يحكي ديليب القصة بطريقة مختلفة. أو ربما فقط تبدو القصة مختلفة بصوته، بحروف مده المستديرة وكلماته المدغومة. يصف الإحساس الذي انتابه عندما رآني، يقول إني بدوت مثل فنانة بوهيمية، ويذكر أن القميص الذي كنت أرتديه كان ملطخا بلون ما. هذا محض اختلاق – فأنا لا أرتدي أبدا الملابس التي أعمل بها خارج مرسمي. وأنا لست رسامة.

يميل ديليب إلى المبالغة. يقول إن أخته جميلة بينما هي ليست كذلك

بالقطع. ويقول عن كثير من الأشخاص إنهم لطيفون وهم لا يستحقون هذه الصفة. وأنا أعزو هذا لكونه جميلا ولطيفا أيضا. يتحدث ديليب أيضا عن ملايين الأصدقاء لديه بعد عودته للوطن، لكن لم يأت إلى زفافنا في بونيه إلا أربعة فقط. ولم يكن هذا ما يعنيني. فقد استمر الاحتفال بزفافنا يومين فقط، بإصرار مني، وهو ما قالت أمه إنه لم يكن وقتا طويلا بما يكفي للسفر من أجله. جاء والداه وأخته من الولايات المتحدة مع نصف دستة من أقاربهم. وقالت جدتي إن الكجراتيين[8] القادمين من أمريكا يقيمون مواكب زفاف مخيبة للآمال.

في فترة الإعداد للزفاف، أعطت والدة ديليب لمُنجِّمها تاريخ ومكان ميلادي للتأكد من أن نجومي توافق نجوم ابنها. والحقيقة أن أمي فقدت شهادة ميلادي منذ سنين، خلال الوقت الذي كنا فيه مشردتين، ولأن البحث في سجلات الميلاد الرسمية سيكون مصدرا للمتاعب، اخترعنا شيئا بدا تقديرا تقريبيا عادلا.

قالت أمي: «أعرف أن الوقت كان ظلاما..»

رددت عليها: «هذا يضيق الاختيارات إما في الصباح الباكر أو في وقت متأخر من الليل!»

أخبرنا والدة ديليب أني وُلدت في الساعة 8.23 مساء، الساعة 2023 بالتوقيت العسكري؛ مصممتين على موضوع الدقيقة الثالثة والعشرين لأن أي شيء ينتهي بالصفر أو الخمسة قد يبدو مختلقا. قبل الزفاف

8- مجموعة عرقية هندية تتحدث اللغة الكجراتية، والموطن الأصلي للكجراتيين هو الهند؛ حيث يشكّلون غالبية سكان ولاية كجرات. بالإضافة لوجودهم في دول عديدة هاجر إليها الكجراتيون كباكستان، والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وماليزيا، وسنغافورة، وفيجي، وبعض الدول الإفريقية.

بأربعة شهور اتصلت والدة ديليب بي في البيت.

قالت: «تحدث الكاهن إليّ. إنه قلق جدا.»

رُسمت خريطة ميلاد لي، خريطة تمثل السماء في اللحظة التي وُلدت فيها. وُجد أن المريخ، الكوكب الأحمر، كان في هيئة خطرة، متموضعا بشكل مباشر في منزل الزواج.

قالت: «أنت مريخية، هذا ما يطلقونه على الناس من أمثالك.» كان الخط مشوشا، وفاتتني بقية الاتهامات. أوضحت أني لو تزوجت من ابنها، من الممكن لطاقاتي النارية أن تقتله. بقيت صامتة لفترة، متساءلة إن كانت هذه هي طريقتهم في الانفصال: هل طلب ديليب من أمه أن تتصل وتفسخ خطبتنا؟ كان بمقدوري أن أسمع صوت تنفسها، وهي تفتح وتغلق شفتيها الرطبتين بالقرب من السماعة. ربما توقعت اعتذارا: لكني لم أقدم أي اعتذار.

«لا تقلقي..» هذا ما قالته عندما طال الصمت حتى بلغ درجة غير مريحة. «لدى الكاهن علاج.»

في اليوم التالي ظهر كاهن عند بابنا. لم يكن الكاهن الخاص بحماتي، لكنه مبعوث محلي اختير ليصلح الأمور.

«ما هذا؟» قالت أمي بينما كنا نراقبه وهو يضع سجادته المغزولة على بلاط الشقة.

قال الكاهن: «كوكب المريخ حاضر بشكل أكبر من اللازم. هذا سيء بالنسبة لزوجها.»

«هراء خرافي.» جذبت أمي عود بخور من يده وبدأت تلوح به حول رأسه.

استمر الرجل في عمله، دون أي انزعاج. رص ثمرات من الفاكهة في صوانٍ من الفولاذ. ثم زهورا. وحليبا. كانت هناك أثواب من الساري وقماش أحمر مطرز. جلس الرجل أمام إناء فخاري وأشعل نارا بالسمن وقطع الخشب والجرائد.

كان خدر الصيف مهيمنا علينا، وبدا داخل الشقة أشبه بطنجرة ضغط. عطست واستقرت في راحتي كرة من المخاط الأسود، غليظة ودامية مثل ورم خبيث. كنت متأكدة أنها فأل سيء ومسحتها في جلدي أسفل ردائي. رص الكاهن أنسجة حمراء وبرتقالية فوق عدة كتل خشبية. كان يحرك يديه بسرعة، صانعا صلبانا معقوفة من حبات أرز غير مطبوخة، واضعا حبات كاملة من جوز التنبول هنا وهناك لتمثل الكواكب في الكون، داهنا إياها ببركة صلاة ما أفلتت مني.

جلست أمام أربعة أوثان برونزية. لم يكن طولها يتجاوز أكثر من عشرة سنتيمترات، ملفوفة بطبقات من القماش ومكللة الرؤوس بالزهر.

قال الكاهن: «اليوم، هذا هو زوجك..»

نظرت إلى الآلهة. كانت وجوههم متشابهة تقريبا، إلا جانيش، الذي كان نابه ينثني في ابتسامة.

«ماذا؟ كلهم؟»

ابتسم الكاهن: «لا، هذا فقط. ڤـيشنو. سيمتص طاقاتك الشريرة بالزواج منك أولا، حتى لا يتعذب زوجك التالي.»

بدا ڤـيشنو رقيقا، بأنف معقوف وذقن صغيرة.

سألت الرجل المقدس: «هل عليّ أن أفعل هذا؟ ألا يمكننا فقط أن نخبر الجميع أنني فعلت هذا؟»

لم يرد الكاهن.

كانت المراسم طويلة، أطول مما سيكون عليه زفافي لديليب بعدها ببضعة شهور، ومليئة بالترانيم. طُفت حول النار، محتضنة الإله الصغير بين ذراعيّ، مراقبة وجهه الساكن. وُضعت قلادة (مانجالسوترا) حول عنقي وخط قرمزي من مسحوق السندور في مفرقي، كرمز لكوني امرأة متزوجة. بعد انتهاء المراسم، انتُزعت القلادة من حول عنقي ومُسح المعجون القرمزي ليلطخ جبهتي.

قال الكاهن: «تزوجتِ وطُلقتِ.» نظرت في المرآة. كان هناك أثر تركته كلابة القلادة على بشرتي. وكان وجهي مرقطا باللون الأحمر. كان عملا عنيفا. صافحني الكاهن. ثم طلب صدقة وكوبا من الشاي.

قبل شهر من زفافنا، رافقت ديليب في رحلته بالسيارة لمدة أربع ساعات إلى مطار بومباي لاستقبال أمه. استأجر سائقا وسيارة (إنوفا) كبيرة مكيفة الهواء لاستيعاب كل أمتعتها. قبل أن نصل، كانت واقفة في الخارج مع حمّال، تهوّي على وجهها بمنشور إعلاني صغير وتهش عنها سائقي التاكسي. لم تكن امرأة طويلة، لكنها كانت تشغل حيزا حيث وقفت، تدفع المارة بكوعيها وتسد الطريق بوقفتها العريضة. كانت قبعتها المنسوجة لحمايتها من الشمس، وصندلها، وبنطالها، وقميصها بنفس الدرجة من اللون الوردي. اعتقدت أني لمحت عبوسا على وجهها حتى وقعت عيناها على ابنها. ارتخت قبعة الشمس قليلا عندما لوّحت بجنون في اتجاهنا.

«لم أعد إلى هنا طوال عشر سنوات!» قالت في تحيتها. كانت في تمام يقظتها بينما كنا ننطلق فوق سلسلة جبال جاتس الغربية الدراماتيكية،

مشيرة إلى كل كومة زبالة على طول الطريق السريع وهي تهز رأسها. قلت لها إن التلال كانت جميلة وقت الرياح الموسمية، وهي محاطة بالضباب ومبتلة من المطر، رغم أن سماء الصيف الآن صفحة لامعة متواضعة من البياض. كانت ميولها الارتيابية ترتفع عند كل كشك لتحصيل الرسوم، والتي -كما لاحظت- بُنيت دون وضع متوسط ارتفاع المركبة أو طول الذراع الإنساني في الاعتبار، وكان مطلوبا رجلين كوسيطين ليسلما النقود إلى ضابط الرسوم.

«هذا البلد..» وتنهدت. «أظن أنها طريقة لمنح وظيفة لكل شخص. اجعل ثلاثة يقومون بعمل لا تحتاج فيه إلا لشخص واحد.»

عندما وصلنا إلى بونيه، تنحى الطريق السريع العريض المزين باللافتات زاهية الألوان مفسحا الطريق لأزقة ضيقة ذات مشروعات صغيرة – نُزُل، مطاعم، محلات دراجات تناثرت في الطريق. وبينما كنا ننتظر عند إشارة مرور، خرج ولدان صغيران من منطقة عشوائية مؤقتة قريبة. جلس الاثنان القرفصاء، وهما يدعكان عيونهما ويتثاءبان.

قالت والدة ديليب: «يا إلهي! انظرا إلى هذين الصبيين. ألا يستطيعان الذهاب خلف بيتهما؟ ثمة لافتة بوجود مرحاض عمومي هناك.»

تخيلت أن المراحيض كانت أقل من المناسب لكني لم أقل شيئا، آملة بدلا من ذلك أن تتحرك السيارة الواقفة أمامنا. لكنها لم تتحرك، وانضم إلى الصبيين صبي ثالث اقترب أكثر من الرصيف.

صرخت: «هذا جنون!»

قال ديليب ضاحكا: «دعيهم وشأنهم..»

قالت: «قلة حياء!» وجذبت هاتفها من حقيبتها، ثم بدأت تسجل فيديو

لهم. شبكت ذراعيّ، آملة ألا يلاحظ الصبية، لكني أدركت أنهم لاحظوا عندما نهض ثلاثتهم وواجهوا سيارتنا في نفس اللحظة.

لحسن الحظ، تغير لون الإشارة. ضحكت أم ديليب بينما كنا ننطلق مبتعدين، وشاهدت الفيديو مرارا لبقية الرحلة. حاولتُ أن أشتت انتباهها -فقد كانت المرة الأولى لها في بونيه- بالإشارة إلى الامتداد الأخضر الكبير للقاعدة العسكرية، الظل العميق الذي غطانا ونحن نمر أسفل بعض أشجار التين البنغالي العتيقة. بونيه مدينة داخلية والهواء فيها جاف، باردة في الشتاء ومتربة في الصيف، لكنها أبدا لا تكون مبتلة وآسنة كما يتوقع المرء أن يجد في بومباي. اقترحتُ قائمة من الأماكن التي يمكننا زيارتها - حصن (شانيوار وادا) التاريخي الذي كان مقر أسرة بيشوا الحاكمة المحلية، معبد صغير لكن جميل للإله شيـڤا، محل الحلويات المفضل لديّ في الشارع الرئيسي، في حالة أنها رغبت في الاستمتاع به. مررنا إلى جوار نادي بونيه، حيث كان سيقام زفافنا وحفل الاستقبال، وحاولت أن أترك انطباعا قويا لديها بإخبارها كم كان شيئا مميزا بالنسبة لي أن أتزوج هناك؛ وأن جديّ كانا عضوين طوال ما يزيد على أربعين عاما، ورغم أن أمي لم تبدِ قط اهتماما، كنا أنا وديليب سننال العضوية قريبا. وكان أيضا أول مكان ناقشنا فيه أنا وديليب مسألة الزواج، حول كأسين من البيرة، بعد جولة سباحة متأخرة يوم أحد. لم أذكر بعضا مما لديّ من ذكريات أخرى للمكان، عن الجلوس كشحاذة وراء تلك البوابات الجليلة. كان من الأفضل ادخار بعض الأشياء إلى ما بعد الزفاف.

أطالت والدة ديليب النظر، وأومأت برأسها، ولاحت ابتسامة ناحلة على فمها. «بنى البريطانيون بعض المباني الجميلة.»

*

كانت الأسابيع السابقة على الزفاف هي الأكثر سخونة في الصيف. فقط الشجعان من كانوا يخاطرون بالخروج. كانت الأبقار والكلاب والبشر تسقط ميتة في الشوارع. وجاءت الصراصير لتقدم واجب العزاء فيهم. كان يوما حارا على نحو خاص عندما جاءت حماتي وديليب إلى شقتنا على الغداء. لعنتُ بونيه لتركها انطباعا سيئا. شعرتُ بالمسؤولية عن كل شيء كريه فيها، الأشياء التي لم ألاحظها من قبل. لم تكن الحرارة عالية فقط، بل كانت غير محتملة. لم يكن الهواء ثقيلا فقط، بل كان غير قابل للتنفس. اعتقدتُ أني قد أصبحت حساسة تجاه العيوب المعتادة والخلل في حياتنا من خلال معايير ديليب وتفضيلاته، لكن فقط مع وصول والدته أدركتُ أنه قد أصبح محصنا تجاه بعض المشاق مع الوقت. كنت قلقة من كل عيب في الوقت نفسه الذي كنت فيه واعية على نحو مفرط بأن بعض العيوب قد تضيف إلى سحر المدينة. إلى أي حد أردت أن أحرِّف المكان الذي كنت أعيش فيه -أو من كنت- وهل كان بمقدوري حتى أن أميز ما كان ستارا مرغوبا ومالم يكن؟

شرب ديليب ووالدته ماء جوز الهند وعصير نيمبو باني[9] اللاذع، جاهلين بأني قضيت الأسبوع السابق أرتب حطام البيت الذي كنت أشارك أمي فيه، معيدة طلاء الحوائط الطافحة بالنتوءات، مزيلة المرايا المشقوقة، ومصلحة أغطية الأرائك الممزقة.

كانت حماتي مغرمة بارتداء الألوان غير المعتادة و -كما أدركنا- مولعة بالقبعات. دارت أمي ابتسامتها عندما دخلا، ولم أستطع أنا أيضا تجاهل سخافة ملابس السيدة. عرفتُ أنها لم تكن امرأة ذات ذوق أو إدراك استثنائيين، ومع ذلك جرحني استهجانها لبونيه.

9- عصير ليموناده هندي يضاف إليه مكونات أخرى مثل الملح والزعفران والكمون، ويحمل أسماء أخرى مثل شيكانجي، شيكانجفي، شيكانجبي وشكانجبين.

بعد الغداء، جلسنا في شرفتنا الصغيرة وناقشنا قائمة مهام الزفاف. كان هذا هو الوقت الذي يتكدس فيه الجيران في شرفاتهم، التي صُممت لتبدو مثل علب صغيرة مرصوصة فوق بعضها البعض. كانوا يلوحون بأذرعتهم ليطردوا الحمام والغربان، ويجسون بأصابعهم الغسيل الذي سيعلقونه ليجف في شمس الأصيل.

ظهر العرق على وجوهنا. أسفلنا بثلاثة طوابق، كان بمقدوري رؤية أعلى رأس، رأس امرأة، ذات شعر ناحل عند مفرقها، وضفيرة سميكة بلون الملح والفلفل الأسود التفت حول نفسها. كان بمقدوري سماع صوت مكنستها، المصنوعة من قصب مربوط إلى بعضه البعض، وهي تكشط الأرض بينما أوراق النبات وذرات التراب تخشخش وتسقط، تخشخش وتسقط، في شكل ما من ترتيبها السابق. هب دخان في الهواء، حاملا رائحة وقود وقمامة تحترق، لكننا لم نتحرك لندخل. كانت الأصوات داخل المجمع السكني هادئة مقارنةً بالنفير المنخفض، المتصاعد من قضبان السكة الحديد القريبة كلما مرَّ قطار.

نظرت إلى السماء المغبشة وحاولت أن أشعر بالرضا، بالرضا لمعرفة أنه رغم قضائي لسنوات عديدة هنا، سأرحل عن هذا المكان أخيرا. نظرتُ إلى ديليب. كان وسيما وطويلا بطريقة تجعل الجميع يعرفون أنه نشأ في الخارج. قبعات بيسبول، وسلوكيات طيبة، وسنوات من استهلاك الألبان الأمريكية. كان ينقذني، رغم أنه لم يكن يعرف هذا. افتر ثغره عن ابتسامة على شيء قالته أمي، وتمكنت من رؤية كل أسنانه الاثنتين والثلاثين، منتظمة ومضبوطة بفعل سنوات من مشابك تقويم الأسنان خلال فترة المراهقة.

لاحقا، فوق سلطانية من الرابري[10] الحلو المترع بالحليب، التفتت حماتي إلى أمي وقالت: «تارا-جي[11]، الكاهن، أراد أن يناقش مراسم الزفاف. سأل إذا كان لديكم أي أقارب، ربما زوجان، يمكنهما الجلوس داخل المانداب[12] ويقوما بإفساح المجال للعروس في محلكم.»

قالت أمي: «ليس لديّ، ربما هناك أولاد عم. لكن يمكنني القيام بذلك جيدا وعلى نحو كاف أنا نفسي.»

فتحت والدة ديليب فمها وأغلقته، شافطة الهواء وطاردة إياه عدة مرات، قبل أن تتحدث مرة أخرى. كان هذا تشنجا معتادا لديها، وكأن الكلمات كانت بحاجة لإنعاش قبل أن يمكنها إطلاقها: «عادةً عندما تكون الأم أرملة، يؤدي بعض الأقارب الآخرين هذا الجزء من المراسم.»

قالت أمي: «لكني لست أرملة.»

وضعت والدة ديليب الملعقة جانبا. انفتح فمها وانغلق مرة أخرى. ثم بدأت تنفخ الهواء داخلا وخارجا بصوت عال، كما لو كان شيء ما أمامها يحترق. نظرنا جميعا نحو ديليب، الذي كان يمد يديه متناولا المزيد من التحلية، مخلفا خطا من الكريمة على المائدة.

«كان هذا أقل مدعاة للجدل..» هكذا قال لاحقا، عندما كنا وحيدين. «الهنود في أمريكا محافظون أحيانا. لم أرد أن أخبرهم أن والديك مطلقان.»

10- طبق حلو مصنوع من الحليب المكثف ويتكون من غليان الحليب على حرارة منخفضة لفترة طويلة حتى يصبح كثيفا ويتحول لونه إلى الأبيض الفاتح أو الأصفر الباهت. ويتم إضافة التوابل والمكسرات لإعطائه نكهة. يبرد ويقدم كحلوى.

11- جي لقب تشريفي يُلحق بالاسم كنوع من الاحترام، كأنها تخاطبها قائلة: يا تارا هانم.

12- بناء صغير ذو أعمدة يقام بشكل مؤقت لتحدث داخله طقوس الزواج.

من شرفة شقة أمي، اعتدت أن أراقب الكلاب الضالة عندما أعود إلى البيت من المدرسة. كانوا في العادة كسالى، لهم براثن مشوهة وآذان متآكلة، يتمددون وسط عصاباتهم، ولا يتحركون إلا لتفادي السيارات والتكاتك أو لاعتلاء أمهاتهم وأخواتهم. أظن أنها كانت المرة الثانية لي في مشاهدة الجنس، جالسة في زيي المدرسي الأزرق الداكن، مراقبة المشهد في الأسفل، لكن كان من الصعب التفريق بين الكلاب المتقاتلة والمتسافدة. أحيانا هناك تدور معارك عندما تدخل كلاب منبوذة أخرى أرضهم. زمجرة عالية التردد أو تحطم غصن تحت الأقدام كان يمكن أن يهيجهم، وفي وقت متأخر من الليل، عندما كان من المفترض بي أن أكون نائمة تحت ناموسيتي، كنت أسمعهم وأسمع صرخات حروبهم. أذكر، ذات صباح في طريقي إلى المدرسة، رأيت كلبة صغيرة جالسة قرب البوابة، بطنها ترتج بالدود وتحتشد البراغيث متحركة عبر جسر أنفها. وفي مكان ذيلها كان هناك ثقب دامٍ.

بعد زواجي من ديليب، ورثت أسرته وأثاثه ومجموعة جديدة من الحيوانات الضالة. الكلاب القريبة من بيته أهدأ، فقد أتخمتها مجموعة من ربات بيوت بونيه بالطعام وقامت بإخصائها. يتشممون الهواء وألسنتهم مدلاة فوق أنيابهم. أحيانا، يعضون أعضاء بعضهم البعض التناسلية ويئنون طالبين الطعام.

انتقلت إلى شقة ديليب في يونيو، خلال فترة انتظار الرياح الموسمية. تأخرت الأمطار. فأل سيء. سيكون هذا عاما سيئا. ذكرت الصحف أن الفلاحين يلومون الكهنة لعدم إلهامهم الآلهة، والكهنة يلومون الفلاحين لنقص لديهم في التقوى. في المدينة كان هناك قدر أقل من هذه النوعية من الكلام، ومزيد منه حول تغير المناخ. النهر الذي يتدفق في الجوار يرتفع

وينخفض باعتيادية ما، لكن الرياح الموسمية تأتي بفيضان ذي مياه بُنية هادرة.

عندما يثير ديليب شهوتي بلسانه، يمرر أنفه على شفريّ ويأخذ نفسا عميقا.

يقول: «ليس له رائحة..» وهو فخور بهذه السمة، ويقول إنها غير معتادة وقد تكون واحدة من الأسباب التي جعلته يتخيل وجودنا معا. حياته مليئة بالروائح الحادة الآن، في المكتب وحتى أثناء ركوبه أي مصعد، ومن المريح له أني بلا رائحة بعد عمل شاق وفي مواقف عالية الضغط. نشأ في مدينة ميلووكي، حيث لم تعرف أذناه إلا أعواد التنظيف القطنية وسكون الضواحي. بونيه، كما يقول، صاخبة فعلا، شرسة فعلا، لكن بإمكان حواسه تدبر الهجوم عليها طالما أن بيتنا يعيده إلى حالة الحياد. وهو يخبر الجميع أنه لم تحدث أي تغيرات صارخة عندما انتقلت إلى شقته، أن حياتي اندمجت في حياته بسلاسة.

واعية بخوفه من الانقلابات الحادة، كنت أقوم بالتغييرات في حذر، مزيلة أولا أي ملاءة سرير أو منشفة يمكن أن تكون قد استخدمتها نساء أخريات. ثم الكتب أو قطع الملابس التي ربما أهدينها له. عادة كانت الكتب تتخذ شكل شعر عاطفي ملتاع ويمكن اكتشافها من ملحوظة مكتوبة على الصفحة الأولى. ببطء نظفت أي أثر لوجودهن: صور قديمة، خطابات، أقداح، أقلام مأخوذة من حجرات فنادق، قمصان عليها أسماء مدن سافروا إليها معا، أحجار مغناطيس على شكل قطع أثرية، أوراق شجر محفوظة في ورق، مجموعات من أصداف باهتة في برطمانات من أجازات على الشاطئ. كانت هذه الإجراءات متطرفة، لكني أردت بيتا وزواجا خاليين من الحواف الرمادية الغائمة.

تضع أمي باذنجانة على الموقد، ونشاهد ألسنة اللهب وهي تتغذى على قشرتها الأرجوانية. اللحم البني الفاتح في الداخل يتصاعد منه الدخان. تفصل البذور وتلقي بها في صفيحة الزبالة. معجزة ألا تحترق أصابعها. وعلى لوح بلاستيكي أبيض، تقطع الفلفل الحار والبصل الأخضر الصغير. اللوح ملطخ بالكركم، ومازال هناك قليل من التراب ملتصق بحلقات سيقان البصل، لكنها تطلب مني ألا أدقق في الأمور التافهة. تقلي بذور الكمُّون في الزيت وتصبها فوق الباذنجانة التي يتصاعد منها البخار، وتتبعها بأوراق كزبرة مقطعة. يطرطش الزيت على جانب الموقد. أسعل أثناء خلط مكونات السلطانية. خادمتي، إيلا، تسوي الساري الذي ترتديه وتتنهد. تبدأ مهمة تنظيف فوضانا بينما نحن نخرج بالأطباق إلى حيث يجلس ديليب على مائدة الطعام.

لا تأتي أمي إلى بيتنا كثيرا. تقول إن الصالة الرئيسية تزعجها، خاصةً المرايا التي تغطي كل حائط، عاكسة كل شيء في اتجاهات مضاعفة. بالنسبة لديليب، كانت المرايا نقطة جذب عندما كان يبحث عن تسويق البيت، علامة على أنه صنعه، وذروة كل خيال لديه عن المرايا وأفلام البورنو. بالنسبة لأمي، الحجرة تضج بالحياة أكثر من اللازم، مع تناسخ كل شيء وكل جسد أربع مرات، ومع تكرار كل استنساخ بشكل أكبر في الانعكاس. تجلس إلى المائدة وقدماها تتقافزان بعصبية، متسلقة إحداها الأخرى كفأرين يهربان من حرارة الظهيرة. بالنسبة لي، فقد اعتدت المرايا، بل وبدأت في الاعتماد عليها عندما نتشاجر أنا وديليب لأن رؤية انعكاس يصرخ تشبه مشاهدة التليفزيون.

يقول ديليب: «إذًا يا ماما، كيف تشعرين؟»

يدعو أمي (ماما) كما يدعو أمه. عانيت في البداية، لكن الأمر كان سهلا بالنسبة له أن يدعو امرأتين بكلمة ماما ويسمي مكانين بالبيت.

تحاول أمي أن تتكلم بلكنة أمريكية عندما يكون ديليب موجودا. تعتقد أنه لن يفهمها بغير ذلك، وإذا حاول أن يتحدث بالهندية، ترد بالإنجليزية. تحاول أمي محاكاة حروف مده القادمة من الغرب الأوسط الأمريكي ووقفاته الواثقة التي تفترض أن بقية العالم سينتظره كي يكمل جملة.

«بأمانة يا بني، عندما أبلغني الطبيب بالخبر، بدأت أخاف الأسوأ. بل إني بدأت في وضع خطط للتخلص من حياتي - يمكنك أن تسألها، أليس هذا صحيحا؟ آسفة، أنا لا أحاول إفساد وجبتكم، كلوا أولا، كلوا أولا، سنتحدث لاحقا. ما رأيك في طبق الآمتي[13]؟ آمل ألا يكون حارا أكثر من اللازم؟ نعم، للرد على سؤالك، كنت مذعورة في البداية، لكن الآن لا أعتقد أني مريضة حقا. أشعر أني بخير جدا.»

يومئ ديليب وينظر في المرآة التي أمامه. «أنا سعيد جدا لسماع هذا.»

«أمي، الطبيب يقول إنك تنسين.»



«كانت صور أشعتي طبيعية.»

«نعم، يمكن لصور الأشعة أن تكون طبيعية حتى لو...»

«لماذا تستمرين في الإصرار على أني مريضة؟» تمسك بشريحة من البصل النيء في يدها. تسقط عائدة إلى طبقها وهي تتحدث.

«أنت تنسين الأشياء. تنسين كيف تفعلين الأشياء، أشياء أساسية؛ مثل

13- طبق من العدس مع إضافات عديدة مثل الفلفل الحار والكمون أو الشطة والطماطم أو التمر هندي.

استخدام هاتفك الجوال ودفع فاتورة الكهرباء.»

«آه، في الحقيقة لم أعرف قط كيف أدفع الفاتورة. هذه الأشياء على الإنترنت مربكة أكثر من اللازم.»

أُنزل يديّ. لم تقل هذا للطبيب.

«وماذا عن كالي ماتا؟ طلبتِ مني الاتصال برقم إنسانة ماتت منذ عشر سنوات.»

«سبع سنوات..» تقول أمي وتلتفت إلى ديليب. «انظر كيف تكذب؟»

ينقل ديليب نظراته بيننا. وعندما يقطب، تتراءى ندبة من إصابة قديمة في مباراة كرة لاكروس على صدغه.

«أنا لا أكذب.»

«بل تكذبين. هذا ما تفعلين. أنت كاذبة محترفة.»

نوصل أمي إلى البيت بعد العشاء ويهمهم ديليب إلى نفسه في هدوء. لا أستطيع تمييز اللحن، لذا أقاطعه.

«هل يمكنك أن تصدق ما كانت تقوله؟»

يتوقف قليلا ثم يجيب: «ربما هي لا تصدق أنها مريضة.»

«عليها أن تصدق هذا.»

«أنت لست ذات سُلطة.»

يؤلمني أن يكون عجزي ظاهرا إلى هذا الحد. «لم أقل إني ذات سلطة. قال الطبيب إنها مريضة.»

«ظننت أن الطبيب قال إن لديها مخ امرأة شابة.»

«لكنها تنسى أشياء – أشياء مهمة.»

«مهمة لمن؟ ربما تريد أن تنسى – ربما لا تريد أن تتذكر أن صديقتها ماتت.»

«الأمر سواء في الحالتين؛ هي تنسى.» أسمع نبرة صوتي وقد غدت حادة.

«النسيان الاختياري ليس مثل الخرف يا أنتارا.»

«هذا شيء ليس له معنى على الإطلاق. لماذا قد ترغب في نسياني؟»

يأخذ ديليب نفَسا ويهز رأسه. «أنت الفنانة، كوني منفتحة على الاحتمالات.»

«دعتني بالكاذبة.»

«حسنٌ، أليس هذا ما تصنعين الفن حوله؟ حول كيف لا يمكن الثقة بالناس؟»

لقد ارتخى وجهه. يبدو محبطا. أحاول أن أحاكي نظرته لكني لا أشعر بالرغبة في ذلك، لذا أقضم ظفر إصبعي الوسطى، أو على نحو أكثر دقة، منطقة الجلد الميت. يمد ديليب يده ويُنزل ذراعي.

لا يدور فني حول الكذب. بل يدور حول جمع البيانات، المعلومات، والعثور على الشواذ. يدور فني حول النظر إلى حيث تتوقف النماذج عن الوجود.

قبل زواجي، سمحت لي جدتي باستخدام حجرة في بيتها كمرسم. كانت مريحة ومظلمة ومضيئة بنسبة طيبة، مكان بدأ فيه اهتمامي بالتجميع وأنا طفلة، وسط الأشياء التي تركها خلفهم السكان الراحلون للبيت

ذي الطابق الواحد الذي عاشت فيه جدتي وجدي. مصابيح تنجستين، بطاريات، حبال، أقلام، طوابع، عملات. بدأت بالبحث عن التواريخ والتصميمات الخاصة بهذه الأشياء، ضائعة تماما في الموسوعات الخاصة بالطاقة وبراءات الاختراع في المكتبة، منتهية دائما بعيدا عن المكان الذي بدأت فيه. ولتجنب هذه الانحرافات المفاجئة، بدأت في رسم الأشياء بنفسي، مخططة إياها كما رأيتها، ناقلة إياها إلى أقرب ما أستطيع. قد يكون خطي سيئا، ميكانيكيا أكثر من اللازم، يفتقر الحيوية، لكن يدي ثابتة ودقيقة. بدأت في جمع الحشرات الميتة، والتي من الصعب على نحو مدهش العثور عليها كاملة وغير فاسدة. أحد ممتلكاتي الثمينة هو عدد من حشرات العثة متحجرة في الشمع أحتفظ بها في برطمان زجاجي.

تجمع المتاحف الأشياء البارزة -أول هاتف خلوي، أول حاسوب- ربما لعرضها ذات يوم في المستقبل (بافتراض أن المتاحف سيكون لها مكان في المستقبل). كبرت في زمن الهواتف الأرضية وساعات (سواتش) ولدي مجموعاتي الخاصة المخزنة: زجاجات مكتوب عليها (ثامس آب) و(جولد سبوت)[14] بعد أن لم يعد هناك وجود لهاتين العلامتين التجاريتين، لكن أيضا منظفات لسان عتيقة ودفاتر أوتوجراف زاهية كنت أطلب من الغرباء توقيعها في الشارع عندما كنت طفلة.

يقول ديليب إنه لو بدأت كل البراكين في كافة أنحاء الكوكب في الانفجار، مغطية القشرة الأرضية بأميال من الحطام، وكانت شقتنا هي الشيء الوحيد على الإطلاق الذي سيجري الكشف عنه في المستقبل، سيتعجب الأثريون من المشاغل الغريبة لأسلافهم. أقول له إن الأمريكان اخترعوا لوحات الإعلانات الضخمة وجعلوا منها فنا.

14- Thums Up ماركة كولا في الهند. Gold Spot ماركة مياه غازية في الهند.

أخبرني **ديليب** ذات مرة أنه، في أمريكا، لا أحد يستخدم منظفات اللسان لأنهم يستخدمون فرشاة الأسنان لإزالة الزبد الأبيض. يقول إنه ينبغي عليّ أن أجربها، أنه من الأسهل أن تستخدم أداة واحدة من أجل فمك بدلا من اثنتين. لا تروقني الفكرة كثيرا وأسأله عن انتقال التلوث. يهز كتفيه. الفم ثقب واحد، حجرة واحدة، مدينة واحدة. شيء يحدث في جانب سيظهر في الآخر. أقول له إنه إذا كان هذا هو الحال، فلن يمانع لو أفرغت محتويات كوبي من الماء على حِجره.

عندما انتقلت إلى شقته، قال **ديليب** إنه ينبغي عليّ استخدام حجرة الضيوف كمرسم. فهو نادرا ما كان يستقبل ضيوفا على أي حال. قال: «بالإضافة إلى ذلك، تروقني فكرة وجودك في البيت طوال اليوم.»

الحجرة بسيطة ومشمسة، ليست ما يتوقعه المرء من مكان يُصنع فيه الفن. تحول الدولاب إلى خزانتي الخاصة بالتحف، حيث تُخزَّن أشيائي ويُغلَق عليها، بعضها في علب، وبعضها في أوعية بلاستيكية معقمة. وتملأ الصور المجلدات، مقسمة وفقا للمادة والفئة وتاريخ الجمع. تحتوي الحجرة نفسها على مكتب خشبي ومقعد أتى به **ديليب** من مكتبه. على الحائط تقويم أشطب فيه على يوم العمل بمجرد اكتماله.

أعمل على مشروع طوال السنوات الثلاث الماضية، وليست لديّ فكرة كم المدة التي سيستغرقها. بدأ بالصدفة، بعد أن رسمت وجه رجل من صورة وجدتها، لكن في اليوم التالي، عندما ذهبت لأقارن عملي بالأصل، لم تكن الصورة موجودة في أي مكان ظاهر. بحثت طوال اليوم دون أن يحالفني أي حظ. وقبل المساء، كنت قد استسلمت. تناولت قطعة أخرى من الورق -الورق الوحيد الذي أعمل عليه، وهو ليس بالشيء الفاخر، فهو مصنوع في الصين، لكنه يحتفظ برسومات أقلام الرصاص

جيدا- ورسمت الوجه نقلا عن رسمتي، ناقلة عملي قدر ما يمكنني من إخلاص، بنفس التظليل الحريص، وسُمك الخط المضبوط. أصبح هذا ممارسة يومية. آخذ الرسم الذي قمت به في اليوم السابق وأنقله بأفضل ما أستطيع، وأؤرخه، وأعيد الرسمتين إلى الدرج وأشطب على مربع فوق التقويم. ثمة أيام يستغرق هذا الأمر مني فيها ساعة، وثمة أيام يستغرق مني عدة ساعات.

بعد عام من العمل في ذلك المشروع، دعيت لعرض الأعمال في جاليري صغير في بومباي. القوميسيرة، التي هي أيضا صديقة، قارنت ديناميات الوقت والأمد في عملي بأعمال الفنان الياباني أون كاوارا، وقالت إن عملي هو يوميات فنان، وهي العبارة التي استخدمتها كعنوان. اعتقدتُ أن الربط بأون كاوارا كان خاطئا. فعمله ميكانيكي، دون أي مشاركة من اليد البشرية. بينما يحتفي عملي بالضعف البشري والقابلية للخطأ. وإذا كان أون كاوارا مثالا للحساب، فأنا مثال على تناسي الحساب. لم ترغب القوميسيرة في التورط في هذا؛ فقد كان المقال المعد للكتالوج قد روجع إملائيا بالفعل، وقالت إن تعقيد الموضوع لن يساعدني على البيع في هذا المناخ. وقد أبدى أحد جامعي اللوحات اهتماما قبل افتتاح المعرض – وقال إن هذا النوع من العمل المبني ببطء له أهمية شديدة حاليا.

ولم يُبَع شيء من السلسلة.

أنا ألوم العنوان. يوميات. ماذا يعني هذا حتى؟ تبدو كلمة يوميات تافهة جدا، طفولية على نحو شديد السخف. من الذي يريد أن ينفق المال على يوميات، فعلا؟ أنا حتى لم أر قط العمل كيوميات. وأعترف أني كنت فقط أفكر في كم هو من المستحيل على اليد والعين البشرية أن تحتفظ بأي نوع من الموضوعية. لكن أليس هكذا يكون الأمر دائما؟ لا يجد الهدف والتلقي أحدهما الآخر أبدا في الأغلب.

ارتديت ملابسي بحرص من أجل الافتتاح، حاولت أن أبدو مغوية دون إظهار أي جزء من جلدي، وشعرت أني غير مستعدة تماما بالرغم من معرفتي أن هذا كان أهم يوم في حياتي كبالغة. لم أخبر أي أحد عن المعرض، لكن أمي اكتشفت الأمر. جاءت إلى الافتتاح، دخلت كل قاعة ووقفت أمام ال 365 وجه كلها. التقت أول وآخر لوحة إحداهما بالأخرى عند واجهة الجاليري، معلقتين على جانبيّ المدخل، لتخلقا حوارا من الاختلاف. كان يمكن أن تكونا صورتين لرجلين مختلفين، لوجهين مختلفين، مصنوعتين بأيدي فنانين مختلفين. حقق مشروعي في النقل التام فشلا ذريعا، ولأنه كان -وكان لا بد أن يكون- فشلا، اعتبره المشهد الفني المحلي نجاحا هائلا. حملت بعض الجرائد مراجعات قصيرة، وصفت عملي بالمثير والذي لا يقاوَم، وأشارت إلى أنه كان مزعجا بقدر ما كان فاتنا، متسائلة إلى أي مدى يمكنني أن أستمر.

أسمته أمي بلعبتي الخاصة من (الهمسات الصينية).

عندما عدت إلى بونيه بعد أسبوع تقريبا، صرخت أمي واندفعت نحوي لتهاجمني بالنشّابة. وقالت باكية إني خائنة وكاذبة. وأرادت أن تعرف لماذا أقوم بمعرض مثل هذا.

أمام النشّابة التي كانت في يدها، أُجبرت على الابتعاد عنها، وجثمت عند حافة مائدة الطعام، محاولة التقاط أنفاسي. سألتها ما المشكلة. لماذا لا يمكنني أن أصنع نوعية الفن التي أريدها؟

أمرتني بالخروج من بيتها في ذلك اليوم، ولم ترني مرة أخرى حتى جئت ذات يوم بعد الظهر وإلى جانبي ديليب لأخبرها أني خُطبت.

أقرر أن أرى أبي، لأخبره بتشخيص أمي المرضي. ثمة أشجار وسناجب مزعجة تحيط بمنزله البنغالي في ضاحية أونده، في الجانب الآخر من بونيه، وصوت تدريبات القوات الجوية في السماء يجلجل النوافذ. في حجرة الجلوس، ثمة ساعة كبيرة ذات صندوق طويل تلفظ طائرا وترنيمة أطفال ألمانية كل ساعة.

حاجبا أبي مقرونان عبر جبينه كما لو كانا مخيطين بخيط أسود غليظ. «اتصلتُ خمس أو ست مرات بالأمس.»

أومئ برأسي. هذا هو نوع التأنيب الذي اعتدت عليه منه، وخمسة أو ستة هو تقدير تقريبي لأي رقم. لا أنصت بحرص لتفاصيل ما يقوله. أنا معتادة على تجزئته في تلك الزيارات القصيرة، وإقصاء وجهه إلى ركن من نفسي.

ليس هناك من سؤال يُسأل صراحةً. أرد على العتاب في صوته: «كنت في عيادة الطبيب مع أمي.»

الأرائك في الصالة مصفوفة كأنها في قاعة انتظار بمحطة سكة حديد، ونجلس في مواجهة أحدنا الآخر. ينقر يديه معا، منتظرا أن يسمع المزيد، وأميل إلى الأمام وأناوله تقرير الطبيب. يفتحه ببطء، مستغرقا وقتا طويلا بلا داع مع الملف البلاستيكي الخارجي، وفاصلا بحرص الجوانب الملصقة من المظروف. وعندما يتمزق المظروف قليلا، يشهق كأنه جرح نفسه ويتفحص المزق ببعض الألم. ثم يقرأ الصفحات بالداخل، ممسكا الورقة بعيدا عنه ومحركا فمه بالكلمات.

«محزن، محزن جدا..» يقول عندما ينتهي. «يجب أن تعلميني بما يمكنني أن أفعله، أو إن كانت هناك أي اتصالات يمكنني القيام بها.»

يلقي بالأوراق على المائدة إلى جانبه ويسأل إن كنت سأتناول المزيد من الشاي. أهز رأسي وأشق بملعقة الطبقة التي تشكلت في فنجاني بلون الكراميل.

يتابع حديثه: «هذا مخزٍ، أود أن أكون مشاركا. لكن لم يكن أي من هذا فكرتي.»

هذا معتاد، ودائما ما يصاحب نبرة عتاب منه – أن ينزع عن نفسه المسؤولية أو الاختيار في جميع المواقف الماضية أو الحاضرة أو المستقبلية في بداية أي محادثة قد نجريها. يقصد أن يعيق أي لوم قد أكون مستعدة به. وهو لا يعرف أني دائما ما أفرغ جيوبي من هذا الشيء قبل أن أعبر عتبة بيته، حتى أنني بمجرد أن أكون بالداخل، أعلم أن نوعا مختلفا من الأبواب يظل مغلقا في وجهي.

أتساءل إن كان يؤمن بالفعل بحالة انعدام الاختيار تلك كحالة خاصة به، إن كان ثمة قرار في حياته سيقبل المسؤولية عنه. لقد كانت السردية أحادية الجانب دائما مؤلمة وشيقة بالنسبة لي، أحادية الصوت الذي يتحدث به معي. أتساءل أي صوت يتحدث في رأسه.

في هذه اللحظة تدخل زوجة أبي إلى الحجرة، ويتوقف عن الحديث. تحتضنني وتربت على ظهري. ينضم إلينا ابنهما أيضا، جالسا في مواجهتي.

ذراعا المرأة يتدليان إلى جانبها كدبوسين. ولم يعد الصبي ذلك الطفل الذي أفكر دائما أنه كذلك، بل مراهق في سن من الصعب تحديده بثقة. لا يشبه أحدنا الآخر، إلا ربما في لوننا. لقد اعتقدت دوما أن أبي وزوجته

الجديدة يبدوان متشابهين، نحيلان وخشنان مثل سترتين صوفيتين مغزولتين جيدا. أبتسم للوجوه الثلاثة القابلة للتبديل.

أسأل أخي عن المدرسة، وبينما يجيب ألاحظ أن ثمة شعر ينمو على ذقنه. نادرا ما أتأمله، حيث أركز غالبا على أبي. وزوجته. بالكاد يمكنني رؤية عينيها عبر عدسات نظارتها ثنائية البؤرة.

وأنا أتأهب للمغادرة، يتأسف أبي على مشكلة أمي الحزينة مرة أخرى ويطلب مني زيارته أكثر من ذلك. يقول هذا في كل مرة نفترق فيها، رغم أن ستة أشهر ستمر لا محالة قبل لقائنا التالي.

في طريقي للبيت، أتوقف عند منطقة (بوت كلوب رود). يبدو صوت جرس الباب كطيور تزقزق ويمكنني سماع صوت حذاء باتا الذي تنتعله السيدة تشاندا العجوز وهو يزعق كبطة من المطاط بينما تتقدم نحو الباب. تبتسم بفكها السفلي المرتعش وتضع يدها على وجنتي.

تقول: «تبدين متعبة جدا.»

أمضي إلى الحمَّام وأغسل وجهي في الحوض الصغير. حوض مائل متصل بماسورة منحرفة – شيء صغير من البورسلين أضيف بعد فوات الأوان. يطرطش الصنبور بكامل طاقته ويبلل قدميّ. بطانة الحائط من البلاطات الوردية باهتة الآن ومزبدة ورطبة. ثمة ماء رمادي اللون يحيط بالبلاعة.

جدتي تجلس مربعة على تشارباي[15] وأمامها ثلاثة هواتف أرضية لاسلكية. تراني وترفع يدها بالتحية. نبدو متشابهات، ثلاثتنا، أمي

15- فراش بسيط ذو سطح من الخيوط المغزولة القوية والمشدودة لقوائمه الأربع.

وجدتي وأنا، باستثناء الفروق التي حفرها الزمن. لكن هناك تباينات أخرى بسيطة: لجدتي كاحلان ثقيلان، وشعرها أملس ملتصق برأسها، ومفرقها يلتمع مثل رافد نهر من الزيت. ولأمي بشرة فاتحة بها شعرات نابتة في سواد بذور خردل تملأ ربلتيّ ساقيها. أنا السمراء بينهما، ذات الخصلات المتماوجة التي لا تنفرد إلا عندما تكون مبتلة.

عندما أجلس، تشكو جدتي من الشارع في الخارج الذي يُحفر لإدخال خط كهرباء. تقول إنه احتيال من المجلس البلدي. وعندما أسألها أي نوع من الفساد ترتكبه الحكومة المحلية، تهز رأسها وتشيح بناظريها بعيدا.

تقول: «نشأت وأنا أتنفس هواء غاندي، ولا يمكنني تخيل عقول الغوندا[16].» لغتها الإنجليزية عرجاء، من تلك النوعية التي يتم اكتسابها من التليفزيون بدلا من الكتب.

أتتبع عينيها وهي ترنو خارج النافذة. الشارع مليء بالبيوت البنغالية المتداعية ذات الطابقين وأشجار البونسيانا المزهرة. تدخل الشمس ساطعة، كما تفعل أغلب الأيام، لتمتص اللون من بلاط السيراميك الأزرق.

اشترت هي وجدّي هذا البيت منذ عشرين عاما من عانس بارسية[17] ذات ذراعين رخوين كالمارشميلو. لم ترغب العانس في بيع البيت لأشخاص من الهندوس، لكن لم تكن هناك أي عروض أخرى. وصل جداي بأثاثهما القديم: مقاعد جدتي المصنوعة من خشب الساسم، وخزانات ماركة جودريج حصينة كالقبور (مازالت جدتي تعلق المفاتيح في حبل حول وسطها).

16- تعبير هندي يعني البلطجية المستأجرين. وهو تعبير محلي وفي نفس الوقت يُستخدم في لغة القوانين ليصف أفعال الغوندا (البلطجية).

17- البارسيون هم الزرادشتيون الإيرانيون الذين استوطنوا غرب الهند قبل ألف عام مضت.

كانت جدتي وجدي متلهفين على الانتقال؛ فقد كانت شقتهما القديمة مازالت مسكونة بأشباح غراميات جدِّي وأطفال جدتي المجهضين الكثيرين، وكان قطع التيار الكهربي لتخفيف الأحمال حدثا يوميا متكررا. والمفارقة أنهما انتقلا إلى بيت بدا مسكونا بأسلاف المالكة السابقة من الأموات – قالت أمي إنهما يبادلان ذكرياتهما السيئة بذكريات امرأة غريبة.

في اليوم الذي حازا فيه ملكية البيت، وقفت أتفرج بينما كان ناقلو الأمتعة يكورون ويحزمون مفارش الدانتيل – مجموعة من حوالي دستة رجال جاؤوا بشاحنة (تمبو ترافيلر) لينقلوا الصناديق. كشفت الخزانات المفتوحة عن محتويات تخص أجيالا عديدة: مصابيح قديمة لم تعد صالحة للاستعمال، حليات فضية صدئة، أطقم شاي بورسلين في علبها الأصلية. تغطت الثريات الزجاجية بغشاء من بيوت العناكب. رفع الرجال أريكة منجدة بقماش قطني مطبوع ذات مساند مترهلة ذكرتني بالقميص الداخلي الرمادي المصنوع من القطن الرديء الذي كنت أرتديه أسفل زيي المدرسي. تركوا خلفهم رائحة أجسادهم وهم يلفون الأثاث في بطانيات قديمة، وجلست المالكة البارسية المنسية في كرسيها المتحرك قرب النافذة، تنتظر ممرضتها.

كان هذا منذ سنوات عديدة، لكن البيت يبدو على نفس الحال، بنتانة رائحة المسك غير المألوفة، وطبقة الغبار.

أقول: «أحتاج إلى الحديث معك عن أمي.» تقول جدتي: «ماذا عنها؟»

«ذهبنا إلى الطبيب. إنها تنسى الأشياء.»

«هذا لأنها غير متزوجة. تنسى النساء الأشياء عندما لا يكنّ متزوجات.» ثم تضيف: «على أي حال، النسيان ممتد في هذه العائلة. كان أبوها

نسًايًا.»

أهز كتفي غير موافقة، رغم أني أذكر أن جدي، أحيانا، كان يقدم شارد البال جريدته لجدتي، ناسيا أنها لا تستطيع القراءة، وردا على هذا -متخيلة أنه يسخر منها- كانت تضرب يده مبعدة إياها وتخرج من الحجرة متشامخة.

أقول: «هذا شيء مختلف. منذ بضعة أيام نسيت من أكون.» تومئ برأسها وأومئ برأسي ردا عليها، ومعا نبدو كأننا نفترض ضمنا أن شيئا ما جرى فهمه، رغم أني لست واثقة من ماهيته. ينبثق الخطأ في التواصل من اليقين الموضوع في غير محله. أفكر إن كنت قد قلت الحقيقة كاملة أو منحت شيئا ما معنى لم يوجد قط – إن كنت قد جعلت أمي -ببضع كلمات وحركة من رأسي- أكثر مرضا مما هي عليه بالفعل. ربما ليس هذا بالشيء السيء. ربما نحتاج جميعا لأن نكون حريصين، منتبهين.

أفكر إن كان يجب أن أشاركها ما حدث في عيادة الطبيب، إن كان يجب أن أرسم صورة السحابة ولوحة النشوانيات.

تضع جدتي يدها على خدها. «لقد أصبحت سمينة جدا، أمك. انتفخت عقلات أصابعها لتغدو ضِعف ما كانت عليه. كيف سننزع المجوهرات من يديها عندما تموت؟»



الصباح هو الوقت المناسب للأنفاس العميقة، واكتشاف أنفسنا من جديد في أجسادنا.

قرأت هذا في مجلة بينما تداري أمي شعراتها الشائبة في الصالون. بدأت في مصاحبتها في كل مكان يمكنني مصاحبتها فيه. أراجع الفواتير مرتين قبل أن تدفعها وأتأكد أنها تضع حزام الأمان في السيارة. أحيانا، عندما يكون هناك أشخاص آخرون في مجال السمع، تصرخ بأني أعذبها، أنها تريد أن تُترك وحدها.

بالنسبة لبعض الأزواج، يمكن للنوم السليم أن يمحو خلافات الليلة السابقة، تتابع المجلة. هل يعني هذا بالتبعية أن السعادة الزوجية لا بد أن تجافي المصابين بالأرق أو هؤلاء الذين لديهم أنماط من اضطراب الساعة البيولوجية؟

في الصباح، أتمطى وأشعر أن أطرافي تنجذب في اتجاهات مختلفة، وأن جذعي هو الفراغ بين أطرافي الثقيلة. تقضمني الهوة التي فِي منتصفي. أصحو دائما جائعة وفمي يحتل وجهي بأكمله، جافا ودافئا، أشبه بحفرة رملية مظلمة. ديليب إلى جواري والملاءات أسفل جسده رطبة وباردة. يعاني من تعرقات الليل لكنه لا يتذكر أبدا مضمون أحلامه.

أغسل الملاءات كل يوم بعد مغادرته إلى العمل وأجففها في الممر الخارجي للبناية حيث تسطع شمس الظهيرة. أبلغ الجيران إيلا أنهم لا يوافقون على رؤية شراشف فراشنا أثناء انتظارهم للمصعد. اللوحة المعلقة على بابهم، والمصنوعة من قرميد مدهون باللونين الأبيض والأزرق الغامق، مكتوب عليها «آل جوڤرنر». كلاهما متقاعدان: معلمة سابقة،

وجندي بحرية سابق، وعندما تذهب لزيارة أختها في بومباي، كنا نرى أنا وديليب السيد جوفرنر جالسا في شرفتهما، يدخن السجائر ويبكي.

يقول ديليب: «لا بد أنه يفتقدها.»

«ربما هي لا تزور أختها في هذه الرحلات. وربما هو يعرف هذا.»

ينظر ديليب إليّ، مذهولا، وكأنه لم يكن ليفكر قط في هذا، ثم ينظر إليّ باهتمام، كما لو أن هذا يعني شيئا فعلته أنا. في وقت ما كان من الممكن لهذا أن يسليه.

أقول: «لا أعتقد في كونك كريما أو رحيما..» تلك المجلة في الصالون ذكرت هاتين السمتين بالضروريتين لأي علاقة ناجحة. ينظر بعيدا وأنا أتكلم، متسمرا في نظرته لأي كان ما يراه، وكأنه بالنظر بعيدا يمكنه فهمي بشكل أكثر اكتمالا.

يرد: «لم أقل شيئا.»

في المساء نذهب إلى الصالة الرياضية في البناية. يرتدي قميصا بلا أكمام من البوليستر لا بد من غسله مرتين بعد كل تمرين. يرفع أثقالا حرة أمام المرآة بمتر ويلهث بسرعة مع كل عدَّة. أجد تنفسه الصاخب شيئا محرجا، مثل إخراج الغازات أو انكشاف الأحشاء. لم أحب أبدا فكرة أن يسمعني أحد وأنا أغط في نومي.

أستخدم جهاز متسلق الدَرَج وأضبط سماعتيّ أذنيّ على واحدة من قنوات الموسيقى المبثوثة في التليفزيونات المعلقة فوق الرؤوس. وقت ما بعد العمل مزدحم ويكون عليّ أحيانا الانتظار من أجل الحصول على جهاز. لم أقم قط بالتمارين الرياضية عندما كنت أصغر سنا، لكن منذ تجاوزت الثلاثين بدأ جسدي يشبه ثمرة كمثرى مفرطة النضج.

يقول ديليب إن التمارين الرياضية تصنع فارقا، لكني لا أستطيع رؤية هذا، وأقول له إني لا أحب التمرين معه.

لا يفهم لماذا أشعر بالإهانة، لماذا أشعر بعدم الأمان عندما يجاملني، ولماذا لا أصدقه أبدا على أي حال. وأتعجب أحيانا من الممرات التي في عقله، من الطريقة التي تتحرك بها أفكاره بكل هذا الانضباط والاستقامة الخطية. عالمه ملموم، محدود. يفهم ما أقوله حرفيا – أي كلمة لها معنى وأي معنى له كلمة. لكني أتخيل احتمالات أخرى وأرى ثقل الكلام. لو رسمت خططا من النقطة س إلى كل روابطها الأخرى، أجد نفسي في مركز شيء لا يمكنني تعيين طريق خروجي منه. هناك الكثير مما يساء تأويله.

يؤمن ديليب أن فكرة واحدة تعكس مساحة كاملة من العقل. ويقول إنه لا بد من المتعب أن أكون كما أنا.

«أمك مقلوبة رأسا على عقب هنا..» تقول جدتي، وهي تدق على جانب رأسها. تجلس مربعة على فراشها التشارباي بينما أنظر أنا إلى صور قديمة. وبين الحين والآخر، تتأكد من وجود نغمة اتصال في هواتفها اللاسلكية.

هناك صور لأمي كفتاة صغيرة بشعر طويل شائك. كانت تقضي ساعات في فرده كل أسبوع، متمددة فوق لوح للكيّ وشعرها بين صفحات جريدة. هناك شائعات تصر على كيف كانت في سن الرابعة عشر والخامسة عشر، تختفي من المدرسة كل يوم بعد الظهر ذاهبة إلى مطعم على جانب الطريق بعيدا عن طريق بومباي-بونيه السريع القديم. حمل هذا المطعم الشعبي لافتة مكتوب عليها «بونجابي روساي». هناك،

كانت تطلب زجاجة كبيرة من البيرة وتشرب مباشرة من الزجاجة. ومن حقيبتها المدرسية، كانت تُخرج علبة سجائر (جولد فليك) وتدخن سيجارة بعد الأخرى. كان المسافرون ينزلون عند هذا المطعم، قادمين في سيارات أجرة أو على دراجات بخارية، ويتوقفون كي يتبولوا أو يتناولوا وجبة – خاصة الأجانب، الذين يحملون أمتعة قليلة وبلا نقود تقريبا، في طريقهم إلى الأشرم. كانت أمي تقدم نفسها، وتتعرف عليهم، وأحيانا تنال ركوبة تعود بها إلى المدينة. تعتقد جدتي أن تلك الأيام التي كانت بلا رقيب ولا إشراف أثارت اهتمام أمي بالأشرم، لكني أتساءل إن كانت نزعتها لتدمير الذات مجرد عرَض آخر لشيء كان هناك طوال الوقت.

قرب هذا الوقت بدأت أمي ترتدي الثياب البيضاء. ملابس بيضاء كلها، طوال الوقت، مثل أتباع الأشرم. قطن دائما. خفيف، شفاف تقريبا، رغم أنه من الصعب تحديد نسيج القماش في تلك الصور الحائلة.

تقول جدتي: «غريب! أرادت أن ترتدي البياض عندما لم تكن تعرف قط شخصا واحدا مات. كانت الفتيات الأخريات يرتدين تنورات قصيرة جدا، أو بنطلونات شارلستون. لكن ليس تارا. كانت تبدو أشبه بعَمة أو خالة موضة قديمة. إلا أنها لم ترتد قط وشاح الدوباتا.»

وسط كومة الصور ثمة مجموعة لجدتي من يوم زفافها، حيث تبدو واسعة العينين وصغيرة، لا تزيد عن خمسة عشر عاما. كانت عروسا حمراء، أو هكذا يجب أن أفترض من الصورة الأبيض والأسود، وكان في ثوبها الساري خط واحد من التطريز. ثوب أجرد بسيط للغاية، لن يليق حتى بضيفة زفاف في أيامنا هذه. حلقة أنفها تلتمع في وجه آلة التصوير. وخلفها والدها، بكرش بارز عبر قميصه الأشبه بقمصان الصيد. حولها أقارب آخرون، بهم بعض الشبه من أشخاص أعرفهم، أخواتها وإخوانها، أولاد وبنات إخوانها وأخواتها.

أقول: «وماذا يهم في شيء وشاح الدوباتا على أي حال؟» بدت أوشحة الدوباتا دائما عديمة النفع بالنسبة لي، مساحة إضافية من القماش، لا تغطي صدرا ولا ساقا، ولا تؤدي غرضا إلا إعادة تغطية ما هو مغطى بالفعل.

تقول جدتي: «الدوباتا شرفك.» تجذب الصورة من يدي، وأحاول تخيل نوع الشرف الذي يمكن بسهولة شديدة تركه في البيت.

هناك صور أخرى لا تحتفظ بها جدتي مع هذه المجموعة، صور جرى إخفاؤها، حيث أمي في حوالي الثامنة عشر من عمرها. شعرها أقصر، طيع، وتضع حول عينيها ظلالا زرقاء وعلى شفتيها طلاء وردي. قميصها من الحرير، مطبوع عليه طائر استوائي هجين، ومدسوس داخل بنطلون جينز عالي الخصر. ترتفع وسادات الكتف إلى شحمتي أذنيها. فمها مفتوح، ولا يمكنني تحديد إن كانت تبتسم أم تصرخ.

لم أعرفها قط على هذا الحال، لكن هكذا كانت عندما وقعت في الحب مع أبي.

كان عصرا ذهبيا، وقت جرى فيه تصحيح كافة أخطاء الماضي، وبدا المستقبل مليئا بالوعود – هكذا تصف جدتي الوقت الذي التقت فيه أمي بأبي.

جرى ترتيب اللقاء بعد دعوة أبي وأمه إلى بيت جدتي لتناول شاي بعد الظهر، ودخلت أمي متأخرة، متعرقة، بحلمتين بنيتين ظاهرتين من خلال قميصها.

كان نحيلا، متوترا، مازال يستكشف جسده الجديد. ثمة نثار من

بودرة سوداء كان يغطي شفته العلوية، وتشعث حاجباه قبل أن يلتقيا في المنتصف. حتى مفاصله كانت تتحرك ببطء ناحية بعضها البعض كما لو كانت تحت تأثير انجذاب مغناطيسي ما، الكوع نحو الكوع، والركبة نحو الركبة، وجذعه منغلق على نفسه. كان على أمه أن تخبطه من حين إلى آخر لينفرد. كان ينظر إلى الأرض بينما كانت أمي تتحدث بصوت عال، واقفة بثبات وهي تتكلم.

لوهلة بدا أن أمي تحولت عما كانت ترغبه، أن ثورة مراهقتها قد أُخمدت وأنها ستذعن لما أسماه والداها بالمستقبل الجيد.

قصت شعرها، واشترت ثيابا ملونة وبدأت تقضي الوقت في النادي. وأعلنت عن رغبتها في متابعة الدراسة، بل وأعلنت أنها ستتخصص في إدارة الفنادق أو تقديم الطعام بينما ينهي أبي درجته العلمية في الهندسة.

بعد عام من الزفاف، وُلدت.

بعد خمس سنوات من هذا، أقام أبي دعوى للطلاق. ولم تكن أمي حاضرة من أجل هذا.

وبعد قليل، كان في طريقه إلى أمريكا مع زوجة جديدة.

«ماذا ستفعلين بكل هذا؟» تسأل جدتي بينما أحشو الصور داخل مظروف.

أقول: «أعرضها على أمي. علينا أن نجعلها تتذكر.»

يقول ديليب: «لماذا لا نقضي وقتا أكثر معه؟»

هو يتحدث عن أبي. لا أرفع عيني متطلعة إليه.

نحن في النادي، ننتظر أصدقاءنا كي ينضموا إلينا. هو يتناول زجاجة بيرة وأنا أشرب روم (أولد مونك) مع كوكا دايت. نطلب فطائر الدوسا وخبزا محمصا بالجبن والفلفل الحار.

لم يفهم ديليب قط مقدار أهمية العضوية في النادي حتى انتقل إلى الهند. حتى تلك النقطة، كان دائما يأتي في زيارات قصيرة، يقيم مع الأصدقاء والعائلة الذين يرافقوه أيضا في جولاته بالسيارات مكيفة الهواء. لكن بالنسبة لكثير منا ممن نشأوا هنا، تمحورت حياتنا حول النادي. في أي مكان آخر كان يمكنك أن تجد مثل هذه المساحة الخضراء مترامية الأطراف في وسط المدينة؟ والمبنى معلم بارز، شيء يعرف الطريق إليه كل سائق تاكسي. كان جدي يمزح دائما بأنه لا يعتبر السكك الحديدية هي الشيء الوحيد ذا القيمة الذي تركه البريطانيون خلفهم – بل النوادي، حيث كنا نأتي للعب الألعاب الرياضية بعد المدرسة، حيث يتعرف آباؤنا وأجدادنا على بعضهم وعلى الآخرين، حيث تعلمنا السباحة. وبالنسبة لكثير منا، كان النادي هو المكان الذي تبادلنا فيه قبلاتنا الأولى خلف أشجار الجهنمية البرية التي تنمو بمحاذاة الأسوار، والذي حضرنا فيه حفلاتنا الموسيقية الأولى، أو حفلات رأس السنة.

فقدت الاهتمام بالنادي لسنوات عديدة، مفضلة الذهاب إلى البارات والمقاهي والمطاعم الجديدة التي كانت تنبت في كافة أنحاء المدينة. بدا النادي مضجرا وعتيق الطراز. شيء كان يفعله أجدادي. لكن في السنوات القليلة الماضية، عدت إليه، واجدة الراحة في تحية نفس الأشخاص عاما بعد الآخر، في رؤية نفس الدرجات المكسورة، نفس الشقوق في الجدران التي لم تحظ بإصلاح كامل قط. بالنسبة لي، كان النادي شيئا ثابتا بينما الحياة ليست كذلك. وقد أصبح ديليب محبا له كذلك.

يحب أن يمزح بأن عضوية النادي كانت مهر الزواج مني.

على الموائد أجراس تُدق لاستدعاء الخدمات. المشروبات الكحولية هنا هي الأرخص في المدينة. وفي ليالي الخميس، تتجمع العائلات على المرج لتلعب التامبولا، وهناك ثمان مناضد في غرفة لعب الورق فقط للعب الكونكان.

يقول ديليب: «يمكننا حتى دعوة أبيك هنا لنلتقي في النادي. وهكذا يكون الجميع على راحته.»

«أنا مرعوبة.» أوضح لزوجي. يمكن لديليب أن يفهم فقط بعض التداعيات التي تستمر في الوقوع، إلى يومنا هذا، مثل خط من قطع الدومينو – مثلا عندما أصرت أمه على محافظتنا على تمثيلية كون أبي ميتا من أجل زفافنا لأن أي تفسير للحقيقة قد يكون معقدا. وبعد ذلك، طبعا، يحب ديليب أن يصلح الأشياء. يؤمن بأن كل مشكلة لها حل. سيبحث، وينقب، ويحفر بأظافره حتى يجده.

يقول: «ليس عليك أن تكوني مرعوبة.»

أدرك أنه يحاول أن يكون لطيفا معي، لذا أرد له لطفه. أبتسم وأومئ لتلك الكلمات ويبتسم ديليب بدوره مؤمنا أنه قد أدى ما عليه، لكني فقط أحاول استكمال الطريق، تغيير الموضوع، الاستقرار على مرج آخر قبل وصول أصدقائنا؛ لأنه طوال ستة وثلاثين عاما استعصت عليّ راحة البال تلك، وبضعة إيماءات اهتمام في هذه الليلة اللطيفة لا يمكنها أن تخفف مرضا يسبق وجودنا نحن الاثنين، ولا علاج له.

1981

شب أبي كطفل لأب عسكري، يغير المدرسة كل عام، وكان عليه اللجوء إلى الرشوة كي يحول زملاء الفصل إلى أصدقاء. كانت الهدية الأكثر شيوعا هي الخمور المستوردة في مخزون والديه. كان والده برتبة فريق، وتغيرت بيوتهم مع الفصول، لكنها كانت دائما مليئة بأشياء جميلة من أراض أجنبية. أحذية خشبية، ومفروشات مطرزة، وكريستال باهظ الثمن حتى أن أمه كانت تشرف على غسله بنفسها. لم تكن تحب دخول المطبخ، وذات مرة أخبرت جدتي بفخر أنها لم تطبخ قط وجبة كاملة بيديها. كان بمقدورها تتبع نسبها الذي يعود إلى دم ملكي ما من إقليم ماروار، والذي كثيرا ما كانت تذكره في معرض حديثها. كانت تعرف الأشخاص المناسبين، وزوجت ابنتيها داخل ما اعتبرته عائلات طيبة، لكنها تلقت ضربة عندما مات زوجها دون إنذار ذات أصيل بينما كان مسافرا في مهمة رسمية إلى دلهي.

في صور زفافه، يبدو أبي عريسا شابا يعتلي صهوة حصان مزين. ولد صغير يجلس أمامه، أحد أبناء أختيه، يبدو مذعورا إذ يخطر الحصان إلى الأمام مع كل زعقة من المزامير. الولد والعريس يرتديان ثيابا متشابهة، أيضا، وحول رأسيهما عمامتان متشابهتان ملفوفتان، وحول عنقيهما ياقتان مُنشّاتان مطرزة حافتهما بخيط ذهبي. الفرقة الموسيقية التي تقود الموكب يرتدي أفرادها معاطف (شيرواني) حمراء وخضراء ويمكنهم التنكر كضيوف في الزفاف .

يصنع الرجال حلقة حول الموسيقيين، هاتفين ومصفرين مع إيقاع طبول الدولاك. ترقص النساء إلى الخلف قليلا، ممسكات أثواب الساري على أجسادهن وملوحات بذراع واحدة في الهواء، متفرجات على الشباب لكن غير مشاركات في لعبهم. هناك صورة للجمع متوقفا خارج بوابة، لعلها قاعة أفراح، حيث تنتظر أمي وعائلتها لاستقبال ضيوف الزفاف. وهنا وهناك يظهر آخرون من الشارع في ثياب عادية. لقد انضموا إلى المشهد الحافل، صانعين حلقات من الضحك والأيادي المفرودة. ثمة بقعة ضوء تسقط على العريس، شعاع أصفر صارخ من كشاف يمسك به مساعد المصور. في كل صورة يمسح العرق مغمضا عينيه. وعندما تنفتح عيناه، تكون نظرته على الحصان.

صور، أيضا، من داخل قاعة الولائم. مسدودة بالأثاث والأقارب البعيدين، يجهز أصحاب حفل الزفاف أنفسهم من أجل العمل الحقيقي؛ إرسال المهر والابنة.

كيف بدت شخصيا، دون الأضواء التي عصفت بلون بشرتها؟ كيف كان رد فعلها تجاه الوجوه غير المألوفة لعائلتها الجديدة؟ العريس، أبي، يبدو حائرا، أصغر من أن يستوعب فعل الاختطاف الرسمي الذي لا بد أن يرتكبه الآن.

قبل الصباح، ستكون الفتاة قد تحولت. زوج جديد، حياة جديدة. وعندما تجد نفسها وحيدة، ربما ستكون مازالت تبكي، متذكرة الماضي، متفجعة من نهاية لم تُتوج بالموت.

تقول جدتي إنها كانت قلقة دائما من الطريقة التي ستتمكن بها أمي من إدارة حياتها في بيئتها الجديدة. «كانت أمك فتاة غريبة. لم يعرف

أحد ماذا كانت تريد من الحياة. أظن ألا شيء قد تغير. لكن أم أبيك كانت غريبة جدا أيضا. لم يكن هناك خير من عيشهم في نفس البيت.»

حكت لي أمي غرابة حياتها الزوجية المبكرة في مناسبات عديدة. كانت حماتها تأكل الثوم الكشميري المخلل كل يوم منذ حادثة موت زوجها بأزمة قلبية. وكان للبيت تلك الرائحة الخاصة بالثوم المهضوم.

في اليوم الأول في بيتها الجديد، أعطتها حماتها قالبا خشنا من الصابون الأبيض ومنشفة يد لاستخدامها في استحمامها. كما ناولتها كومة من أثواب الساري القديمة التي كانت تخص حماتها. وكان على أمي أن ترتديها من الآن فصاعدا. تشممت أمي القماش، واستنشقت سنوات من الغبار وكرات النفتالين. وارتجفت.

في اليوم الثاني، عندما رأت أمي تتحرك في أرجاء البيت، استدعت أم أبي زوجة ابنها الجديدة إلى الصالة، حيث كان المذياع يهدر بصوت عال، لتسألها عما تفعله. أجابتها أمي: «لا شيء.» وكان هذا صحيحا. لم يكن هناك شيء لتفعله.

«اجلسي معي، أنصتي لبعض الموسيقى.»

جلست أمي على الأريكة حتى تنامى ضجرها من الأصوات الكلاسيكية. كانت تفضل فريق دوورز، أو فريدي ميركوري. لكن عندما حاولت أمي أن تقف، أمسكت حماتها بذراعها. «ابقي هنا. أحب الصحبة.»

سيستمر وقتهما معا على الأريكة بجوار المذياع ست ساعات. كان الخدم يحضرون الوجبات والشاي. وكانت أم أبي تحتفظ في يدها بملقاط صغير. كانت تتحسس الشعيرات الخشنة على ذقنها وتنتزعها. كانت تفعل هذا دون مساعدة من مرآة، ولرعب أمي، كانت كثيرا ما تمزق بشرتها. كان خط فكها محفوفا بسلسلة من قشور الجروح والشعيرات.

«أتعرفين ماذا سيكون لطيفا؟» قالت السيدة الأكبر سنا. «لو انتظرت قرب الباب عندما يحين وقت رجوع ابني إلى البيت. اعتدت أن أفعل هذا من أجل زوجي عندما كنا حديثيّ الزواج.»

أشارت إلى صورة كبيرة لرجل معلقة على الحائط. شكّل حاجباه خطا أسود عبر جبينه، وكان ينظر بعيدا إلى الجانب عابسا. كان هذا البورتريه محاطا بإكليل من الزهور المجففة.

تساءلت حماتها: «أهذا شيء ترغبين في فعله؟»

حدقت أمي في الفجوة السميكة عند أسفل الباب الأمامي، حيث كان شعاع من الضوء لا يعيقه شيء يتلوى داخلا. مراقبة، منتظرة أن يكسر شيء ما ذلك الخط نصفين. زوج من الأقدام. ظل جسد يقترب.

تمنت لو قالت لا ووجدت طريقة لتجنب هذا العبء الروتيني. الناس في هذه العائلة الجديدة متخلفون. كانت أمي تفضل الجلوس في حجرة المعيشة.

لماذا لا تجربين هذا؟ قد يعجبك.

مثل ماذا بالضبط؟ ماذا هناك ليعجبك في الوقوف قرب الباب ككلب؟

في السادسة إلا خمس دقائق، كانت تتخذ وقفتها إلى جوار الباب، متأرجحة من جانب إلى آخر لفترة تصل إلى ثلاثين دقيقة، بناء على حركة المرور وكم يستغرق الطريق من زوجها حتى يصل إلى البيت.

كانت الحماة تُبقي الباب المؤدي إلى الصالة مواربا حتى تتمكن من استراق النظر عبره والتأكد أن أمي في وضع الانتباه. بعد أربعة أيام، اعترفت السيدة الأكبر سنا أن فعل الوقوف لهذا الوقت الطويل كان متعبا،

وتفتق ذهنها عن خطة محكمة تقضي بأن يقف خادم قرب النافذة في المطبخ ويصيح عندما يرى السيد الشاب مقتربا. في هذه اللحظة، ترفرف الحماة بذراعيها من اللهفة وتشير إلى أمي كي تثب نحو الباب.

وصار من المعتاد أنه في السادسة إلا خمس دقائق، رغم أن موعد الوصول كان في العادة أقرب إلى السادسة والنصف، أن تُسكت الحماة الموسيقى وتصيح بالخادم كي يترقب الوصول. راق لأمي الصمت، لكن لم يكن مسموحا لها أن تعود برأسها إلى الوراء أو تغلق عينيها دون أن تنقر أم زوجها على كتفيها.

وذات يوم قالت أمي: «لا أريد أن أفعل هذا بعد الآن.»

لم تقل الحماة شيئا بينما نهضت أمي ومضت إلى حجرتها. وبدا صوت المطرب كيشور كومار معلقا في الهواء إلى الأبد.

كانت الحجرة قفصا، لكنها كانت المكان الوحيد الذي شعرت فيه أمي بالراحة. أحيانا كانت تخبط جسدها في الحائط وتصرخ في نفسها بصمت. وفي أوقات أخرى، كانت ترقد على الفراش، وتغلق عينيها وترتحل، وهي تخبط بذراعها على المناضد الجانبية الشاحبة بلون الزنجبيل. كانت حشية الفراش أقل سمكا مما اعتادت عليه. وكان غطاء الفراش مصنوعا من قماش صناعي رمادي، وتساءلت كيف كان يمكن للخدم غسله. كانت الأرضية من رخام أحمر مشتعل بدا في بعض الضوء أشبه بهوة لا قرار لها لو سقط المرء فيها. على منضدة الزينة كان هناك كوب ضم فرشاة أسنانها ومشطها. كانت تقلبه وتلتقطه من جديد، منصتة إلى الضجة الهادئة. كانت تنتزع الشعرات التي جذبتها الفرشاة من رأسها وتلف الخيوط الطويلة بين أسنان الفرشاة. أحيانا كانت تلف الشعرة السوداء

حول أصابعها، مراقبة إياها وهي تحز في جلدها. وعندما كانت تشعر بالضجر من هذا، كانت ترفع قدميها على لوح الفراش الأمامي، ناظرة إلى كاحليها الرفيعين، منجرفة جيئة وذهابا في أحلام اليقظة حول زوجها، متخيلة ما يمكن أن يكون فاعله في تلك الساعة بعينها، قبل أن يسرح عقلها إلى الفراش الذي كانت عليه، وإلى رجال آخرين عرفتهم أو تعرفت عليهم فقط في تفاعلات عابرة لكنهم تركوا بها انطباعا له من الشدة ما جعلها تظل تتوق إليه. كانت أمي تعرف زيجات تعيسة في العموم، لكنها كانت شابة ولم تتمثل تماما فكرة أن هذا قد يكون واقعها. كانت مازالت مؤمنة أنها مميزة، واستثنائية، وأن لديها أفكارا لا يملكها أحد غيرها.

راقبت العقارب وهي تتحرك في المنبه (السايكو) الصغير، منتظرة أن ينتهي اليوم، منصتة للأصوات خارج الباب، في انتظار خطوات تعبر في الممر.

أخيرا استجمعت أمي شجاعتها كي تفتح خزانة ملابس أبي. كان بها الكثير للغاية مما لم تره يرتديه قط، قطع من ثياب ربما لم تعد تناسبه. ميزت في عقلها ما يجب التخلص منه دون أن تحرك قطعة ثياب واحدة من مكانها. لمست أمي أكمام كل قميص. تفحصت الشكل الذي بليت به نعال أحذيته، والأماكن التي نحلت في ملابسه الداخلية. كان هناك شيء أحبته في النظر على راحتها، شيء لم تسمح لنفسها بفعله عندما كان الرجل نفسه موجودا. أحيانا لم تكن واثقة من أنها تعرف كيف يبدو على الإطلاق.

عندما عاد للبيت من يوم دراسته، حيا أبي أمه قبل أن يمضي ليغتسل ويقرأ كتبه. بعد العشاء، كان كثيرا ما ينضم إلى أمه في حجرة المعيشة ويضع رأسه في حِجرها. وكانت تضغط بيديها جبينه، ممسدة الشعرات

الطفولية القصيرة، راغبة في أن تجعلها تنمو في اتجاه معاكس. ومن حِجر أمه، كان أبي يراقب أمي. وكانت أمه تراقبهما هما الاثنين. ومع مضيّ الشهور، رُسمت الخطوط.

مرت الأيام دون أن يقول الزوج والزوجة إلا القليل لبعضهما البعض. رأت أمي أنه كان غريبا ومزاجيا ونائيا. كانت أمه مصممة أن يتفوق في دراسته، وكان هو حريصا على أن يسعدها. وستكون مكافأة جهوده هي أمريكا، حيث سيتمكن من الحصول على درجة الماجيستير وسط الجليد، ويأكل البرجر كل يوم، ويشتري الجينز المهترئ القماش. تعلمت أمي أن تتوق لذلك الحلم أيضا. لفترة أرادت أن يفتخر أبي بها، أن يرتفق ذراعها في النادي، لذلك قصت شعرها الطويل وارتدت الملابس الحريرية ذات النقوش الوردية عندما كانا يذهبان لتناول الغداء أيام الآحاد. خططت ودبرت، متخيلة الوقت الذي سيكونان فيه في أمريكا، معا وفي الحب، وسيُظهر جانبه الرومانتيكي، الجانب الذي لم يكن ممتلئا بالرياضيات وبأمه.

اكتشفت أمي أنها حامل في نفس الوقت تقريبا الذي عرفت فيه أن حماتها تخطط للانضمام إليهما عندما يذهبان إلى الخارج. قالت السيدة العجوز وهي ترفع ملقاطها: «سيكون عليّ أن آتي. لن تتمكني أبدا من العناية بالبيت وحدك.»

هذا العمق لاكتئاب أمي واغترابها عن عائلتها نفسها -إذ رفضت جدتي الاستماع إلى أي شكاوى- جعلها وحيدة، ويائسة. أو ربما كنت أنا، وتدفق هرمونات ما قبل الولادة، والخوف من الحياة الجديدة التي تنتظرها، لكنها بدأت تعود إلى ذاتها السابقة.

تركت شعرها ينمو، وتوقفت عن وضع الماكياج ووسادات الكتف.

تخلصت من كل أثواب الساري المستعملة التي سلمتها لها حماتها يدا بيد، وألقت باللوم على خادمة مسنة لسرقتها.

دخنت سرا، رغم أنها كانت تعرف أن هذا قد يكون خطرا على جنينها.

عادت أمي إلى ثيابها القطنية المريحة، متخلية عن حمالات الصدر التي اشترتها بحماس، وأعلنت أنها تريد البدء في حضور اللقاءات الروحية لأحد معلمي الجورو الروحانيين، كي تسمعه وهو يتكلم.

كان طلبا غريبا من فتاة لم تُظهر قط أي اهتمام بالدين، وحاولت حماتها أن تمنعها، لكن أمي كانت مصممة. كانت في طريقها لألاَّ تعد مبالية بما يعتقده الجميع. حتى بعد ولادتي، كانت تختفي كل يوم، واللبن يقطر منها، تاركة إياي دون رضاعة.

«خذيها معك..» قالت جدتي لأبي عندما كبرت إلى درجة كافية. كانت العلاقة بين جدتي وأمي قد احتقنت، ولم تحمل جدتي لأبي حبا كبيرا لي؛ فتاة أخرى، عبء آخر.

وهكذا ذهبتُ مع أمي، نغادر في الصباح ونعود في وقت متأخر من المساء. كانت تعود إلى البيت كل يوم وهي تفوح برائحة العرق والبهجة – وذات يوم أدركوا أنها لم تعد إلى البيت إطلاقا.

لا يمكن العثور على تاريخ حياة أمي في ألبومات الصور القديمة. هو محفوظ في خزانة معدنية مغبرة في شقتها. وهي لا تغلق بابها بالمفتاح أبدا – ربما لأنها لا تثمن أي شيء بداخلها، أو ربما لأنها تأمل أن تتلاشى محتوياتها يوما ما. ومع ذلك، من الصعب فتح الباب بالقوة. بونيه ليست رطبة بما يكفي للصدأ، لكن المفصلات صلبة غالبا وبنية اللون، وثمة

طبقة خفيفة من العفن تغطي الجزء الداخلي من الباب. خزانة تبدو وكأنها أُنقذت من قاع البحر.

داخلها كومة من أثواب الساري، وأمتار من قماش مطوي بعناية وثمة ورق بين الطيات، قماش زمن آخر – أثواب ساري بَناراسي[18] منسوجة بخيوط متلألئة. واحد منها جميل على نحو خاص، وثقيل على نحو خاص – الثوب الذي ارتدته أمي في زفافها، حيث تتثنّى في طيات هشة واضحة المعالم. القماش يابس، مقدد تقريبا، ويفوح برائحة النفتالين واليود، لكن الذهب لا يعتم أبدا ولا يبهت، علامة على أنه حقيقي، ثمين، ثروة صغيرة أنفقها جداي على طفلتهما الوحيدة. واللون الأحمر يجعل الثوب أغنى، إلى حد يكاد يكون مرهقا، أحمر كما يليق بعروس حقيقية. وتحت هذا الثوب، بقية جهاز عرسها -أثواب ساري منتقاة بعناية وأقمشة من الحرير الملون والديباج المزخرف- ملابس تكفيها في حياتها الجديدة كامرأة متزوجة، الدور الأهم الذي ستحظى به، وقماش يكفي ليبقيها عاما كاملا لا يشعر فيه زوجها بعبء زوجته الجديدة، على الأقل ليس في الحال. هناك أقمشة من حرير يرقات دود القز بألوان الأحجار الكريمة، ووشاح دوباتا مطرز ومغطى بالعُقَد الفرنساوي، أثواب ساري كانجيـڤارام[19] فاتحة اللون، بل وساري باتولا[20] أخضر زاه يطل من بين أكوام القماش.

وبعد ذلك، تحتها برف واحد توجد الملابس الأخرى. وهذه أكثر ألفة

18- الساري البناراسي هو الساري المصنوع في فاراناسي، وهي مدينة قديمة تسمى أيضًا بيناريس. يعد من أفضل أنواع الساري في الهند ويعرف بالديباج الذهبي والفضي أو الحرير الفاخر والتطريز الفخم. يصنع هذا الساري من الحرير المنسوج جيدًا والمزين بتصميمات معقدة، وبسبب هذه النقوش، يكون ثقيلا نسبيًا.

19- أثواب ساري من الحرير الخالص، عادة تكون بها زخرفة فضية مكسوة بالذهب على أطرافها.

20- ساري مزدوج مصنوع عادة من الحرير، يصنع في باتان، جوجارات، الهند. وهو باهظ الثمن للغاية، ولا يرتديه إلا أولئك الذين ينتمون إلى أسر ملكية وأرستقراطية.

بالنسبة لي. هناك القليل من النقوش الحائلة المطبوعة بتقنية الطباعة الخشبية على قماش قطني بالٍ، لكن في الغالب كل شيء أبيض. لو رفعتها إلى وجهي، يمكنني مازلت أن أشم رائحة جسدها، كأنها كانت ترتديها بالأمس فقط. يمكنني أن أشم الإهمال، والرطوبة، والبؤس الذي ينمو في غيبة نور الشمس. هذه الملابس القطنية خشنة، من النوع الذي يجري ارتداؤه من أجل العمل. الملابس البيضاء منها مازالت زاهية، بعضها ساطع البياض وبعضها أبيض مزرق تقريبا، لون الأرامل، لون مرتديات الحداد والمتشددين، والمقدسين من الرجال والنساء، والراهبين والراهبات، لون هؤلاء الذين لم يعودوا منتمين للعالم، الذين وضعوا قدما بالفعل في طائرة أخرى. البياض المزرق لثياب الجورو وأتباعه. ربما رأت أمي هذا القطن الأبيض وسيلة تؤدي إلى حقيقتها، لوح فارغ يمكنها عليه أن تميز نفسها وتجد الطريق إلى الحرية. بالنسبة لي كان شيئا مختلفا؛ كفن غطّانا مثل الموتى الأحياء، بياض أكثر صرامة حتى من أن يُقبل في المجتمع المهذب. بياض ميَّزنا كدخيلتين. بالنسبة لأمي كان هذا لون مجتمعها، لكني كنت أعرف أفضل: الملابس البيضاء كانت هي الثياب التي فصلتنا عن عائلتنا وأصدقائنا وكل شخص آخر، التي جعلت حياتنا فيها سجنا من نوع ما.

يمكنني السير من شقتي إلى شقة أمي في حوالي خمس وأربعين دقيقة لو أخذت الطريق الأقصر وعبرت الطريق الرئيسي عدوًا بينما الإشارة مازالت خضراء. في الطريق، أمر بثلاثة مراكز تسوق تقف في شكل مثلث. إحداها لديه سينما متعددة الشاشات، ويتكدس الطريق الدائري خارجه في عروض افتتاح الأفلام الكبيرة في أيام نهاية الأسبوع.

ثمة كوبري بحارتين يعبر النهر الضيق، الذي يفيض وقت الرياح الموسمية ويجف في الصيف. أحيانا تصل روائح البرك الآسنة إلى شقة أمي. ترتفع البنايات على الضفاف، مزيج من الوحدات السكنية الفاخرة والفنادق ذات الخمس نجوم التي تتباهى على مواقعها الإلكترونية بإطلالاتها على الماء. اللوحات الإعلانية العملاقة للمسلسلات الهندية وكريمات تفتيح البشرة هي الفواصل بين مواقع البناء.

تتكدس حركة المرور الصباحية عند كل ناصية، وتبدو بونيه أشبه بعنق زجاجة طويل واحد. كل انفجار للأبواق سيل من الرصاصات، وقبل أن يمر وقت طويل أكون مغربلة بهذا الرصاص. سيحل الشتاء قريبا ودرجة الحرارة تنخفض فجأة. يحتاج البشر إلى الانتقال ببطء. تؤدي الحركات المفاجئة إلى الفصام واحتقان الحلوق.

عند الانعطاف في شارع أمي، أمر على هينا، بائعة الفاكهة التي كانت تملك عربة جر صغيرة وتمتلك الآن متجرا جميلا. يقول ديليب إنها قصة نجاح هندية حديثة وينبغي الكتابة عنها. ألوّح لها لكنها لا تراني بسبب انفصال في الشبكية ترفض أن تجري له عملية جراحية. إلى جانبها صالون اسمه (حديقة شعر منيرة). ذات مرة أشار ديليب إلى أن موضع

اللوجو الخاص بهم، وهو عبارة عن مقص، يجعل كلمة «شعر» تشبه «مشعرة». وبعد ذلك هناك صيدلية تبيع أدوات كهربائية، وقبالتها في الشارع، محل أدوات كهربائية يبيع الأدوية بشكل غير قانوني.

عند البوابة، يحييني البواب. أنتظر المصعد وألقي التحية على السيدة راو، التي تعبس في وجهي بينما يتغوط كلبها (البومرينيان) إلى جوار أصيص زهر. التراب الساكن بين شقوق البلاط عند المدخل ملمح ثابت. العفن وسنوات من عدم الصيانة جعلت الأرضية مفككة. لقد هُزم هذا المبنى، مثله مثل مبان أخرى كثيرة جدا. أدخل شقة أمي بالمفتاح الذي نسخته.

سبعة أعواد بخور مشتعلة قرب الباب. أسعل وتطل أمي برأسها من المطبخ. يمكنني أن أشم أنها تقلي الفول السوداني مع حبات الكمون في الزيت. أستل قدميّ من حذائي الرياضي الذي اتسعت فتحته لأني لا أفك رباطه أبدا. الأرضية باردة وتفوح برائحة تشبه الحليب المضاف إليه عشب الليمون. ينسكب الضوء داخلا عبر النافذة المواجهة للشرق في المطبخ، وأمي خيال ظل. تقلب سلطانية من كرات التابيوكا[21] المنفوشة داخل القدر وتغطيها كي تنضج بالبخار.

تسألني: «هل تناولت الإفطار؟» وأقول إني لم أفعل رغم أني أفطرت.

أعد المائدة كما اعتدنا أن نفعل، بأكواب للماء واللبن الرائب، وبلا ملعقة لأمي لأنها تحب الأكل بيديها. تُخرج الفلفل الحار، أحمر ومسحوق، أخضر ومقطع. يوضع القدر على المائدة مباشرة، وعندما ترفع الغطاء، تتبخر السحابة التي تخفي الوجبة بالداخل.

آخذ بنفسي ملعقة كبيرة. تتقافز كرات التابيوكا على طبقي، تاركة

21- النشا المستخرج من نباتات مثل المنيهوت أو الكاسافا أو البفرة.

وراءها خطا متلألئا.

يمتلئ فمي بقضمة أولى. «هناك شيء ناقص.»

«ماذا؟»

«ملح. بطاطس. ليمون.»

تأخذ قضمة وتعود بظهرها في مقعدها، وهي تمضغ ببطء. أنتظر غضبها، لكنها تنهض وتدخل المطبخ. أسمع صوت باب الثلاجة وهو ينفتح وينغلق، وقعقعة الأواني. تخرج بصينية صغيرة وتضعها على المائدة. بها عصير ليمون ورشّاشة ملح.

«ماذا عن البطاطس؟»

«لا يحتوي طبق (سابودانا خيشيدي[22]) على البطاطس.»

«أنت تصنعيه دائما بالبطاطس.»

تتوقف. «لا بطاطس هذه المرة.»

أُقلب الطعام في طبقي وأنظر إليها.

«لا تستمري في النظر إليّ هكذا.»

«أنت لا تأخذين هذا بجدية.»

تلقي رأسها إلى الوراء وتضحك، ويمكنني رؤية كرات التابيوكا الدسمة متعلقة في حشوات الأسنان السوداء في آخر فمها. «آخذ ماذا بجدية؟»

«لماذا قلت لديليب إني كاذبة؟»

22- طبق شعبي هندي يصنع غالبا خلال موسم الصوم في الهند، ومكوناته كرات التابيوكا مع الفول السوداني والكمون والفلفل الحار وأوراق الكاري ولا يضم الكثير من التوابل.

«لم أقل هذا قط.»

يبدو لي الآن أن هذا النسيان مريح، أنها لا تريد أن تتذكر الأشياء التي قالتها أو فعلتها. أشعر بالظلم لأنها تستطيع إزاحة الماضي من عقلها بينما أنا مترعة به طوال الوقت. أملأ أوراقا وأدراجا وحجرات كاملة بالسجلات والملاحظات والأفكار، بينما تزداد هي إيغالا في الضباب مع كل يوم يمر.

تأخذ قضمة أخرى. «يقولون إنه عندما تبدأ الذاكرة في الرحيل، تصبح مَلَكات أخرى أكثر قوة.»

«أي نوع من المَلَكات؟»

«هناك نساء يمكنهن رؤية الحيوات الماضية، يمكنهن الحديث مع الملائكة. وبعض النساء يصبحن مستبصرات بالمستقبل وما وراءه.»

«أنت مجنونة.» أمد يدي في حقيبتي، وأُخرج كراستي. أقلبها حتى الصفحة الأخيرة وأضيف تاريخ اليوم إلى قائمة تضم حوالي أربعين بندا. وإلى جوار التاريخ أكتب كلمة «بطاطس.»

تنظر أمي إلى الكراسة مضيقة عينيها وتهز رأسها. «كيف يطيقك زوجك؟»

«أنت حتى لست متزوجة، كيف لك أن تعرفي؟»

فمها مفتوح بينما أتكلم، وللحظة أعتقد أنها تنطق الكلمات بينما أقولها أنا. هل قلنا هذه الجمل بالضبط إحدانا للأخرى من قبل؟ أنتظر ردا لكن اللحظات تمر. إبطاي رطبان وأشعر بشيء داخلي يثور.

تبتسم. تبدو أسنانها حادة في ضوء الشمس، وأتساءل إن كانت تستمتع بهذه اللحظات، إن كانت قد أصبحت تتوقعها. يدق قلبي على نحو أسرع

وتتسارع أنفاسي. أرحب بهذا أيضا.

تربت على يدي وتشير إلى الكراسة. «ينبغي أن تقلقي بشأن جنونك بدلا من جنوني.»

أُطرق ناظرة إلى القائمة، إلى الخطوط الحريصة التي تشكل كل عمود، قبل أن أغلق الكراسة دون صوت. في طبقي، تبدأ كرات التابيوكا في التيبس. تبرد الحرارة بيننا. وخلال دقائق، ننسى أننا تبادلنا كلمات قاسية.

نمزج قطرات من عصير الليمون في كوبين من الماء الساخن ونخرج إلى الشرفة. علقت أمي دستة من حمالات الصدر المغسولة يدويا على حبل غسيل. بعضها جرى ترقيعه وإصلاحه.

«تحتاجين إلى حمالات جديدة.» أشير بإصبعي إلى الرباط الباهت لواحدة بالية كنموذج.

«لماذا؟ ومن الذي ينظر إليها؟»

أسفلنا، في مدخل البناية، رضيعة تصرخ بين ذراعي مربيتها. تهدهدها المرأة بجنون بينما تتحدث إلى الغفير. الصرخات أشبه بصرخات حيوان يتألم. نجلس صامتتين، ننتظر أن تتعب الرضيعة، أن تستسلم حبالها الصوتية، لكن الصرخات تستمر دون انقطاع. وتستمر المربية في الهدهدة، لاهثة، مذعورة، ربما على أمل ألا يسمع أرباب عملها في المبنى بالأعلى.

أقول: «لا أفهم لماذا لن تشتري حمالات صدر جديدة..» لم أكن أخطط للعودة إلى هذا، لكني فعلتها بطريقة ما. مازالت الرضيعة تصرخ. أتساءل ماذا يمكن أن تريده الرضيعة، ولماذا يبدو وكأنه الشيء الوحيد الذي يهم.

«يجب أن أكون قدوة.»

«قدوة لماذا؟»

«لك. ليس عليك أن تبالي بما يقوله الآخرون طوال الوقت. ليس كل شيء للعرض على العالم. أحيانا نفعل أشياء فقط لأننا نريد فعلها.»

لو كانت حواراتنا مسارات رحلة، لأظهرتنا دائما عائدتين إلى هذا الطريق المسدود الخالي، طريق لا يمكننا الهروب منه.

أبدأ بابتلاع الطُعم: «ماذا فعلته ولم أكن أريد فعله؟»

تتظاهر بتعفف المحسنين: «على أي حال، دعينا لا ندخل في كل هذا.»

ذلك الرفض لترك الأشياء تمر: «إذًا لماذا أثرتيه؟»

المزيد من التعفف والنبذ: «دعكِ من هذا، لا يهم.»

الغضب التام: «يهمني.»

ينكشف الباقي بشكل متوقع. تسأل لماذا أتعقبها دائما، لماذا أنا خلفها، أطاردها ككلب مسعور بأنيابي البارزة. أليس لديّ أي شيء أفضل كي أفعله، تسأل، غير التنمر بأمي؟

لا أتردد لحظة عندما أخبرها أنها تعرف فقط كيف تفكر في نفسها. يميل تعبيرها إلى جانب الألم لكنها تعود وتقول: «ليس هناك خطأ في أن يفكر المرء في نفسه.»

أتوقف عند الطريق المسدود المعتاد. إلى أين نذهب من هنا؟

أريد أن أخبرها بكل الأشياء الخاطئة في الأمر، لكني لا أستطيع أبدا العثور على الكلمات. أريد أن أسألها ما هو الشيء المزعج للغاية في فعل ما يريده الآخرون، في جعل شخص آخر سعيدا. هربت أمي دائما من أي شيء بدا شبيها بالقهر. الزواج، الحميات الغذائية، التشخيصات الطبية.

وبينما كانت تفعل هذا، فقدت ما تشير إليه بالدهون الزائدة. ليس لديها اهتمام بأن تكون نحيفة الجسد – لكنها ليست بحاجة إلى جهلة مكبوتين حولها، كما تقول. لقد أصبح الشعور متبادلا. ثمة أتراب معينون في النادي يرفضون قبول أمي. أما الأقارب الأكبر سنا، الذين ربما كانت لديهم نقطة لين ورحمة تجاه الطفلة التي يتذكرونها، فهم إما عجزة أو ميتون. نعم، لدى أمي أناس حولها، أناس يحبونها، لكن بالنسبة لي هم يبدون قلة. بالنسبة لي، كنا دائما وحيدتين.

هناك عواقب لعيش الحياة التي اختارتها. أتساءل إن كانت الخسارة تساويها، وإن كانت تؤمن أنها تساويها. أتساءل بمَ تشعر عندما أغادر لأعود إلى ديليب وتنظر هي في أرجاء بيتها. ربما ليس هذا اختيارها على الإطلاق، لكنه مسار آخر اختطته مرة بعد مرة، مسار لا يمكنها نسيانه. أريد أن أسألها إن كان، في كل السنوات التي هربتْ فيها، أي جزء من صرخاتها يطاردني؟ هل تريد أن يُقبض عليها وتعاد ويجري إقناعها بأنها مهمة، أنها ضرورية؟

لكن هذه الأسئلة تذوب عندما أراها تميل بظهرها في مقعدها، بعينين مغلقتين، وتهمهم مع شريط الصوت القادم من الرضيعة الصارخة، وهي ترتشف ماءها المُرّ.

يريد ديليب أن يصبح نباتيا لأن أسدا قتل لبؤة في أمريكا بالأمس.

شب الاثنان في حديقة الحيوانات نفسها، في الأسر طوال حياتهما. تزاوجا مرات كثيرة، وأنتجا أشبالا أخذت منهما في سن صغيرة. وفي يوم عطلة نهاية أسبوع مزدحم بعد الظهر، كانا جالسين في قفصهما كالمعتاد، وكانت مجموعة من الأطفال تجري حول المكان، مشيرين إلى الحيوانات، وسائلين آباءهم إن كانت الأسود حقيقية، مثل تلك التي رأوها في برامج قناة ناشيونال جيوجرافيك في التليفزيون. أضافت الصحيفة هذا الجزء الأخير، كما لو أن الأسدين سمعا والتفت أحدهما إلى الآخر وقالا: *هؤلاء الأطفال يريدون أن يعرفوا إن كنا حقيقيين. ألا ينبغي أن نريهم كم نحن حقيقيان؟*

وعندئذ قضم الذكر رأس الأنثى.

ليس هكذا بالضبط، لكنه ابتلع وجهها واحتجزها، عاجزة، بينما كانت تختنق داخل فمه، أمام كل البشر الصارخين.

ترك المقال القارئ أمام سلسلة من الأسئلة: هل كان الأسدان محبطين؟ هل هذا جزء من تغطية أكبر، مثل عروض (عالم البحار)؟ هل يحاولون إخفاء حالة شائعة بالإيحاء بأن الحادثة فردية؟ هل يمكن أن يكون الأَسر أصلا شيئا عاديا – وهل ينبغي أن يكون جزءا كبيرا من ثقافتنا أو شيئا نشجعه كتسلية في الطفولة؟ أليس للجمهور الحق في معرفة الحقيقة؟

يقول ديليب إنه كان يكره الذهاب إلى حديقة الحيوان، حتى وهو طفل. لم يكن هناك شيء يمكن أن يكون أسوأ من النظر إلى مخلوق في قفص.

انتابه نفس الشعور عندما كان يدرس التاريخ الاستعماري وضم كتابه الدراسي صورة في صفحة كاملة لفينوس الهوتينتوت[23]، مربوطة من عنقها بسلسلة وهي تدخن. ووصف التعليق على الصورة كيف جرى تشريحها بعد موتها وعُرضت أعضاؤها في المتحف. وأخبرني أنه عندما كان مراهقا، تجنب الذهاب إلى شاطئ (جوهو) في رحلات العائلة إلى بومباي لأن ابن عم له أخبره أن الجِمال هناك كانت تختنق في الهواء الرطب، وأن رئاتها الضخمة تتشرب الماء مثل أكياس الوسائد المبتلة.

بعض الأشياء تثير مشاعر زوجي، لكن لا يمكنني أبدا توقعها. أكل البروكلي قبل أن يصبح شائعا وحاول مرة أن يصنع صابونه الخاص. يترك سلطانيات من الماء خارجا على حافة النافذة تحسبا لأن تشعر الطيور بالعطش في أيام الصيف. في تقديره يأتي التمييز العنصري والتمييز على أساس الجنس والقسوة تجاه الحيوانات من نفس المصدر، ويتحدث عنهم بطريقة قابلة للتبادل.

أُخبر أمه بأمر الأسدين عندما تتصل ذلك المساء – وتضحك من ابنها، تقول إنها لا تعرف من أين تأتي هذه الأفكار، ربما باستثناء أنه ذات صيف ذهب إلى مدينة سورات ليقيم عند أصهارها، لأنها تعرف أنهم قوم يدعون إلى النباتية. تتساءل متعجبة لماذا لم تسمع بحادثة الأسد في ميلووكي، ولماذا ليس لدى الجرائد في الهند ما تفعله أفضل من كتابة التقارير عن حدائق الحيوانات في أمريكا.

أخبره بما قالته أمه، ويهز كتفيه: «كل إنسان مسؤول عن رأيه.»

يبتسم دون أن يُظهر أسنانه، وتنتابني رغبة مفاجئة في الاعتراف

23- اللقب الذي حملته سارة بارتمان (1789-1815) امرأة من قبائل الخوي في جنوب أفريقيا التي يتميز نساؤها بجحم مؤخراتهن الضخم، جرى إقناعها أو إجبارها بالذهاب إلى أوروبا حيث كانت تظهر عارية في عروض السيرك وتعامل بطريقة مهينة.

بشيء. «كنت أحب قتل حلزونات البزاق وأنا طفلة.» أدرك أني أتعرق، كما لو أن سُمًّا قد انطلق من داخلي. «في الأشرم.»

ينظر إليّ، لكن وجهه لا يكشف عن شيء. «طيب.»

«كنت أسكب الملح فوقها، وكانت تتقلص وتصرخ. علمتني كالي ماتا.»

ينظر في المرايا بينما يجيب: «لا أعتقد أنها تصرخ.»

«بل تفعل. أتذكر أنه كانت هناك صرخات.»

«ليس الأمر بالمعضلة الكبيرة. كنتِ مجرد طفلة.»

«اليوم تشاجرت مع أمي.»

«علامَ؟»

«شجارنا المعتاد.»

«تعرفان كيف تثيران غضب بعضكما البعض.»

يأكل الدال[24] ونوعين من الخضروات تلك الليلة على العشاء ويقول إنه يشعر بالفعل أنه أفضل، أكثر خفة، بعد ثلاث وجبات فقط.

بعد يومين، حول طبق من نبات الكينوا وحساء السبانخ، يخبرني أن أمه كانت على حق بالفعل، أن شيئا قد حدث عندما ذهب إلى سورات في ولاية جوجارات منذ كل تلك الأصياف. سمع قصة عن عمته، عمة أبيه في الحقيقة، المسماة كمالا. ولدت عام 1923 وكان والدها أول رجل في مدينة بهاڤانجار يشتري سيارة. وكان أيضا أول من علّم بناته مثل

24- طبق من بقوليات العدس.

أبنائه. لكن عندما حان دور **كمالا** في الذهاب إلى الجامعة، توسلت إلى أبيها كي يدعها تصبح راهبة جاينية، كي تعيش قرب المعابد في بلدة باليتانا الصغيرة، وتصعد آلاف الدرجات مع الحجاج والمصلين الآخرين إلى قمة تلال شاترونجايا كل يوم. أخبرته بحلم متكرر ظلت تراه، بوجه آديناث المعبود الجايني من تمثال له يستقر في معبد في باليتانا. لكن عندما تدنو منه أكثر، يختفي الوجه في الظلام.

أعلم ما يكفي عن الديانة الجاينية لمعرفة أن الجاينيين بعض من أكثر النباتيين تشددا من حولنا، فهم لا يمتنعون عن اللحم والبيض فقط، بل أيضا النباتات التي قد تكون اقتُلعت بغرض الاستهلاك. وفي العادة يُطهى الطعام الجايني دون بصل وثوم. أراجع بسرعة كل الوصفات التي سيكون عليّ أن أغيرها إذا قرر أن يتمادى في هذا الأمر. تقوم الراهبات غالبا بربط قماش أبيض على أفواههن وكنس الأرض قبل أن يخطين أي خطوة حتى لا يستنشقن ولا يطأن على كائن حي، حتى ولو بالصدفة. ومع ذلك، كان الجاينيون الذين عرفتهم مازالوا يرتدون الجلد ولم يبدُ عليهم أنهم لاحظوا ما تعنيه مزارع الألبان الصناعية بالنسبة للأبقار في كافة أنحاء الهند.

أشعر بالخيانة، وكأن سرا أسود ما قد انكشف. «لم تخبرني قط أنك كنت جاينيا.»

«رُبع واحد فقط. ومن جانب أبي.»

«كيف عرفت **كمالا** أي معبد كان؟»

ينقر ديليب على المائدة. «لا أعرف. ربما ذهبت إلى هناك من قبل.»

أومئ برأسي، ويتابع حديثه، لكني ألمح حماسا أقل مما بدأ به.

رُفض طلب **كمالا**، وضُربت وحُبست في حجرتها. ولسبعة أيام بعد ذلك، كانت أمها تطرق الباب حاملة طبقا من الطعام، لكن ولا لقمة واحدة أُكلت منه. في اليوم الثامن، فتح والد **كمالا** الباب ورأى أن ابنته كانت ترتدي بالفعل ذلك القماش الأبيض الرقيق الذي ترتديه راهبات الجاينية. في غضب، انتزع القماش القطني الأبيض الذي يغطي رأسها. لكن ما رآه شلَّ يده. كان شعرها كله قد اختفى. وكانت فروة رأسها حمراء وملتهبة.

عندما سألها ماذا فعلت، أخبرته أن الباريوشان -الأيام الجاينية المقدسة للتأمل والزهد- قد بدأت، وأن هذا هو الوقت الذي تنتف فيه الراهبات الجاينيات كل شعرة في رؤوسهن على سبيل التوبة والكفارة.

أقاطعه: «كم شعرة توجد في الرأس العادية؟» يهز كتفيه.

أسأل: «كم ألف درجة تؤدي إلى قمة باليتانا؟»

يقول ديليب: «لا أعرف بالضبط. الكثير.»

«هناك مبالغة في معظم هذه القصة.»

«لا نعرف هذا.»

«بل نعرف. خلال جيل واحد، ستكون قد سارت على الماء.»

«أنا فقط أقول، إن الناس في عائلتي، يأتيهم النداء.»

«النداء إلى ماذا؟»

«إلى حياة من اللاعنف الراديكالي.»

أقول: «لكنهم أيضا يأتيهم نداء إلى العكس.» أذكره بحب أمه لأيام الأجازات الأمريكية حيث توضع الطيور الكبيرة على مائدة العشاء،

والفراء الذي ترتديه لتحمي نفسها من شتاءات الغرب الأوسط الأمريكي. أذكره بعمه، ضارب زوجته.

لم أفهم ما الذي كان غير عنيف في نزع الشعر من فروة رأسك، أو العدو صعودا ونزولا على آلاف الدرجات كل يوم. أريد أن أسأل إن كان من المتوقع من الرهبان الجاينيين أن ينتهكوا أجسادهم بنفس الطريقة، لكن تعبير ديليب يمنعني.

يقول: «هناك شيء في هذا الأمر يجعلك غير مرتاحة. لا تقلقي، ليس عليك أن تتوقفي عن أكل اللحم إذا كنت لا تعتقدين أن بإمكانك هذا.»

أولى ذكرياتي هي عن عملاق في هرم. يجلس العملاق في مركز الهرم، على منصة مرتفعة. يحاكي البناء الذي يجلس بداخله، مشكلا هرما أبيض كبيرا يتألف من ثياب بيضاء، وشعر أشيب، ولحية كثيفة. حوله أهرامات أصغر، بيضاء أيضا، وأمي واحدة منها -واحدة وسط بحر من الأهرامات- وعندما أرفع عيني متطلعة إلى أعلى، يلتقي سقف الحجرة في قمة عالية فوق رأسي، تشير إلى أعلى نحو السماء في الخارج.

الأهرامات الأصغر تجلس القرفصاء. يبدو أن الهدف من التجمع هو صنع نسخ من العملاق. أنا الأصغر في الحجرة ولا أعرف كيف سأتمكن من أن أكون أكبر بأي شكل. بعض الأهرامات مخيفة إن اقتربت أكثر من اللازم؛ فلديهم شعور طويلة وبثور، ومسام كبيرة على أنوفهم.

هناك واحدة أخرى في حجمي. تنتظر في الركن، وفي يدها خرقة قذرة، تراقبنا. من وقت لآخر تتقدم متثاقلة لتعيد ملء الماء لمن يطلبون. قبلها، عندما دخلنا الهرم، رأيتها منحنية في الخارج، تجمع الغائط الذي تركته كلاب الأشرم.

يفتح العملاق عينيه؛ يسقط جفناه السفليان مبتعدين عن العلويين. ينمو الشعر في كافة أنحاء وجهه، لكني بطريقة ما أستطيع أن أميز كونه رجلا وليس وحشا، وأمي ليست خائفة لذا أحاول أن أكون مثلها. ثلاث مسابح تتدلى حول رقبته -بنية ووردية وخضراء- لتشكل مثلثا. أريد أن أنتزعها منه وأرتديها بنفسي لأني لا أملك عقدا خاصا بي، لكني لا أجرؤ على الاقتراب منه. ينفتح فمه ويندفع لسانه خارجا، ويمكنني رؤية

الظلام في آخر حلقه، أسنان مغطاة بالظلام، تجويف بلا نهاية.

أتحرك مقتربة من أمي. تنظر إليه، متعرقة مع بقية من في الحجرة، لكني أستطيع أن أشم رائحتها الخاصة، وأنا أحبها لأنها معروفة لي بطريقة ما لا أستطيع تفسيرها.

تجذبني نحوها وتُقبلني على فمي قبلة طويلة. ثم تعتصرني إلى جانبها وتدغدغ رقبتي. أشعر بالحرج، والقلق من عاطفتها؛ لأنها كثيرا ما يتبعها شيء غير سار.

يسحب العملاق لسانه من جديد ويبتلع ريقه، مستعدا قبل أن يخرجه مرة أخرى. يسقط اللعاب أمامه بمتر، على هرم متوسط الحجم، رجل له شعر أصفر، لكن الهرم أصفر الشعر لا يتحرك – هو متسمر ويحاكي العملاق، يخرج لسانه من فمه، ويسقط رذاذ خفيف من البصاق وراء ظله بالضبط. أنظر حولي وأجد أمي وكل الأهرامات الأخرى تتبعه. يضحك العملاق أو يسعل، لست واثقة أيهما يفعل، ويضحك ويسعل أكثر، في تدفق مستمر، وكرشه -الذي يستقر أمامه قليلا- يرتج وشعره مربوط في خصل كأذرع الأخطبوط. تتبعه بقية المجموعة في السعال والضحك. حتى أني أسمع تجشؤا. تبدأ امرأة إلى جواري في البكاء، لكن عندما أنظر إليها، لا أجد دموعا تسقط على وجهها.

تفوح الحجرة برائحة أدفأ، مثل إصبعي عندما أحكه في سرتي.

المرأة التي بجواري تصرخ بين شهقات بكائها، وتصرخ بعض الأهرامات الأخرى تجاوبا معها. أنظر إلى أمي ووجهها أحمر من السعال. أمسك بيدها، لكنها تجذبها بعيدا وتبدأ في النهوض، وأرى أن العملاق ينهض أيضا وكل الأهرامات تحول نفسها إلى أعمدة بيضاء.

أقف وأتشبث بحافة رداء الكورتا الذي ترتديه أمي، مجعدة إياها في

يدي، لاعبة بأصابعي في النسيج.

كان العملاق قد رفع ذراعيه وأخذ يهزهما، وهما يرتجان ويحلقان بعيدا عن جسده وكأنه يتفكك، وكأنه سيترك أطرافه تفلت ويمنحها لبحر البياض، بالطريقة التي منح بها أنفاسه ولعابه.

الأرض تتحرك لأنهم يتحركون – كل الأهرامات، يقفزون، يضربون الأرض بأقدامهم، يرقصون، يحتضنون بعضهم البعض. أحدهم يخبطني على جبهتي، وإحداهن تضمني بقوة بين ذراعيها. أصرخ مستنجدة بأمي، لكني لا أستطيع رؤيتها للحظة، حتى أجدها خلفي. ثدياها يتقافزان أسفل الكورتا البيضاء، وبحر الناس يحيط بها، يداعب أجزاء من جسدها ويطلقها من جديد.

ينعق العملاق وتجحظ عيناه، ويبدو وجهه كوجه الضفدع. ينعق مرة بعد مرة، ويتبعه البعض، مضيفين إلى النعيق نعيقا، لكن البعض الآخر يحركون أجسادهم في المكان مثل حيوانات مختلفة، وهم يصهلون، ويثغون، ويخرجون أصواتا من داخلهم غير مألوفة لي. كلهم من حولي، يقتربون ويتراجعون، وأنا جالسة على الأرض ويبدو أنهم نسوا وجودي، لكني أستطيع أن أشم جلد أقدامهم وهو يحتك ببلاط الأرضية.

أمي، أقول لنفسي وأنا أراقبها. أريدها أن تنظر إليّ، لكنها في مكان آخر. يمكنني رؤية هذا في وجهها، الوجه الذي تضعه عندما لا تستطيع رؤيتي. لا أعرف أين رأيت هذا الوجه من قبل لأني لا أستطيع تذكر ماذا جاء قبله، لكنه مألوف وشيء أعلم أنه يجب عليّ الخوف منه.

ترفع أمي ذراعيها في الهواء وتدور حول نفسها في حلقات. هناك رجلان على جانبيها وهي تختفي بينهما بينما يرقصان. تتوقف عن الدوران وتترنح هنا وهناك، ويمسكها أحد الرجلين لتتثبت، ضاحكا، لكن شعرها

ملتصق برأسها وفمها يسقط إلى جانب، وهو مازال يبحث عن توازنه. والآخرون يصرخون، ويتهوَّعون، ويزعقون بأعلى ما تستطيعه رئاتهم، شاحنين الهواء بأصوات هرائية.

أقول: «أمي..»

فمها ينتظم شمله من جديد، ويبدأ في الارتفاع عند طرفيه، حتى تتشكل ابتسامة لشخص ما. أتتبع عينيها ويكون العملاق هناك.

يبادل العملاق أمي الابتسام، أو ربما هي من تبادله، لكن هذا ما لن أعرفه حقا أبدا لأني لم أشهد من الذي افتر ثغره أولاً. هو جاثٍ على يديه وركبتيه، قافزا بجسده إلى أعلى. شعره الطويل يسقط على وجهه. يزبد اللعاب على شفتيه، متجمعا بين خيوط لحيته.

أصفع ساق أمي بيدي، وتخفض عينيها لتنظر إليّ وتدفعني بعيدا.

تقول: «لا تفعلي هذا..»

أشعر بذراعيّ ينفكان من جانبيّ. تدفعني مرة أخرى وأترنح متراجعة. ثدياها يتحركان بطريقة تجعلها قبيحة.

تقول: «ما خطبك؟ ارقصي! ما خطبك؟»

تظهر أجساد أكثر بيني وبين أمي، أجساد أخرى ترتدي البياض وترتحل من آخر الحجرة إلى مقدمتها، على أمل الاقتراب أكثر من العملاق. وجوههم منتفخة، وفكوكهم تنبض بالدم. يخافون أن يقتربوا أكثر من اللازم.

أنهض مرة أخرى. أقول: «أمي..» لا تستطيع سماعي وسط الهتافات والضحك والدموع.

«أمي..» أصرخ وأشعر بإحساس طارئ في جوفي، شيء لم أشعر به منذ لحظة لكنه الآن مستعد للانفجار.

«أمي!» أصرخ، لكن صوتي يضيع.

«أمي! أمي! أمي!» أرفرف بأجنحتي، لكنها لا تلاحظ.

«ما الأمر أيتها الفتاة الجميلة؟» الصوت قريب من أذني، وأجفل متراجعة عندما أرى الوجه. امرأة مدهونة بالطباشير وترتدي السواد تجثم إلى جانبي. السواد الوحيد في بحر البياض. «ما الأمر؟»

أقول: «أمي..»

«أمك؟ ماذا أنت بحاجة لأن تخبريه لأمك؟»

أشير، لكن هناك عددا هائلا من الناس حولها.

«طيب، طيب، دعيني أساعدك. هل هناك شيء يمكنني فعله؟»

أشير إلى بطني وأشير من جديد إلى أمي. أشعر بفقاعات في حلقي، فقاعات ارتفعت من معدتي، سكنت في مكانها وتكاثرت. لا صوت يخرج من فمي.

تنظر المرأة من بطني إلى وجهي، والكحل الأسود المحيط بعينيها الزرقاوين يتمدد عندما ترفع حاجبيها اللامعين. «مغص في البطن؟» صوتها غريب، به نغمة لم أسمعها من قبل، وكأنها تغني أغنية.

أتمتم: «نُص نُص..»

«طيب، دعيني أصطحبك. يمكنني أن أريك أين توجد فتحة المرحاض.»

تمسك بيدي وننسل عبر البياض. جلدها خشن، وعندما أترك أصابعي

تتجول في قبضتها أشعر بحواف أظافرها. ألتفت ورائي للحظة، لكن أمي قد اختفت في بحر البياض.

الحمَّام هادئ، والسيدة ذات الرداء الأسود تمسكني من تحت ذراعيّ بينما أقرفص فوق الفتحة. تنظر إحدانا إلى الأخرى بينما ننصت لصوت بولي وهو يضرب قاع التجويف، وأومئ إليها عندما يتوقف. تعدل سروالي وتربط عقدة بالخيط عند خصري، أرى أظافرها ناتئة ورمادية، ويديها مغطاة ببقع بنية.

«أيتها الفتاة الجميلة، هلا انتظرت في الخارج من أجلي؟»

أومئ برأسي، وأقف خارج الباب، منصتة إلى الأصوات في الداخل. تطلق السيدة ذات الرداء الأسود دفقة ثابتة، أعلى صوتا وأسرع مني. وألاحظ أن باب الحمَّام واحد من كثيرين، وأن هناك ممرا واسعا من الأبواب وأن أغلبها مغلق. مصابيح مكشوفة تئز فوق رأسي، ويمكنني سماع صوت في مذياع. في نهاية القاعة شبكة حديدية تطل على ساحة مفتوحة، وقطرات مطر في حجم ذباب الفاكهة تغشى الهواء.

ألتفت عندما أسمع لهاثا، وأرى أحد الأبواب مواربا، وعبره تأتي أصوات حيوانات وأجهزة مذياع، وأشياء أخرى لا أستطيع تسميتها. القفل معلق على مفصلته كذراع ممزق. أدفع الباب وينفتح كاملا.

الصغيرة الأخرى موجودة داخل الحجرة، دون خرقتها، وهي متمددة كالصليب. وبينما ترقد على منضدة وذراعاها مفرودان، ثمة رجل في ثياب بيضاء يفتح ساقيها. إنه من بحر البياض. إنه الهرم أصفر الشعر. سرواله متدل حول كاحليه وهو ينخر بينما يحرك جسده فوق جسدها. «أيتها الفتاة الجميلة، أيتها الفتاة الجميلة.» أسمع المرأة ذات الرداء الأسود تناديني. أستدير مبتعدة عن الباب المفتوح وأعدو. هي واقفة

خارج الحمَّام. عندما تسير تتحرك من جانب إلى آخر، والثنيات الطويلة لثيابها تكنس التراب عبر الأرضية.

تسأل: «أتريدين وجبة خفيفة؟» تخرج علبة من بسكويتات الجلوكوز. أملأ فمي بها، وسطحها يمتص اللعاب من فمي قبل أن تذوب. أشعر بالرغبة في التقيؤ لكني لا أستطيع التوقف عن الأكل. تفوح السيدة برائحة القماش، وأدخنة أيام كثيرة ملتصقة بثيابها.

تسألني إن كنت أريد أن أستريح أثناء انتظاري لأمي. أجيب: «نعم.»

نتمدد معا على حشية رطبة في الساحة. ملطخة وباهتة، ومتماهية مع البلاط البني الذي تستقر فوقه. كان المطر قد توقف الآن. يمكنني سماع صراخ قادم من الهرم، لكنه خافت ويمكن أن يكون صادرا عن حلق أي شخص في أي مكان. أشعر بذاتي تنأى عنه، منجذبة بعيدا عن المصدر، ناسبة إياه إلى شخص لا أعرفه، شخص غير مرتبط كلية بمن أكون.

تتزايد المسافة بيني وبين الضوضاء، وأشعر بأذنيّ تفرغان بينما ينسحب الصوت، وينتشر الخدر إلى بقية وجهي. تسترخي العضلات المحيطة بعينيّ، ويغدو الهواء أكثر بياضا مما كان. لا أعرف أين تعلمت أن أفعل هذا لكني ماهرة فيه، وهي حيلة أكررها كثيرا طوال بقية حياتي.

تسألني السيدة ذات الرداء الأسود إن كنت قد رأيت النجوم من قبل. أخبرها أني فعلت، ونتطلع إلى السماء الغائمة. أريد أن أقول شيئا آخر عن النجوم، لكني لا أستطيع تذكر كيف كان شكلها، وكم عددها الإجمالي، وإن كانت تتجمع في تشكيل مميز ما. هل هي ثابتة أم تتحرك، هل تومض أم تتوهج مثل المصابيح، وأبدأ في الشك إن كنت قد رأيت النجوم أصلا – أم إن كنت أعلم بوجودها فقط بطريقة غير مباشرة، من خلال أمي أو أبي، أو شخص آخر أخذ على عاتقه أن يعلمني ما لا أتذكر، لكن

الحقيقة الوحيدة الباقية من ذلك الوقت هي المشاعر والأفكار، وسواء كنت أنا من أبدعها أم وُضعت بداخلي فهو أمر من المستحيل معرفته.

تسألني السيدة ذات الرداء الأسود: «ما اسمك؟» أقول: «**أنتارا**.»

«أهلا **أنتارا**. أنا **كالي ماتا**.»

قبل أن تصبح **كالي ماتا**، كان اسمها **إيـڤ** وكانت تعيش على فدانين في لانسبورو، بنسلفانيا، مع زوجها **أندرو**، وابنتهما **ميلي**، ووالدة **أندرو**: **جون**. أعرف هيئتهم وهم يخرجون ألسنتهم، وبمنظر جانبي، من الصور التي تركتها **كالي ماتا** خلفها. كانت الأسرة تتلو صلاة المائدة عند كل وجبة بينما كانت الجدة **جون** حية – قالت **كالي ماتا** إن **جون** كانت متمسكة بهذا الأمر، ليس لأنها كانت مؤمنة بالضرورة، لكن لأنه كان الشيء الصحيح الذي يجب تعليمه للأطفال. لم تهتم **إيـڤ** كثيرا بنصيحة الجدة **جون**، لكن حتى بعد أن ووريت الوطواطة العجوز في التراب (في سن التاسعة والخمسين فقط رغم كل هذه الصلوات) قررت **إيـڤ** أن تحافظ على هذا التقليد. كانت الجدة **جون** أول جسد رأته خاليا من الحياة، في لحظة كانت تتحرك كعروس ماريونيت يمسك الشيطان بخيوطها، وفي اللحظة التالية لا شيء أكثر من ظل على الأرض، وأطرافها متمددة في استسلام. قالت خدمات الطوارئ شيئا عن انفجار في الأوعية الدموية، لكن **إيـڤ** لم تصدق هذا. لم ترحل الجدة **جون** بهذا النوع من الألعاب النارية، لقد كان رحيلا هادئا مباغتا، ترك الأسرة في حالة من عدم التصديق.

لم تر **إيـڤ** والديها وهما يموتان، ورغم أنها لم تكن تحب محاضرات الجدة **جون** الطويلة، إلا أن منظر الموت أصابها بالرعب. ووجد **أندرو**

نفسه يشرح ظاهرة الموت لإيـڤ أكثر مما شرحها لميلي الصغيرة. أمسكت ميلي بيد أبيها، وقالت إنها فهمت، وأخبرته أنها تتمنى لو كان بخير. لكن إيـڤ، التي كانت أمًا خطت بالفعل إلى الثلاثينيات من عمرها، لم تستطع إلا أن تحدق في الجدران لأسابيع. تهامس الناس في ليلة الدفن: «كانتا قريبتين بالفعل، كانتا قريبتين جدا وأحبت إيـڤ السيدة العجوز كأنها أمها.» لم تصحح إيـڤ الأمر للناس، لم تخبرهم بالمرة التي همست فيها لنفسها بأنها تتمنى لو سقطت السيدة العجوز ميتة، لكن كان عليها أن تعترف أن الموت، عندما حدق في وجهها، بدا نهائيا كما هو.

أصرت إيـڤ على صلاة المائدة كل ليلة وكان أندرو سعيدا بالانصياع إليها، لكن عندما كان الجميع يخفضون رؤوسهم ويشكرون الرب على خبزهم كفاف يومهم، كانت إيـڤ تبدأ في مفاوضاتها الخاصة مع القدير: إذا كان الرب يرى من المناسب أن يأخذ الطعام من مائدتها والسقف من فوق رأسها، ستبقى على قيد الحياة. لكن، إذا كان ينصت إليها، وإذا كانت كل هذه الآحاد المقضية في حظيرة مغبرة في دراسة الكتاب المقدس توبة كافية، ستطلب شيئا واحدا فقط الآن، شيء ينبغي أن يمنحه لها الرب، لأنه في الحقيقة لم يكن شيئا على الإطلاق. طلبت فقط أن يأخذها الرب أولا، أن يرحب بها في مملكته قبل أي شخص آخر من الجالسين على المائدة أمامها. لن تبقى على قيد الحياة، هكذا فكرت، إذا كان عليها أن تدفن واحدة من هذه الأرواح الحبيبة بينما هي مازالت تسير على الأرض. تلك ليالي دفن لم تخطط لحضورها. وهكذا، إذا كانت هناك أي طريقة يمكن بها ترتيب هذا الطلب الصغير، ستسعد بأن تظل مصممة على أن تتلو العائلة صلاة المائدة حول المائدة. في نظر إيـڤ، حافظت هي على طرفها من الصفقة، لكن الرب لم يحافظ على طرفه، وعندما بلغها خبر تحطم السيارة ظلت إيـڤ غير قادرة على تقبل العزاء طوال الأيام الخمسة التالية. ثم حزمت حقيبة وغادرت البلدة. كانت تعني ما

قالته – لا ليالي دفن، ولا تعرف على الجثث. لن تراهما أبدا كما ظهرا في مكانيّ راحتهما الأخيرة. عاشت إيـڤ في فيلادلفيا مع أختها لفترة، وحصلت على وظيفة كبائعة في متجر كبير لمستلزمات العرائس حتى قابلت رجلا يدعو نفسه باسم جوڤيندا. كان وسيما، له شعر بني فاتح ويرتدي نظارة، ويمتلك سوداوية كانت هي أيضا تشعر بها، ويكسب المال من بيع الماريجوانا. أخذها إلى (إرسالية هاري كريشنا) حيث كانوا يغنون أغنيات، وبعد ذلك إلى شقته، حيث قال إنه يدخر المال كي يذهب إلى الهند ليرى معبد براهما في مدينة بوشكار ويهرب من دائرة العذاب. سألها إن كانت تريد القدوم.

في بوشكار، بدأت ترتدي قماشا أسود مطرزا. كان ثقيلا وأجبرها على المشي ببطء. كانت طفلة شقراء، لديها نمش برتقالي على ساعديها، لكن ذلك العام الذي قضياه عائشين في الصحراء أكسبا بشرتها سمرة وغضّنا جلدها. شكّل شعرها ذيلا قصيرا من الجدائل خلفها. تعلقت ظلال العيون كغبار فيروزي على جفونها المطبقة، مستقرا داخل الأخاديد، خالقا نقوشا، وأحاط الكحل الأسود بكامل عينيها. كانت شفتاها زبيبتين سوداوين. وفي شعرها احتفظت بمجموعة من الحليّ جمعتها على طول الطريق، ريش وحلي رخيصة تتدلى من خيوط.

تجوّلا في الصحراء، وعاشا في ضواحي القرى، ناسيين الحياة التي كانت لديهما من قبل.

لم يكن أحد متأكدا من أين جاءت. قال البعض إنها دائمة الشباب وإنها كانت تتأمل في صحراء (طهار) منذ أبعد ما يمكن للمرء أن يتذكر. كان القرويون ينحنون لها، بل إن البعض كانوا يلمسون قدميها، وكان الأطفال يسمونها (أونت باي)، السيدة الجمل؛ لأنها كانت تستطيع البقاء على قيد الحياة دون ماء.

وهناك قابلت عملاقا يرتدي البياض طلب منها أن تنضم إليه في رحلته. لم نعرف أبدا لماذا كانت ترتدي السواد، فقط أنه وجدها على هذا الحال، وأنها كانت نموذجية جدا، وكاملة جدا على حالها ذاك. ربما كانت مازالت في نوع ما من الحداد، والحداد بالنسبة لها سيكون دائما هو السواد. كانت في الأشرم بمدينة بونيه لأكثر من عِقد قبل أن تتعثر امرأة حامل شاحبة حائرة داخل قاعة التأمل. لم تعد كالي **ماتا** رفيقة العملاق، لكنها اعتقدت في نفسها أنها أم أطفاله، ومربية أتباعه الكثيرين.

دعت المصلية الجديدة للجلوس، لكن أمي هزت رأسها ودارت عيناها في أرجاء الحجرة. قالت إنها ليست واثقة من رغبتها في البقاء. لكن عندما دخل العملاق، اندفعت أمي إلى المقدمة ووجدت مكانا عند قدميه. تأملت هناك لأكثر من أربع ساعات، ثابتة مثل قطعة من الأثاث. وعندما فتحت أمي عينيها، تطلعت إلى معلمها الروحي وقالت إنها ستكرس حياتها من أجله. ثم وضعت رأسها في حِجره وبكت.

لا بد أني لم أكن أزيد على ثلاث سنوات من العمر عندما حكت لي كالي **ماتا** عن أمريكا لأول مرة، وعن الأشرم الذي وجدت نفسي أعيش فيه. أخبرتني أننا مازلنا في بونيه، لكن عندما نظرت حولي لم أتمكن من تصديق ذلك. لم يكن الأشرم يشبه في شيء بقية بونيه.

علمتني أن العملاق يُدعى **بابا**، وأن له أسماء أخرى، أسماء أخرى كثيرة، لكننا ينبغي أن نشير إليه بهذا الاسم. سيكون أبًا لنا، وقائدا، وإلها. لكنه كان أيضا خادما متواضعا من نواحٍ كثيرة، لأنه اتخذ شكلا بشريا مرة أخرى ليريحنا من جهلنا. سلساله من المعلمين والأساتذة

ضم العديد من المهاريشي والأكاريا[25]، بل وحكماء معينين ظهروا في النصوص القديمة. وهذا مجمل في سيرته الذاتية.

كان بابا ينتقل في سيارة مرسيدس بينز ويجمع شرائط الفيديو لأفلام بريجيت باردو. كان طوله أكثر من ثمانية أقدام، وهو طول لا يبدو مميزا الآن. كان صوته رقيقا وناعما، حتى من خلال مكبرات الصوت التي كان يستخدمها أثناء مخاطبة حشود بالآلاف. وكانت تعاليمه تجتذب الجميع، سردية متعددة الطبقات بعناية تعتمد على بوذا والمسيح وكريشنا وزوربا. كان بابا يحب العلم ومهتما بالحواسيب. يتفرج على منتخب الهند وهو يلعب مباريات التيست ويستمتع بالطعام الياباني. كان هناك شيء مألوف بالنسبة للجميع كي يعودوا إلى حظيرته.

كمراهقة، كانت أمي معجبة بالأشرم من الخارج، بالحرية التي زينت أتباعه، لكنها لم تدخله هي نفسها إلا بعدها بسنوات، عندما وجدت بيت زوجها مليئا بالوحدة والملل. كانت أمي تبحث عن طريق للخروج.

تبين مواد التسويق الخاصة بالأشرم البدايات، عندما كانوا يعيشون في أبنية مؤقتة ذات أسقف من الصفيح وإضاءة قليلة. نما الأشرم حول شجرة تين بنغالي كان ارتفاعها عشرين مترا، مترامية وملتفة وتنمو أغصانها إلى أعلى وإلى أسفل، مؤكدة حقها في الأرض. زرع شيوخ مرحلة السانياسا[26] شجيرات من الليمون والمانجو، والتي ستحمل يوما ما ثمارا. تدريجيا، حصلوا على تصاريح بتوصيل مواسير المياه والكهرباء.

25- المهاريشي معلم روحي، والأكاريا خبير في شؤون الدين.

26- هي مرحلة التخلي في الحياة داخل الفلسفة الهندوسية الخاصة بأربعة مراحل للحياة قائمة على السن تعرف باسم الأشرامات، المرحلة الأولى هي مرحلة البراهماتشاريا (الطالب الأعزب) والمرحلة الثانية جريهاستا (رب البيت) والثالثة فانابراستا (ساكن الغابة، المتقاعد). يضم التصور التقليدي لمرحلة السانياسا الرجال والنساء في آخر سنوات العمر، لكن يمكن لأفراد المرحلتين السابقتين تفويتهما والالتحاق بهذه المرحلة الأخيرة بالتخلي عن متع الحياة والبحث عن المتع الروحية.

واستكشفوا إمكانية وجود بئر. كانت خزانات الصرف الصحي مطلوبة. صُبت الخرسانة ووُضعت الأساسات. ثم ارتفعت الهياكل وأقيمت الدعامات في مكانها.

تنتقل هذه الصورة إلى لقطة جديدة للأشرم اليوم، منتجع، ملجأ. مات المعلم لكن رؤيته باقية حية. كل الحجرات مجهزة الآن بشاشات تليفزيون مسطحة، ويقدمون تدليكا للأزواج وقراءات للطاروت. واختبار الإيدز إلزامي لقبول الانضمام.

جزء ما فقط من تلك السنوات الأربع من حياتي ترك أثرا. كانت هناك تلك الناموسية البائسة التي تدلت فوق فراشي في الحجرة التي تقاسمتها مع **كالي ماتا**. سمحت لي باستخدام الألوان في باليتة ماكياجها لألون وجهي. وكان المطبخ مكاني المفضل في الأشرم، حيث كانت مئات الأطباق المعدنية والأكواب تلمع وهي معلقة كي تجف، وحيث علمتني **كالي ماتا** كيف أثبت يدي وأقشر تفاحة بسكين. وكان أيضا المكان الذي رأيت فيه أمي، حيث كانت تطبخ من أجل **بابا**. وأذكر كيف كنت أمرر أصابعي فوق منحوتات لطيور وثعابين بينما أدق على باب خشبي ثقيل كان يؤدي إلى حجرة تقاسمتها أمي معه.

وبعد ذلك هناك اليوم الذي جاء فيه جدي وأخبر أمي أنه لم يعد بمقدوره تحمل فكرة بقائنا هناك أكثر من ذلك، وسط تجمع من الأجانب والعاهرات. أخبرها أنها قد ألحقت العار بعائلتها، وأنها ينبغي أن تعود إلى بيت زوجها حالاً. تجاهلته أمي وقالت إن هذا بيتها الآن. قالت إن **بابا** سيكون أبي وشيوخ السانياسا سيكونون عائلتي.

بالنسبة للفتاة ذات الخرقة، كان اسمها **سيتا**. كانت تنظف قاعة التأمل، وتسقي النباتات، ولا تتحدث أبدا. بعد الغداء، كان من عادتها أن تستريح على حصيرة مرقعة، وعيناها تلمعان عبر شقوق كوعيها. لقد

سألت عنها في السنوات الأخيرة، لكن لا أحد يستطيع أن يتذكر وجودها.

لقد جمعت بعض صور بابا التي أحتفظ بها في مظروف. كان بابا يحب الصور وكان لديه دائما مصورون في المتناول. قال بابا: «الصور لا تسجل التاريخ. بل هي تقرر التاريخ. إذا لم يكن لك أي صور، فأنت لم توجد قط.»

تتخذ أمي وضعيات تصوير بجواره في عدد من الصور. في إحداها، تلبس ثوبا من الساري. كنت تلك هي المرة الأولى منذ غادرت بيت زوجها، وارتدته بمناسبة زواجها الرمزي من بابا.

يبدو القطن خشنا وأبيض ناصعا، ملاءتان قُطعتا وحيكتا معا. ليست هناك أي تنورة تحتية، وثمة شريط بني مربوط حول خصرها. للحبل شرابة من البلاستيك في نهاية طرف، أشبه ما تكون برباط حذاء. الطيات مدسوسة في مكانها. ثلاث طيات فقط، وضيقة، في نصف عرض الطيات العادية، لكن كان هذا كل القماش الذي لديها. لا بد أنها خطت خطوات صغيرة ذلك اليوم. في الصورة تجلس على حصيرة صغيرة من القنب، إلى جوار بابا لكن خلفه قليلا. رتبوا شعرها فوق كتفها العاري. طرف الساري القصير متروك ليستقر على رأسها. تتشبث أمي بالطرف المفكوك. لا بد أن الشمس كانت ساطعة لأنها تجاهد كي لا تغمض عينيها.

لديّ صور لبابا على شكل بطاقات بريدية وسلاسل مفاتيح حصلت عليها من مكتبة الأشرم، وأيضا نسخة من نعيه حولتها من ميكروفيلم.

ينص النعي على أن السبب المحتمل للموت كان جرعة زائدة من مخدر، رغم أن مجموعة من أتباعه يصرون على أن السلطات المحلية سممته. كان في السابعة والخمسين من عمره وربما كانت لديه حالة تُدعى العملقة تفسر طوله الملحوظ. ولم يترك خلفه أرملة أو أطفالا معروفين.

عندما يكتمل القمر، كانت أمي تشعل بخور خشب الصندل في كافة أرجاء شقتها مع إغلاق النوافذ. كانت **كالي ماتا** قد أخبرتها بهذا كي تطرد الأرواح الشريرة والناموس. توقفنا عن هذه الممارسة لمدة عام عندما قال الطبيب إنها تسبب لي أزمة ربو. وتؤمن أمي أن هذا هو العام الذي سار فيه كل شيء على نحو خاطئ.

اليوم، الدخان ثقيل بينما تؤدي **كاشتا** هذا الطقس الصغير، وأشاهد الذؤابات الباروكية تتحول أشكالا ووجوها. تجلس جدتي محاصرة بالسديم في مقعد ذي ظهر عمودي بينما أسعل. لا أستطيع معرفة إن كانت قد سقطت نائمة. أمي إلى جوارها، تبدو مذهولة. لم تكن منتبهة إلى حد كبير اليوم.

أقف قرب النافذة. القمر أبيض في السماء وأتخيل أمواج المد ترتفع في ذرى عالية وتتحطم على الشطآن المضيئة بنور القمر. الجريدة، المطوية على منضدة القهوة إلى جوار أكوام من المجلات والبريد غير المفتوح، تدعوه بالقمر العملاق. أنظر إلى سطحه عبر النافذة مرة أخرى، متوهج لكنه مرضوض، كما لو أنه تعرض للضرب مرات أكثر من اللازم. أنتزع الصفحة التي تضم المقال من الجريدة، وأخطط فوقها رسما لوجه القمر بقلم رصاص، راسمة خريطة لهذه الضربات الوحشية.

يقول المقال إن القمر سيبدو أكبر من المعتاد، أن هذه أقرب مسافة بلغها من الأرض منذ عام 1948.

«جدتي..» أقول، وتنظر إليّ وهي ترمش بعينيها. «آخر مرة كان فيها القمر بهذا القرب من الأرض كانت عام 1948.»

تبتسم جدتي وتحك أنفها. أضيف: «في العام الذي ولدتِ فيه.»

«نعم..» تقول. «أتذكر ذلك العام.»

لا توجد أي سجلات مواليد للوقت الذي ولدت فيه جدتي؛ لأن معظم الأطفال في معسكرات اللاجئين كانوا يموتون قبل طقس (موندانا)؛ عندما تُحلق رؤوس الرضع للمرة الأولى. اخترع زوجها تاريخ ميلاد من أجل جواز سفرها. لكن عندما تحكي جدتي قصة حياتها، تستهلها بالبداية الأولى: القابلات وهن يصرخن باللهجة المولتانية ويستخدمن قطعة قماش قذرة لمسح السوائل عن جسدها. هي جائعة وتبكي، تبحث بجنون عن ثدي أمها، تعاني من أنيميا شديدة حتى أنهم أسموها **جوري**: أي الجميلة.

أسألها كيف يمكنها التأكد مما تتذكره بينما بقيتنا بالكاد نستطيع تجميع تفاصيل طفولتنا.

تسخر جدتي. تقول إني لا أستطيع الفهم إلا إذا كنت هناك. كانت فترة التقسيم وقتا مختلفا. حدثت أشياء وقتها لم تحدث مرة أخرى أبدا.

تختلج عيناها وتنظرا إلى الحائط خلف رأسي. ألتفت بعيدا وأمد يدي إلى جهاز اللابتوب الخاص بي، وأفتح صفحات عديدة تقدم تفاصيل حول بنية ترسبات النشوانيات: كأنه جانب من لاصق يفقد وجهه الآخر. مزيد من الرسوم التوضيحية تبين نسيج المخ مغمورا في الترسبات، فوضى من الأسمال، محبوسة في شبكة لا تنتمي إليها.

هذا ما وجده **ألويس آلزهايمر** عندما قام بتشريح مخ مريضته **أوجوستا** بعد موتها عام 1906. لم يكن بمقدور المسكينة **أوجوستا** أن تحتفظ بأي شيء على الدوام.

لا يعرف العلماء من أين تأتي الترسبات، أو لماذا ينقسم البروتين بطريقة غير صحيحة. يذكرني هذا كثيرا بما قرأته عن مرض السرطان، لكني لا أقول هذا لأي شخص خشية أن أبدو متهورة في استعمال الكلمات.

ترسب النشوانيات قد يكون مجرد عرَض. ما السبب؟ قد يكون طول (القسيمات الطرفية) -التي تستقر عند نهاية الكروموسومات مثل المقبضين الموجودين في نهاية حبل القفز- واحدا. ومع الوقت تقصر، علامة على الشيخوخة البيولوجية.

هل هذا سبب أم عرَض آخر؟

يبدو أن الشيخوخة ليست مصير الجميع. ولا التدهور المعرفي.

أتساءل إن كانت هناك أمثلة للشباب الدائم. أتساءل إن كان هناك خالدون.

تبدو جدتي في صحة جيدة، أفضل مما كانت عندما كان زوجها حيا. لكن الشباب الدائم؟ لا. هي تبدو عجوزا. هناك تيبس في مفاصلها وعقلها.

أرسم المحورين س وص، مسمية أحدهما بالسن والآخر بالتدهور. أعين موقعا لأمي وجدتي على الرسم البياني. بينهما أسرة صغيرة من الكريل.

لطالما تخيلت أن **كالي ماتا** كانت تتحدى حدود هذا الرسم البياني، خط مقارب للانهائي، حتى سقطت ميتة ذات صباح في بيتها.

كم سيموت من الكريل في هذه المهمة لجعل أمي تتذكر؟ في الركن الأعلى من الصفحة، أبدأ في رسم مسطح للقمر.

«تمرين بدورتك الشهرية.»

أرفع عيني عن رسوماتي. لقد حولت القمر إلى قرص بيض مرشوش بالفلفل الأسود. تطفئ أمي ضوء الحمّام وتجلس على الأريكة. يستقر الدخان. يتراخى رأس جدتي على كتفها.

أقول: «نعم. كيف تعرفين؟»

«تتركين رائحة خلفك. أناناس.»

لم أترك خلفي رائحة قط، ليست رائحة مصنفة بكل هذا التحديد. لم يذكر ديليب هذا قط. أتساءل إن كان يعرف كيف تبدو رائحة الأناناس. ظهرت عليه ذات مرة أعراض حساسية تجاه الكيوي وانفجرت القروح على شفتيه.

أحدق في القمر لحظة أطول. عندما يعود ديليب إلى البيت، سأطلب منه أن ينظر إلى القمر معي.

تتثاءب أمي. «هل بدأت اليوم؟»

أحتاج إلى التفكير لحظة. «نعم. هذا الصباح.»

تومئ أمي. تتكئ بظهرها على الوسادة. «مع القمر، كالعادة. دائما تفوحين برائحة تشبه الأناناس، يا كالي ماتا.»

لقد ارتحل القمر عبر السماء، وهو الآن مختفٍ خلف بعض المباني على البُعد. أبدأ رسما آخر لسطحه، هذه المرة من الذاكرة.

«ما هذا؟»

أرفع عيني. جدتي تمسك قطعة ورق مجعدة بين أظافرها.

«كنت أترك ملاحظات لأمي في أنحاء البيت. حتى تستطيع أن تجدها وتقرأها. ربما سيساعد هذا ذاكرتها.»

تبتسم جدتي. «أنت فتاة طيبة. اقرأيها لي.»

أتردد وأضغط القصاصة بكفي. خلال بضعة أسابيع، بدأت تبدو وكأنها رقعة قديمة.

أقرأ: «المرة التي أضفتِ فيها الفلفل الحار إلى طبق الخيشيدي الخاص بأنتارا.»

تضحك جدتي، وتسعل عندما أنتهي من القراءة. «متى كان هذا؟»

«أظن أنها أرادت مني أن أتعلم أكل الطعام الحار. لم تكن لتتوقف، بالرغم من أني أصبت بحالة سيئة من الفواق.»

تهز جدتي رأسها. «لم تضف أمك الفلفل الحار إلى طبق الخيشيدي الخاص بك. أضفتُ أنا الزنجبيل إليه لأنك كنت مصابة بنزلة برد سيئة.»

أقول: «هذا ليس صحيحا.»

كنت متأكدة أني أتذكر هذا، طعم الألم في فمي.

قالت: «أقول لك، هل سألتيها؟ ستخبرك.»

كنت قد قرأت هذه الملحوظة لأمي وكانت قد نظرت إليّ نظرة فارغة قبل أن أحشوها في الأريكة كي تجدها مرة أخرى.

أقول لجدتي: «حتى لو سألتها، لا تتذكر.»

«ربما لا تتذكر لأن هذا لم يحدث قط.»

أشعر بتصلب في الجانب الخلفي من ساقيّ. هل كانت تتحدث مع

ديليب؟ هل أقنعتها أمي أني أكذب؟

ترتفع الورقة طائرة من يدي، لكن عندما أنظر حولي تكون كل النوافذ التي أراها مغلقة. فوق رأسي، تتحرك المروحة بوشيش ناعم وهي تكمل دورانها، عائدة إلى الجزء الخاص بآليتها الخفية التي تطلقها من جديد. أنحني لأستعيد الورقة لكنها تطفو بعيدا عني مثل شبح مسطح. تبدأ جدتي في الضحك ويغدو صوتها خشنا، كأن البهجة والسعال صارا واحدا وليس هناك حد بين تسليتها وتعبها. نشاهد الورقة تختفي أسفل الأريكة.

من جيبي أُخرج مفتاحا وأناوله لجدتي.

«ما هذا؟»

«لفتح خزانة أمي في البنك.»

تضع جدتي نظارة قرائتها وتتفحص سلسلة المفاتيح. الميدالية عبارة عن القط جارفيلد البرتقالي باهتا وقذرا. ترفع عينيها إليّ وترفع حاجبا.

أقول: «تحسبا للأمر. علينا أن نكون مستعدين.»

يبتسم طبيب جديد عندما ندخل حجرة الفحص. الطبيب الذي كان موجودا في المرة السابقة في أجازة الآن.

تنضو أمي عنها ثوبها. تقول للطبيب إنه يفوح على نحو واضح بعرق امرأة أخرى. على مكتب الطبيب أدواته، قائمة في كوب من الفولاذ. خافض لسان لامع، كماشة منحنية. ليست لديّ معرفة بالكلمات المستخدمة للأدوات الأخرى. في يديه، تبدو حادة وغير لطيفة. تبدو الحجرة غير نظيفة. تنتقل عيناي من أمي إلى السقف، الضوء الأبيض، مكيف الهواء.

يسأل: «هل كانت هناك أي حوادث أخرى؟»

أقول: «نعم. إنها تعاني من الكوابيس. تقول الخادمة إنها عندما تدخل البيت في الصباح، تجد أمي جالسة في ركن، مرعوبة.»

لا يتغير تعبير الطبيب. يدون سلسلة من الملاحظات على صفحة في ملف أمي. خطه غير مقروء كالعادة. أبدأ في الكلام: «أشعر أن كل شيء يتطور بسرعة شديدة. أعراضها تسوء.»

يقول: «يبدو أن كل شيء جيد كما يمكن توقعه.» ينمو الشعر على وجهه في رقع من الأبيض والأسود. سِنّتاه الأماميتان مستدقتان، وهو يصفر عندما يتكلم.

أقول: «إنها تقوم بتناول الدواء.»

«لقد رأيت حالات، خاصة عندما يكون الأمر مبكرا، يقع فيها التدهور بمعدل أسرع.»

«أهذا ما يحدث هنا؟»



«لا يمكننا أن نكون واثقين.»

«إذًا ما رأيك؟»

«في الحقيقة، الدراسات حول هذا غير حاسمة بعض الشيء.»

أفتح كراسة وأبدأ في قراءة قائمة: «لقد عرضت عليها صورا، ومقاطع فيديو قديمة. قمنا بمشاهدة أفلامها المفضلة. قمت بأخذها في تمشيات وجولات بالسيارة في أماكن اعتادت أن تقضي فيها الوقت. قمنا بالطهو، خاصةً من وصفات لم تقم بعملها منذ فترة.»

أضع ملفا على منضدته، وأبدأ في إزالة ورقات مطبوعة قمت بوضع خطوط فيها على أجزاء بمزيج من ألوان الأصفر والأخضر والبرتقالي. الأثر الناتج لون ليموني فاقع ومن الصعب النظر إليه لوقت أطول من اللازم. يجلو حلقه ويرفع نظارته مقربا إياها من عينيه. أقول: «لديّ شك في أن أمي ترشح..» مشيرة إلى مقطع يعرض هذه الفرضية.

يكرر: «ترشح..»

«نعم، في كل مكان ومن كل مكان.»

أُنحّي جانبا مقالا من مجلة علمية كنت قد كتبت تعليقات فيه، وأفتح كتيبا صنعته يدويا وأكشف تحفتي الفنية. مخطط تدفقي لوظائف أمي الجسدية، وتاريخ لحياتها، بداية من ميلادها، حيث أشير إلى أن جدتي لم تلدها بعملية قيصرية، ولذلك تشربت أمي تماما بالميكروبات في القناة المهبلية. ومن هناك، تلتف أحداث طفولة أمي هابطة: قوائم من التطعيمات المحتملة واستخدام البنسلين.

تركز الصفحة التالية على الدمار الذي أُلحق بالميتوكوندريا؛ وهي

المراكز دائمة الشباب لخلاياها، والتي ورثتها من أمها وتستمر في العيش داخلي. تعنون كلمة «ميتوكوندريا» في رسمتي مركز عنكبوت عملاق، تلتف أرجله وتسقط داخل نسيج من دورات حمض السيتريك المتعثرة. النسيج عبارة عن قسيمات طرفية منكمشة تقلل إنتاج الإنزيمات، فيتدهور معدل دوران الميتوكوندريا. وبمحاذاة طرفه تتدلى أقفاص صغيرة تفيض بمركبات الأكسجين التفاعلية، يتزايد إنتاجها أضعافا مضاعفة وعلى نحو خطير، بينما الليبيد ثنائي الطبقة؛ وهو الغشاء الذي يُبقي البناء كله في مكانه، يبدأ في التشقق والانهيار.

على الجانب الآخر من الورقة، أمعاء أمي عبارة عن ممر منحنٍ، مسامي ومليء بالثقوب، مكون من سنوات من الأكل وتناول الأدوية بطريقة خرقاء. يتكوم الجنود الميتون، ومحارق جثثهم تنتظر بالفعل.

يسأل الطبيب: «ما كل هذا؟»

أنظر إلى الورقة. «كنت أقوم بالبحث. وهذا ما وجدته حتى الآن.»

يقول: «هل أنت جادة؟»

فجأة لا أستطيع النظر إليه. أحس بالرغبة في كرمشة الورق كله.

يقول: «من فضلك خذي هذا بعيدا. هناك بعض العلاجات الجديدة التي يمكننا النظر إليها.» يسرد قائمة بالآثار الجانبية. السكتة الدماغية. النوبة القلبية. الاكتئاب.

أقول إننا سنفكر في هذا، وأتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني.

«افعلي هذا. وأيضا، أنصحك بأن تجدي أحدا يساعدك في كل هذا.»

أنتظر منه أن يكمل. ينظر إليّ برأس مائل. يقول: «هناك معالجون يمكنك الحديث إليهم عن كيفية التعامل مع الوضع الذي تجدين نفسك

فيه الآن. مقدمو الرعاية في هذا الدور يمكن أن يعانوا بنفس القدر مثل المرضى. يمكن أن يكون هذا ضاغطا جدا.»

نعود إلى البيت من عيادة الطبيب، ونمر بالحشود الذاهبة إلى القداس في الكنيسة الصغيرة المحصورة بين معمل الألبان المحلي والمخبز الألماني. أنا وأمي لا نتبادل الحديث لكننا نحدق من النافذة. تعلق الكنيسة الزينات عشية الكريسماس، الزينات التي تلتمع مثل نجمات في أغنية للأطفال. الطوابير المصطفة لإشعال شمعة في منتصف الليل تسبب تكدسا، قاطعة تدفق المرور، وتطغى الأبواق والصرخات الغاضبة على صوت الترانيم.

على بعد مسيرة قصيرة عبر الشارع المزدحم، وفوق رصيف مكسور، يقع مسجد مجاور، حيث يُرفع الآذان للصلاة خمس مرات في اليوم. الكريسماس ليس استثناء. فشعبية الكريسماس في بونيه لم تقتصر قط على المسيحيين في المدينة، خاصة بسبب الاعتقاد العام بأن تمثال السيدة العذراء المقام قرب مدخل الكنيسة يغدق الحظ الجيد على المصلين لها. بضآلتها وردائها الوردي الخفيف، هي قِبلة حج غير رسمي. وبينما نمر بجوارها، أتلو صلاة لا إرادية من أجل كل شيء ولا شيء بالتحديد.

يعلم المحافظون على المسجد أن كثيرا من المسلمين ينتظرون لنيل البركة من مريم الأم وابنها، ويرتفع آذان العشاء مدويا عبر مكبرات الصوت بقوة خاصة بعد هبوط الظلام يوم الخامس والعشرين من ديسمبر، مذكرا بأن واجب المؤمنين لا ينخسف أمام أضواء ساطعة وشجرة صنوبر متلألئة في المناطق الاستوائية.

أنظر إلى أمي. تنغلق عيناها عندما تفرمل السيارة. أتمنى لو لم نكن بهذا القدر من الخيبة.

«لماذا لا تظلين معنا ليلة أو اثنتين يا أمي؟» أهمس، آملة جزئيا ألا تسمعني. «ربما ليلة أو اثنتين فقط.»

يتغير تاريخ اليوم بعد منتصف الليل، والضجة من الكنيسة والمسجد وعربات الثيران تستمر في التضخم. الأصوات متنافرة. لا يمكن تمييز الصرخات من الصلوات. تمتلئ الشوارع بالفوضى. يستمر الضجيج في التصاعد، لكن لا يبدو أن أحدا يدرك أن اليوم المقدس قد انقضى وأن الوقت قد حان للتطهر بعد التخمة، للتأمل في إفراط اليوم السابق.

أعاني من مشكلة في النوم تلك الليلة. تختفي الأسلاك القريبة من منضدة سريري الجانبية في فوضى على الجانب الآخر من الجدار. فوق رأسي، مصباح السقف عين تراقبني.

في الصباح التالي، يعود هدوء نسبي إلى المدينة، وتطفئ الكنيسة على الفور الأضواء الاحتفالية توفيرا للكهرباء. يستعيد المرور -الآلة والإنسان والحيوان- تدفقه الطبيعي.

في يوم عيد الصناديق[27] لدى ديليب اجتماع عبر الهاتف وأخرج وحيدة. السطح الأسود للتوكتوك يرفرف على الجانبين مثل مظلة، ويخفي المطاط وجهي، مبقيا إياه مخفيا عن الشمس وعيون الرجال الشبقين والكوارث الأخرى التي تنتظر كي تقع. لكن عيون الرجال تصل إلى الأجزاء التي يصلها الضوء، وحتى عندما لا أراهم وهم ينظرون إليّ، عبر السحب القطنية يمكنني الشعور بدفء الشمس على جلدي. تلك هي

27- يوم عطلة رسمية يحتفل به في المملكة المتحدة وكل الدول الناطقة بالإنجليزية باستثناء الولايات المتحدة ومعظم دول الكومنولث، يحتفل به في 26 ديسمبر من كل عام غداة عيد الميلاد، ويعرف أيضاً بعيد القديس ستيفن ظهر في إنجلترا خلال العصور الوسطى.

الأجزاء التي يمكنهم رؤيتها، قدماي في شبشبي، كاحلاي، الطول الكامل لجسدي، ذراعاي العاريان. من الأسهل لهم أن ينظروا إلى تلك الفتاة عديمة الرأس التي تركب مركبة بلا أبواب.

أحيانا، تظهر وجوههم من تحت الغطاء، تغطس لترى من بالداخل، لكننا نتحرك بسرعة أكبر من أن أتمكن من تمييزهم على حدة وهم جميعا ينتمون إلى نفس الكيان والطريق.

نمر بفوضى طريق المهاتما غاندي، وباعة الكتب، ومحلات المجوهرات، والنساء والرجال الذين ينادون بعضهم البعض وسط كل هذه البلبلة. لقد تغيرت الأمور هنا، أنا واثقة من هذا، لكن المدينة تمر بسرعة أكبر من أن أعرف كيف. عبر الغشاء الجاف المالح في منخريّ يمكنني شم (مخبز كاياني). يتلعثم التوكتوك ويتوقف، ويتصاعد الدخان من المحرك عند إشارة مرور. يستند رجلان على البوابة المتداعية لسنترال الهاتف القديم. يتقاسمان سيجارة لف، وفوق رأسيهما شظايا من الزجاج مصطفة فوق الجدار الفاصل، تلتمع في الشمس. أعطس ويلقي السائق نظرة إليّ. يتجمع لعاب برتقالي عند جانبي شفتيه. يبصق على الأرض ويفرغ منخاريه واحدا واحدا.

عند موقف الأوتوبيس، يتشبث رجال بمؤخرة الأوتوبيس، ضاغطين أنفسهم على الغطاء الأحمر المعدني. صبي مبتور الساق يبيع جرائد بائتة عند الناصية، وكلب مليء بالبراغيث يتقلب على ظهره.

طلبة المعاهد على الدراجات البخارية يجلسون ثلاثة على كل مقعد، يعوون ملتفتين إلى أصدقائهم المتخلفين وراءهم في الغبار. الفتيات يبتسمن وشحمات آذانهن مليئة بالثقوب. هن فتيات كما اعتادت أمي أن تكون، فتيات بلون واحد، من الرأس إلى أصابع القدمين، فتيات بشعور متدلية وراءهن كمخلوقات تطير خلفهن. أشاهد العيون عليهن،

على ملابسهن، على أطرافهن، على أفواههن المفتوحة. يبدو اليوم دافئا وساطعا.

أقابل صديقتي بيرفــي على الغداء في النادي. ما بعد الظهر هو للتنصت. ندور حول مسار المشي، وتصف لي بيرفــي الملهى الليلي الذي ذهبت إليه في الليلة السابقة. أستمع إلى بعض الحكاية لكني أيضا أنصت إلى رجلين يتناقشان حول فوائد برامج التعقيم القسري، وإلى كلمات أغنية تغنيها بعض الفتيات المراهقات بينما يخطرن في أرض النادي.

يدور الدرب، وعند نقطة ما لا يفصله عن التقاطع المزدحم إلا خط من الشجيرات وسياج حديدي. أسمع صرير المرور وهو يتكدس، والسائقين على الجانبين يرفضون إفساح الطريق، دافعين مركباتهم إلى الأمام داخل الفراغات الصغيرة. يترجل السائقون ويتجمعون لتقديم النصيحة وسط أصوات الأبواق اللانهائية. تهتز الرؤوس وتُقذف اللعنات، أولا إهانات موجهة لأم شخص ما، تتبعها ملاحظة عابرة عن أخت أو ابنة عم أيضا.

يندلع النشاز مع أدخنة البنزين. نتوقف ونراقب من خلف حائط واطئ من النباتات. يمكنني شم رائحة كاوتش يحترق. يتقاتل الضجيج بحثا عن مساحة، منفجرا في صخب لا يمكن فك شفرته. يمتد ذراع، وبعده عدة أذرع. حلوق تُقبض، وأكتاف تُدفع، وغبار يرتفع مع الشجار. وسط الأجساد، أرى واحدا يسقط، محبوسا تحت ثقل الإهانات والغضب. تستعر الحرارة فوق رؤوسهم. يتطلع إلينا رجل. يضيق وجهه بتقطيبة. يتأرجح الظل بينما تتحرك الأشجار من جانب إلى آخر. أخفض بصري ناظرة إلى يديّ، الملتفتين حول السياج السلكي. أمدهما وأفلت السياج لكن، على البُعد، تستمر المعركة. يضيع الرجل في الصراع.

بيرفــي مازالت تتكلم. مفعمة بالحيوية، تنحت الهواء بيديها، أو تحك إحداهما بالأخرى، وكأنها تمحو بعض الكلمات غير المرغوبة. تقول إن

حك الراحتين أو باطني القدمين معا واحد من تكنيكات اليوجا التي تدمج الجانب الأيسر من المخ بالجانب الأيمن. عندما كانت أصغر سنا، كانت فتاة غلامية تكره شعرها وتخفي وركيها. الآن أظافرها مطلية ومدببة. هي واحدة من صديقاتي اللاتي تزوجن صغيرات ولأسباب منطقية. هي وزوجها يذهبان في رحلات بحرية، ويستأجران منازل لقضاء العطلات، ويتعلمان التزلج. يبيعان ويشتريان الخيول، ونادرا ما يلبسان نفس الثياب مرتين، ولا يطفئان أبدا مكيف الهواء في شقتهما. أحيانا، عندما نكون وحدنا هكذا، تشبك بيرڤـي أصابعها في أصابعي وتؤرجح ذراعينا، كولد صغير يجرب مضربه. تلمسني ونحن سائرتان، حيث يحتك كوعانا والأجزاء المكشوفة من رسغينا، معترضة طريقي. منذ عام، في النادي، صبَّعتني في كشك الحمَّام بينما كان زوجانا يطلبان المشروبات عند المشرب. ولم نتكلم قط في هذا الأمر.

«إنه أبي، مع أسرتي..» أقول لبيرڤـي بمجرد جلوسنا إلى إحدى الطاولات.

يستمتعون بعيد الصناديق. تميل الزوجة الجديدة متكئة بظهرها على مقعد من الخيزران الأبيض وهو يجلس معتدلا على ذراع المقعد. لا يتلامسان، لكنهما ينظران إلى بعضهما البعض كثيرا. تومئ برأسها لكل ما يقوله. ثم تبتسم بطريقة لم أرها من قبل. يهتز كتفاها، وينطلق الضحك. يجتاح الصوت جسدي. تلقي بيرڤـي نظرة عليهما قبل أن تلتفت من جديد إلى قائمة الطعام، لكني أستمر في المراقبة. الطاولة التي اختاراها تستحم بنور الشمس. ليس هناك إلا بضع أمتار بيننا لكن النور يحول عالمهما إلى عالم غريب. عندما أميل بظهري متكئة على مقعدي المصنوع من الخوص، أتخيل أني أنظر إلى لوحة، مؤطرة بأعمدة المبنى البيضاء، لوحة من العصر الفيكتوري غالبا. ثمة ماضٍ وحاضر، وفجوة لا يمكن إغلاقها. هل بإمكانهما رؤيتي؟ لا بد أنهما يستطيعان رؤيتي.

أنا هنا. ينظران كثيرا في اتجاهي، لكن ربما تعميهما الشمس. أنا غير مرئية.

يمر النُدُل رائحين غادين. أغمض عيني وأشيح بعيدا.

أبي أحب أمي منذ زمن بعيد. على الأقل أحب الطريقة التي كانت تبدو بها. وربما يوافق على رؤيتي أحيانا لنفس السبب، لأني أبدو كفتاة أحبها ذات مرة – لأني أجلس في حجرة معيشته، متوسلة، مرتبكة، بمظهر فتاة جرحت كبرياءه ذات مرة.

أتساءل كيف يبدو الطابق العلوي لمنزلهما الآن، بعد أن عاشت الزوجة الجديدة فيه لعقود. لو طلبت رؤيته، هل يا ترى سيجعلونني أرى أي حجرة تخص من، يجعلونني أرى التغييرات التي قاموا بها في حجرات النوم منذ كنت هناك طفلة، التحديثات، حوض جديد، خزانات إضافية، أرضيات أعيد تبليطها؟ ربما سأقترح ذلك، في المرة التالية التي أتحمل فيها إذلال زيارة لبيتهما. بالطبع ستعرض زوجته أن تريني كيف يعيشون. أو ربما يرغب الصبي في اصطحابي في جولة لرؤية البيت، بما أنني -تقنيا- أخته الأكبر. ربما من خلال إذلالي، يستطيع أبي أن يشهد إذلال أمي، ويشعر بأنه نال ثأره من الطريقة التي جُعل بها مغفلا منذ سنوات بعيدة جدا. أو ربما يرى نفسه في وجهي، بالطريقة التي يرى بها نفسه في زوجته. ربما سيريني أبي الحجرات التي صممها لطفله، وبعد ذلك حجرة النوم التي يتشاركها مع المرأة التي تزوجها، الحجرة التي ورثها من والديه، سرير قد يكون ابنه تقافز عليه عندما كان صغيرا، حيث يضاجع زوجته الجديدة الآن لكن ربما مازال يتخيل أمي. ربما يمكنني مضاجعته -هذا الرجل الذي يحب النظر إلى نفسه- على نفس السرير، بهدوء، حريصين ألا نزعج الآخرين، بينما زوجته تصنع الشاي في الطابق الأدنى.

تقرقر معدتي بصوت عال. تسألني بيرڤــي: «هل أنت جائعة؟»

أهز رأسي. معدتي لا تتذمر، فقط تتحدث في الوقت غير المناسب. لطالما فعلت هذا خلال الاختبارات الهادئة، والعشاءات، والوقفات المشوقة في الأفلام – إنها تقول دائما الأشياء التي لم أكن قادرة على قولها، عندما أكون جائعة ربما لكنه جوع من نوع آخر.

أنظر نحو المدخل، الذي مازال مزينا منذ الاحتفال السنوي الخاص بالنادي. البالونات التي طفت ذات مرة في الهواء، وتتدلى الآن بلا حياة من أنشوطات اللافتات المعدنية.

نشاهد التليفزيون في الفراش بعد العشاء، ولا يخفض ديليب الصوت عندما أذكر الأطفال. عيناه على مذيع أخبار يتحدث بصوت أعلى من ضيوفه. يتناقشون حول ما إذا كان من حق العلامات التجارية غير الهندية أن تستخدم صورة غاندي دون إذن لأغراض تجارية.

لست واثقة إن كان قد سمعني. أتمنى لو كان لدينا مزيد من الأعمال الفنية على الجدران. ما الجدوى من النظر دائما إلى بياض فارغ؟ يقول ديليب إن هذا يساعده على تصفية ذهنه.

يقول: «سئمت من الهند.»

أنظر إلى التليفزيون وأطلب منه أن يغير القناة. «لا، أقصد أني سئمت من كل شيء هنا.» ينظر إليّ ويلتفت إلى الشاشة من جديد. «إلاكِ.»

«ما الموضوع؟»

«هذه الحياة. هذه الوظيفة. هذه المدينة.» تنزلق إحدى ساقيه خارج الفراش، ويكون ما بين الجلوس والرقاد.

أومئ برأسي، لكنه لا يراني، لذا أضع يدي على يده. في التليفزيون، تنطلق الإعلانات بصوت أعلى من البرامج المقررة. اثنان يتشاركان قالبا ذائبا من الشيكولاتة، وهما يلعقان أصابع أحدهما الآخر. مقصود بهذا أن يكون رومانتيكيا، لكني أعتقد أنه شيء مقرف وأضطر إلى أن أشيح بوجهي بعيدا كي لا أتقيأ. أكره هذه الشقة. أريد أن أعيش في صفحتين مفتوحتين من مجلة حيث كل صفحة تضم القدر المضبوط من الهراء الجميل. حيث يمكنني الوقوف في وسط الحجرة، دون أن أتحرك، كتمثال، ولا يتجمع التراب أبدا عليّ أو على فوضاي.

أقول: «لا يمكنني تخيل مكان آخر نذهب إليه.» ينظر إليّ، منتظرا، وأدرك أن لديه ردا في ذهنه يريد مني أن أصل إليه.

«لديّ أسرة أيضا..» يقول عندما ينتهي وقتي.

أنظر إلى قدميّ، إلى مقوي الأظافر المتقشر على إصبعي الكبير. أعلى قدمي به بضع شعرات ناعمة. لقد نسيت نتفها لشهور عديدة. لا يلاحظها. أو ربما يلاحظها لكنها لا تزعجه. أو ربما تزعجه لكنه ألطف من أن يقول شيئا.

أكرر: «هل تريد أطفالا؟» وأنا أسأله، أدرك أني لا أريد أطفالا تبدو مثله، كما لو أن ألسنتهم تتحرك بحرية أكبر من اللازم في أفواههم.

لقد سألته هذا السؤال بعد ثلاثة أشهر من بدء مواعدتنا، حول زجاجة من النبيذ، عندما كنا نتأمل في بؤس آبائنا.

يقول: «أعتقد أني أريد. ألا تريدين أنت؟» إنها بالضبط نفس الإجابة التي قدمها لي من قبل. إنه نفس الرجل. لم يتغير. غدا، سيبدأ القمر في السماء الانتقال إلى الظل.

«لماذا؟»

«لماذا ماذا؟»

«لماذا تريد أطفالا؟»

يهز كتفيه. «حتى يمكننا أن نكون مثل كل شخص آخر.»

لا يمكنني تذكر ما قلته في المرة السابقة أو إن كان هذا شيئا أريده، أيضا، لكنه يبدو مألوفا، يبدو كشيء يمكن أن أقوله. أليس الانسجام شيئا لطالما تقت إليه؟

أنظر إلى ديليب وهو يبتسم.

«لم تغادري الشقة اليوم، أليس كذلك؟»

1986

أرضية الأشرم بيضاء وباردة على وجنتي، وهناك كعوب مشقوقة في كل مكان. الجميع مصابون بالجفاف لكنهم يتعرقون. أذرع تنتمي إلى أجساد متسربلة بالبياض تمتد هابطة لترفعني. تمسك بأطرافي، تنطبق الأيادي حول ساقيّ وكاحليّ ورسغيّ وساعديّ، وأطفو بضع سنتيمترات فوق الأرض قبل أن ألتقي بها من جديد. يتهامسون، يتناقشون ماذا يفعلون بي.

تمرر **كالي ماتا** يدها على وجنتي. «حبيبتي، قفي. أرجوكِ قفي.» أغلق عينيّ على البشرة الباردة لراحتيها، على رائحة البصل الأخضر والسمن في أظافرها. أحبها. أريد أن أفعل ما تطلبه من أجلها. لكني لا أستطيع. أريد ماء. أشعر بالماء يتدفق من فمي. لعاب. المروحة تدور فوق رؤوسنا. تندفع سحلية عبر الجدار، مختفية خلف سيقان شيوخ السانياسا البيضاء. أحاول أن أكور جسدي لكن الثقب في معدتي يصرخ عندما أحرك ساقيّ. أتطلع إلى كل وجوههم.

أعرف الآخرين، لكن **كالي ماتا** فقط هي من تخصني حقا. عيناها الزرقاوان تشبهان الكريات الزجاجية. يمكنني رؤية نفسي في عينيها، راقدة هناك، بقعة جافة من لون أبيض. لقد تجمعوا ليقشرونني عن الأرض.

ترتج الأرضية -يمكنني سماعها، أذناي قريبتان للغاية من الأرض،

مرهفتان للغاية- ويمكنني أن أسمع صوتها. تلوح أمي وسط وجوههم ويفسحون الطريق لها. أتشنج لمرآها -لم أرها منذ أسابيع، ظننت أنها قد نسيت أمري، تساءلت إن كانت ميتة. لا أحد يتحدث عنها أمامي، لا أحد يدعني أراها. لماذا يريدون أن يبقونا منفصلتين؟ لماذا يجب أن يمتلكها بابا فقط؟

ترفعني عن الأرض، تحملني إلى حجرة أخرى، تدفع بكوب إلى شفتيّ. يصدم أسناني محدثا رنينا. آخذ رشفة من الماء وأتنهد. جسدي مُحمَّص من داخله. أنظر حولي وأرى أن الحجرة حجرتي، حجرة أسكنها بدونها، وأبكي، ملقية ذراعيّ حولها بينما تحتج معدتي.

«لم تأكل شيئا منذ أيام. فقط تسأل عنك وتشير إلى حلقها، تقول إن شيئا محشور فيه.» لا أعرف من يتحدث، لكني أشعر بالذراعين اللذين يضماني يتيبسان. أمي غاضبة. يمكنني أن أشم هذا بالفعل.

تلقي بي على الفراش، وتحس رأسي بالخشب الصلب تحت الحشية الرقيقة. أصرخ عاليا، لكن أمي قد تسلقت فوقي، وهي تضمني، ذراعاي وساقاي غير قادرين على الحركة، والضغط الذي أشعر به، الذعر، يتوقف فجأة ويتدحرج عائدا إلى الداخل، منقلبا على نفسه. تضرب يدها جانب وجهي، ومثل البرق، أرى الشعاع قبل أن أسمع الصوت. تلف ذراعيها حولي وأشعر برئتيّ تنكمشان وهما تفقدان الهواء. أصرخ لكن صوتي مكتوم.

يبدأ الضوء في الإعتام عند حوافه، متحركا ببطء نحو المركز. هل يُعتبر الضرب ضربا إذا لم تكن هناك كدمة؟ لا يمكنني تذكر طبيعة الألم.

تقول أمي: «من الأفضل لك أن تأكلي عندما يقال لك ذلك. من الأفضل لك أن تكوني فتاة جيدة.»

كان هناك وقت عرفت فيه الأشرم جيدا، عندما كانت طبوغرافيته الخاصة تعني شيئا لي. تعلمت المشي حافية القدمين، أن أشعر بالمتعة من وطأ الحصى. كانت **كالي ماتا** تنظف جروحي وخدوشي، مستخرجة اللحم الداخلي من ورقة صبار لتدهن بها جلدي. كنا نقضي الوقت في بستان صغير ترعاه، مأهول في أغلبه بأشجار بابايا مثقلة. وكانت تسرد قائمة بالفوائد الصحية العديدة للبابايا عندما تفتح ثمرة ساقطة بمطواة ثلمة وتناولني شريحة. استمرت هذه الدروس حتى عندما صرت أكبر سنا. عندما كنت في السادسة عشر، علمتني تجفيف بذور البابايا وغليها في الشاي كطريقة لمنع الحمل.

ذهبنا أنا و**كالي ماتا** في تمشيات معا في الأشرم وتعلمت شكل الأرض، أين تنحني مثل مهد، وجذور الأشجار المتموجة فوق التربة، متحررة. عرفت الشقوق التي يمكن أن تخفي جسدي، وسط الثعابين ونبتات السرخس الطويلة، أدنى من مجال ملاحظة العالم.

في الأشرم، عندما كانت تظلم السماء لم يكن هناك ضوء غير الوهج الكابي للمشاعل الذي كان يختفي في البستان. كنت أمشي ويداي مفرودتان أمامي، أتحسس العوائق في طريقي. كان **بابا** يحب أن يحكي قصة عن كيف جلس في صمت لمدة مائة يوم، وحيدا في كهف منعزل قرب جوموخ؛ مصب نهر الجانجا. أرهف الامتناع عن الكلام حواسه، ومنحه قدرات خارقة للطبيعة. عرف إحساس التحليق في الهواء منذ تلك الأيام، ومن ملاحظة دوائر حياة الخلايا على جلده. قالت **كالي ماتا** إنني لا ينبغي أن آخذ كلامه بشكل حرفي، لكني فعلت. عندما سرت في الظلام، شعرت بكل بيت عنكبوت، بكل صخرة تحت قدميّ، وبالهمسات في الأشجار، وشذا الياسمين المتفتح على البُعد. كان صندلي يترك أثرا مع

كل خطوة. وكان النعلان الجلديان يصطكان بأسفل قدميّ. وتلك كانت نوعية الهدوء هناك.

في الأيام الأولى، ظننت أني لن أسعد أبدا في ذلك المكان الغريب. كنت أسهر طوال الليل، متكومة في ركن وحيدة. كان يمكن أن أبكي دون نوم ولا ماء ولا طعام. حاول شيوخ السانياسا ملاطفتي، واحتضاني، بل وتوبيخي من وقت إلى آخر. كانت كالي ماتا تقرصني وتطلب مني ألا أكون ناكرة للجميل. عليّ أن آكل وأشرب وأنام، قالوا هذا جميعا، عليّ أن أعتني بنفسي، أن أستسلم لحالة طبيعتي. قالوا إنني ينبغي أن أفعل هذا من أجل بابا. قالوا إنني ينبغي أن أفعل هذا من أجل أمي.

لم يعرفوا أنني عندما كنت أغلق عينيّ لم أكن أستطيع أن أحدد من أكون، وأن البقاء مستيقظة كان هو السبيل الوحيد الذي كنت أعرف به حدود جسدي نفسه. أعطوني رداء كورتا كان ملكا لأمي، أبيض وبالٍ، متهرئ عند الأطراف. كانت رائحته تشبهها وكنت أحتضنه طوال الليل. عندما كنت أرقد في الفراش، كان بمقدوري سماع أصوات كرات الكريكيت والمضارب. كانت أصداء أصواتهم تتردد كما لو كانوا في الحجرة معي. وكانت نوابض المرتبة تطن تحتي. كان المبنى يصدر صريرا، وحتى الأرض بدت وكأنها متفككة، هشة. خطوة واحدة خاطئة وستبتلعني.

كانت النهارات أسهل، وعندما صرت أكبر، كنت أقوم بمهام العمل الروتيني مثل كل الآخرين، كنت أساعد في المطبخ. قالت كالي ماتا إن علينا أن نعطي بقدر ما نأخذ، لكني لم أعرف قط كيف تقاس هذه الأشياء. كنت آكل الطماطم كما لو كانت تفاحا. ثمة أحجار كانت تكشف عن مستعمرات من الديدان، وكنت أقضي ساعات في مراقبتها وهي تحفر، مستسلمة أحيانا لرغبتي في سحقها بين الصخور ودفن جثثها. كنت أستحم بنفسي، حتى خلال الرياح الموسمية، عندما كانت البالوعة تتقيأ

الصراصير. تعلمت أن أغسل ملابسي الداخلية وأعلقها كي تجف. علمتني **كالي ماتا** كيف أمسك بالقلم الرصاص، وأتحكم في إبهامي المفرط في التمدد، كيف أثبِّت يدي.

بعد أربعة شهور من العيش هناك، وجدت طرقا للذهاب للنوم وحدي، لسماع أصوات تنفس **كالي ماتا** عبر الحجرة، للعثور على جيب من الدفء في وسط الفراش وملئه بأي حرارة يمكنني حشدها، حتى أتمكن من فرد أطرافي دون خوف من البرد.

لكني لم أتمكن قط من التحكم فيما كان يحدث ليلا. عندما استيقظت في الصباح والدم على وسادتي والخدوش على وجهي، أخبروني أني عانيت من أحلام سيئة وجرحت بأظافري جلدي. وعندما لم يفلح هذا، وضعوا يديّ في قفازات بدون أصابع. أحيانا، كنت أستيقظ في الصباح لأجد ملاءة مربوطة بإحكام حول جسدي، تقيد ذراعيّ وساقيّ في أماكنها. كنت أصرخ حتى تسمعني **كالي ماتا** وتأتي لتحررني. قالت إنهم فعلوا هذا ليمنعوني من الضرب بأطرافي في الهواء.

عندما وصلت إلى الأشرم لم أكن أرتدي الحفاضات، لكن خلال شهر ألبسوني واحدة. كان من الصعب غسل ملاءاتي كل يوم. ارتديت واحدة من آن لآخر حتى تركنا المكان بعدها بأربعة أعوام.

أحيانا كانت **كالي ماتا** تحتضنني، ممسكة بي على مقربة شديدة حتى أنه كان بمقدوري أن أشم تحت إبطيها. وكانت تقول: «أتعرفين؟ لقد حلمت بك. حلمت أنه سيكون هناك طفل يحتاجني.»

كانت هناك أيام لم أكن أرى فيها أمي على الإطلاق، ولم يكن مسموحا لي أن أراها، أو حتى أن أعرف أين كانت، وتعلمتُ ألا أسأل الأسئلة إذا كنت لا أريد الإجابات. عندما كانت تظهر، كانت طيفا، وكنا نجلس

معا، كلتانا مرتديتان البياض، وأنا مرة أخرى مجرد امتداد لجسدها. كانت تحتضنني وتقبلني، وتطعمني بيديها، أرز طري باللبن الرائب، مثلما كانت تفعل عندما لم تكن لديّ أسنان. أحيانا في الليل، كانت تأتي عندما تظن أني نائمة. كنت أرقد ساكنة وناعسة، تاركة إياها تجد طريقا لتضبط جسدينا معا. كان وجهها ورداؤها الكورتا غالبا مبتلين، وكانت تزفر أنفاسا متقطعة في مقدمة شعري. وفي أحيان أخرى، كان صوتها يرتفع، مخترقا الهواء، وكانت يدها أو قدمها تجد طريقا لتهبط عليّ. كانت هناك قرصات وصفعات وركلات وضربات، رغم أني الآن لا أستطيع تذكر ماذا كانت تقتص منه كل هذه الأفعال. بالنسبة لي كانت هذه الأفعال مصحوبة بالدهشة، بالخوف، وبشعور استمر متجاوزا ألم الصدمة، ليكويني من الداخل إلى الخارج. فهمت أن أمي أحيانا كانت موجودة وأحيانا لا، لكن هذا لم يكن أمرا جيدا ولا سيئا، وهكذا ستكون حياتنا. كان وجودنا معا أو فراقنا مستقلين عن الاحتياج والسعادة.

مرت أوقات كنت أختبئ فيها. أحيانا لأيام كاملة. كان يمكنني أن أكون غير مرئية، بلا صوت، بلا رائحة. وعندما كانوا يجدونني في النهاية، لم يكن هذا إلا لأني أردت أن يجدوني.

مع الوقت، أصبح باطن قدميّ صلبا. لا أذكر بالضبط كيف كان قبل ذاك، لكني أذكر أنه كان مختلفا.

في الأشرم، كان بعض الناس يبكون كأطفال مهتاجين عندما يرون بابا، بينما كان آخرون ينشجون في صمت. كانت هناك سيدة تبدو بشرتها مثل اللبن المتخثر في الشاي، وكانت تركع على ركبتيها، وترتعش عندما يمر. ثم تلمس قدميّ أمي أيضا.

لكن أغلب الناس في الأشرم كانوا هواة. هذا ما كانت كالي ماتا تحب أن تقوله عنهم. كانت تتعامل مع هذا النمط بأنف مرفوع، هؤلاء الذين يأخذون عينات من كل شيء في السوق. كانوا مستهترين في إيمانهم، مثل العشاق المتقلبين. يناقشون ترددهم علانية، أمام بابا، ويرتدون الجينز الأزرق تحت أثواب الكورتا ويقطعون أكمامهم ليشمسوا أكتافهم السمراء. أقام باعة الخضروات أكشاكا وتكاثرت مكاتب الرهونات وراء بوابة الأشرم مباشرة من أجل هؤلاء الزوار العارضين. كانوا يبيعون قمصانا بيضاء وسراويل جاهزة، بمقاسات وتفصيلات مختلفة.

وبعد ذلك كان هناك هؤلاء الذين يشمرون ملابسهم في قاعة التأمل ويرقدون بصدور عارية على الأرض، فاردين أذرعتهم وسيقانهم، رافعين حدقاتهم خلف جفونهم، مدمدمين بضحكات وصيحات هادرة.

هؤلاء هم الأشخاص الذين لن أنساهم أبدا. وبابا يصفق بيديه ضاحكا.

في الأشرم كان صوت بابا ناعما وفي نفس الوقت مدويا، وكنت دائما أشيح بنظري بعيدا عندما أسمعه. كان يتحدث عن الرغبة والمتعة – قال إنه سيعلمنا كيف نعرفهما معا. لم أفهم قط كيفية تحقيق هذا، لكن بينما كنت أجلس مراقبة جلسات التأمل كل يوم، والتي كانت تبدأ دائما في صمت وتنتهي في جنون، وجدت أن هناك حياة في كونك متفرجا بدلا من أن تكون مشاركا. كل مساء، بينما كان الأتباع ينفجرون في نغماتهم النشاز وضرباتهم، مطلقين أيّما حيوانات قد تكون حبيسة داخلهم، تاركين إياهم يهربون داخل دوامة الهرم، كنت أستجمع مشاعري المتباينة، عن أمي، عن الأشرم، عن اللحظات التي كانت تصنع يومي. كنت أضعها في طبق خلال وقت العشاء وأراقبها. وكانت ترقد هناك، عاجزة. غير راغبة في القتال. لم يكن مقدرا لها أن تفوز، ولم تكن تريد أن تحاول. كنت أنظر حولي وأسمع الأصوات الكثيرة، وأرى الأجساد الكثيرة

التي بدا أنها تصنع قالبا واحدا عملاقا، عملاق أكبر من بابا، لكنه مرآة لماهيته، مجموعة من رغبات كثيرة جدا. كنت أعرف أن هذه الرغبات موجودة، أنها كانت قوية بما يكفي للتحكم في أحوال الطقس وجلب الفيضانات كل عام، لكني لم أستطع فهم كيف كانت تمر، كيف كانت تُمرر وتوضع في الجيوب أمامي. كانت رغبات الكبار شيئا لم أفهمه بعد. ولم يكن هناك مكان لي حولها ولا مكان لي كي أذهب إليه. لذا تركت الطبق إلى جواري، مراقبة من حين لآخر محتوياته، مشاهدة إياها وهي تنمو. وذات يوم، مزجتها في طعامي وابتلعتها كلها.

إبان الوقت الذي تركنا فيه الأشرم، كان العام 1989. وكنت في السابعة من عمري.

أحيانا يمكنني الشعور بتلك الفتاة تضرب في ظهر حلقي، محاولة أن تخرج عبر أي فتحة يمكنها الخروج منها. لكني أبتلعها حتى المرة القادمة التي تريد فيها أن تولد من جديد.

كل ستة شهور، أغسل الستائر في كل غرف البيت ونعلق الملاءات على القضبان في الليل لنبقي الضوء خارجا. اعتدنا أنا وأمي أن نغسل ستائرنا في البيت، لكن علينا الآن أن نرسلها إلى منظف خاص لأن ديليب لديه ستائر معتمة أكثر سمكا وثقلا من أن تناسب غسالتنا. هل نمت من قبل في حجرة مظلمة حقا قبل أن ألتقي بديليب؟ يقول إن الأمر مختلف في الولايات المتحدة، مختلف بطريقة لن أعرفها حتى أزورها. لقد شببت في مكان هو دائما في حرب مع نفسه، معتاد على فوضاه الداخلية الخاصة. الحوائط قابلة لأن تخترقها الأصوات والروائح، حتى الضوء يبدو قادرا على التسرب من خلالها. أسأله وما السيء للغاية في هذا. يقول إنه لا شيء غير أن هذا ليس ما هو مفترض به أن يكون.

أقول له إنه مهتم أكثر من اللازم بأن يكون كل شيء معقما. ينظر في أرجاء البيت، إلى النظام الحريص الذي فرضته، ويضحك.

أهز رأسي: «لا، الأمر مختلف. أعرف أن ما لديّ هو مرض، لكن في أمريكا أنت تعتقد أنه امتياز.»

يعقد ذراعيه ويقول إنه لا فكرة لديّ حول كيف تختلف هذه الحياة عن الحياة التي شب فيها. أنظر حولي إلى تلفازنا وسريرنا وستائرنا، إلى مراكز تسوقنا وعربات طعامنا، ولا يمكنني أن أرى هذه الكيفية.

يقول: «أشكال من المحاكاة..»

أقضي معظم فترة بعد الظهر في المرسم. أقلامي الجرافيت لديها أرقام تسلسلية ولوجو موسوم على جوانبها. أسمع ديليب يسير في أرجاء البيت، ليس من وقع أقدامه لكن من الصوت الساكن الخافت الذي يصدره جسده وهو يتحرك عبر الهواء. في المرة الأولى التي رأى فيها عملي، سألني ديليب كيف أقرر أي نوع من الفن أصنعه، أو ما الذي أعمل عليه. أجبته بأني لا أفعل هذا. في الحقيقة، لم أكن قط كثيرة التفكير على نحو خاص بهذه الطريقة. يظهر العمل كما لو كان بالصدفة، وبعد ذلك يختارني.

تطرق الخادمة الباب، لتسألني ماذا ينبغي أن تطهو من أجل المساء، لكني أتجاهلها. تشاجرنا أنا وديليب ذات مرة لأنه سمعني أطلب منها أن تبتعد. قال إن هذا شيء سيفرق بيننا دائما – الأمريكان لا يتصرفون بطرق معينة. طلبت منه ألا يضفي على القشرة المهذبة لطفولته مثالية كاذبة لأن الجميع يعرفون ماذا يستطيع أن يفعل الأمريكان في الحقيقة.

أبدأ يوم عملي برسم تخطيطي من الذاكرة، شيء فضفاض وبلا قالب، انطباع عابر، لتسخين يدي. عادة ما أختار شيئا كانت لديّ صلة به – فرشاة أسنان، مفاتيح سيارتي، جزء من جسد ديليب. أحيانا أجوِّد في الأمر، وأحاول أن أكمل الموضوع، أن أعطيه سياقا – فرشاة الأسنان في فم مفتوح، مفاتيح السيارة في يد، جزء إضافي من جسد ديليب. ثم أضيف التفصيلة، حتى لو أن القالب العام مجرد إطار شاحب. أضيف النسيج بضربات قصيرة حادة – ظل، أو تظليل متقاطع، أو خصل حلزونية من الشعر الأسود.

أعرف أني انتهيت عندما أتمادى أكثر من اللازم، عندما تكون اللوحة قد ابتعدت عن موضوعها الأصلي، وتغيرت إلى حد أن تكون عملا جروتسكيا تقريبا. حيوان يتحول إلى إنسان، إنسان يتحول إلى شيء. أفعل هذا كتجهيز للعمل الحقيقي، لأُخرج الرطانة والرطرطة من

منظومتي. إنه نوع من التطهير، إذا كان التطهير يفلح فعلا. أعلم أن البكاء أحيانا يمنح شعورا طيبا، لكن ديليب يقول إن لاعبي كرة القدم في أمريكا الذين يتصادمون ببعضهم البعض طوال اليوم يكونون أكثر ميلا لضرب زوجاتهم، لذا ربما يكون الحب فقط هو ما يلد الحب.

من درج مكتبي، أُخرج رسمتي التي أنجزتها في اليوم السابق. يبدو الوجه دائما هو نفسه بالنسبة لي، رغم أن كل يوم يضيف اختلافا صغيرا آخر، مبتعدا خطوة واحدة أبعد عن الأصل. أحيانا أشعر بإغراء العودة للنظر إلى البداية، إلى الصورة الأولى. لكن هذا الإغراء جزء من العملية. لا أعود للنظر إلى الأصل إلا عندما ينتهي رسم اليوم.

أتساءل إن كنت سأقلب الأمر يوما ما، وأصنع ذلك الخطأ الصغير الذي سيحوله من رجل إلى قرد، تلك الزلة في النِسب التي تشير إلى نوع جديد تماما. أو ربما سأفعل أقل القليل، مسطحة إياه بيدي الكسولة ومحولة إياه إلى مانيكان. لكن هذه المخاوف ليست دائمة؛ مع الوقت، رأيتها تنتفخ وتنفثئ.

ثمة أيام يكون فيها الخوف من ارتكاب خطأ سببا لارتعاش يدي، وثمة أيام تبدو فيها الأخطاء كأمر صغير في ضوء كل هذه السنوات العديدة من العمل. وثمة أيام أريد فيها التوقف، عندما لا أرغب في رؤية هذا الوجه مرة أخرى أبدا.

أضع الرسمة في الدرج عندما تنتهي وأتركه ينغلق بدويٍّ وقور.

في المساء، أنا وديليب مدعوان إلى حفل، ونتناول الكوكايين لأن كل الآخرين يتناولونه. أقف في الشرفة دون الشال وأشعر بالشعر على ذراعيّ يقشعر. عندما أنظر إلى أسفل من الطابق التاسع، أريد كل من على الطريق

أن يكونوا صغارا كالنمل، لكننا لسنا مرتفعين بما يكفي لهذا وأشعر بالإحباط وبقليل من الغضب. ندردش جميعا لفترة وأشعر بالتعب من الجميع بسرعة، لكن قلبي لن يتوقف عن الدق، وأشعر بالحنين إلى الأيام التي كانت الحفلات فيها تبدو بريئة مع تناول حبوب النشوة والرقص.

يتساءل الجميع بفضول كيف يتدبر ديليب أمره كنباتي. يسألونه سؤالا واحدا كل مرة وينتظرونه كي يتأمل إجابته. تتأكد المضيفة من تمرير الأطباق الخالية من اللحم الحيواني إليه. يقول إنه يشعر أنه أفضل، وأنظف مما كان لزمن طويل.

تقول صديقة لنا إنه يبدو أصغر من قبل. يبتسم لها ويبدآن نقاشا حول نقص فيتامين ب لدى الشعب الهندي.

الفوانيس المعلقة بامتداد الشرفة تومض وتتأرجح في الريح. ينتقل النقاش من النباتية إلى صعوبة أن تكون متبعا لنظام الغذاء الحجري أو لنظام الغذاء القلوي مع الحمية الهندية، ومَن تحول بشكل كلي من الأرز الأبيض إلى الأرز البني.

أقول له ونحن في طريقنا إلى البيت: «هل لاحظت أنه عندما يغير الرجال نظامهم الغذائي يبدي الجميع احترامهم الكبير، لكن عندما تفعل النساء هذا يحاول الجميع إقناعهن بخرق النظام؟»

«لكن كون المرء نباتيا ليس مجرد نظام غذائي. إنه أمر لا يتعلق بالخيلاء الكاذبة.»

أستند برأسي على مقعد السيارة وأنظر من النافذة. «طلبت من أمي أن تأتي وتقيم معنا.»

ديليب على وشك أن يومئ برأسه، لكنه يتوقف. «تقيم معنا، أم تعيش

معنا؟»

أنظر إليه وينفتح فمي. «تقيم معنا. لبضع ليال. أسبوع بحد أقصى.»

يعود ديليب بظهره في مقعده وينظر إلى الأمام. «بالطبع.»

نمر فوق بضعة مطبات صناعية قريبة من بعضها قبل أن أقول: «أعتقد أنه، في النهاية، يجب أن تعيش أمي معنا.»

يميل ديليب إلى الأمام ويرفع صوت الموسيقى حتى لا يتمكن سائقنا من السماع. «متى؟»

«لا أعرف. لا يمكنني أن أخبرك بموعد دقيق. قريبا.»

أنسلُّ من حذائي عندما ندخل شقتنا، ويمكنني أن أشم رائحة الجلد الرخيص. أمسح قدميّ في ساقيّ بنطالي.

يتمدد زوجي على الأريكة وهو مازال يرتدي حذاءه. ننظر إلى بعضنا البعض بالرغم من كل المرايا. حولنا ثمان أرائك، ستة عشر مصباحا، أربع موائد سفرة، واثنان وثلاثون مقعدا. أرى بصمات أصابع على الزجاج لم ألاحظها بعد الظهر. وهناك أشياء أخرى لا حصر لها في الحجرة لا تظهر في الانعكاسات؛ فهي مقطوعة -إلى أنصاف وأرباع- بأشياء أخرى. الحجرة بالأمتار المربعة لا يمكنها استيعاب هذا الإسراف، هذه الوقائع الجزئية المشوشة. تبدو شقتنا مليئة أكثر من اللازم ولديّ الحافز للتخلص من شيء ما.

«هل تعتقدين أنها ينبغي أن تعيش معنا؟ لا يمكن أن تتحمل إحداكما الأخرى لأكثر من دقيقة.»

يتصلب فكي وبالكاد يمكنني أن أفتح فمي. لديّ رد لكني لست راضية به. هو يعرف أكثر من اللازم عن أمي ويمكنه استخدام ذلك ضدي.

أحيانا أتمنى لو أني لم أفضِ إليه بكل شيء. أتمنى لو كان غريبا.

«هي بحاجة إليّ.»

يومئ ويهز كتفيه. هل يعني هذا أنه موافق لكنه لا يعرف كيف يرد؟ أم أنه يسمعني، يسمع الكلمات، لكنه لا يعتقد أني أعني ما أقول؟ أن تكون عصيا على الفهم في هذه اللحظة أمر يبدو غير لطيف، على عكسه، لكن ربما ما يجب أن يقوله قد يكون أسوأ.

أريد إجابة عما يعنيه، لكني أرى أنه يريد إجابة أيضا، إجابة على سؤال نسيته بالفعل. ننتظر في صمت حتى يبدأ واحد منا، حتى ينكسر الارتباك. الكحول، الإحباط المفاجئ، يجعلنا منفعلين وأكثر كسلا من أن نكون حذرين.

يقول: «من الصعب عليّ أن أفهم علاقتك بها أحيانا. وجودك حولها ضاغط جدا بالنسبة لك. والعكس صحيح. بأمانة، أتساءل إن كنت ستجعلينها أسوأ أم أفضل حالا.»

أومئ برأسي. هو على حق. لكني أريد أن أبكي لكوني غبية، لأني أعطيته الأدوات اللازمة كي يقوم بهذا الجرح القطعي.

ألصق بطاقات فهرسة بيضاء بأسماء وأرقام الطوارئ مكتوبة بحروف كبيرة على الحائط فوق هاتف أمي. الطلاء يتقشر وبعض البطاقات تطفو في الهواء ساقطة على الأرض. أعاند. أمي تجلس على الأريكة، تراقبني. تضع يدها على مؤخرتي وتديرها في حركة خشنة دائرية.

«أنت تحملين طفلا.»

أنظر إليها. «لا لست كذلك.»

«قريبا، قريبا جدا.»

«لا أعتقد هذا. لسنا مستعدين.»

«أعرف هذا. لقد رأيته في حلم.»

تتحدث عن أحلامها كثيرا في الفترة الأخيرة. إليّ، إلى الجيران، إلى الناس في الشارع. على ما يبدو أنها نصحت الغفير بترتيب شؤونه وعلاقاته. أخذ الموضوع كتهديد ويرفض الآن أن يفتح البوابة لسيارتي عندما أزورها.

«لديك الكثير هنا بالفعل..» تقول ويدها مازالت على مؤخرتي. يبدو كأنها تحاول أن تجلوها. «وأنت حتى لم تنجبي أي أطفال بعد.»

لا أرد.

تستمر. «وأنت دائما تتبعين حمية غذائية.»

«الجميع يتبعون دائما حمية غذائية.»

تهز رأسها. «أنا لا أتبع أبدا أي حمية غذائية. وفي سنك؟ في سنك كنت آكل بسكويت (بارلي-جي) مغطى بالزبد الأبيض.»

أرتجف. لقد فعلت هذا، أغرقت البسكويت بالزبد، وأكلته ملء الطبق، مضطربة ومتعجلة، خائفة من أن تمسك بي الراهبات متلبسة في المدرسة الداخلية بعد أن اقتحمنا حجرة المؤن الخاصة بهن في منتصف الليل. يظل المذاق محرما عليّ، شيء يُبتلع بسرعة بالغة، شيء معرض لخطر وصول قوة الدعم، شيء مضى على الفور إلى مخي، والذي كان دائما غائما، محروما من الدهن، مجبرا إياي على الانجراف في الفضاء.

أمي لا تعرف. لم أخبرها قط أنه لفترة من طفولتي كنت دائما جائعة وكنت أبحث عن بعض الامتلاء منذ وقتها. لم يكن الكلام سهلا قط. ولا كان الإنصات. كان هناك عطل في مكان ما يتعلق بماهية كل واحدة منا للأخرى، وكأن واحدة منا لم تكن تحافظ على طرفها من الصفقة، على جانبها من الجسر. ربما المشكلة هي أننا نقف على نفس الجانب، متطلعتين إلى الفراغ. ربما كنا جائعتين لنفس الأشياء، وحاصل جمعنا لم يؤد إلا إلى مضاعفة هذا الإحساس. وربما هذا هو الأمر، الثقب في قلب المسألة، تشوه لا يمكننا التعافي منه أبدا.

في المطبخ، يمكنني أن أشم رائحة شيء حامض، شيء يتخمر. داخل موقد مفتوح إلى جوار الحوض يوجد جبل من اللوبيا الصفراء المشقوقة، منقوع في الماء. اللوبيا تذوب، تتحلل، بيضاء ومغطاة بالفقاعات. أسأل أمي لكم من الوقت وهي تنقع البقوليات. تدخل المطبخ ببطء وتلقي نظرة في القدر. رأسها ساكنة، لكن أفكارها تجري عبر الأيام القليلة الماضية في دوائر، والحلقة مستمرة في البقاء عصية على التمييز مع كل دورة.

أدفع القدر داخل الحوض وأفتح الصنبور إلى آخره. يخرج صوت الماء

على المعدن كأمواج متصادمة.

تميل أمي برأسها وتنظر إليّ مليا، وكأني عدت بعد سنوات كثيرة من البُعد. تقول: «تبدين مختلفة.»

الشقوق الناشئة في الأصل من شقة أخرى تتسلق الحائط، وتتنامى بتفتح تام في ركن مرسمي. ثمة أيام يكون فيها الجيران مصدر راحة وثمة أيام يبدو فيها القرب خطرا. لو أن الشقوق تمتد، أتساءل ماذا أيضا يعبر الجدران. الرطوبة، الأصوات. أحيانا، ونحن نصيح في أحدنا الآخر، أتخيل الجيران في الجانب الآخر يلصقون آذانهم على الملاط. أو ربما يجلسون على أريكتهم جنبا إلى جنب ويشاهدون الأصوات وهي تغزو حجراتهم، الأصوات التي تكاد تتخذ شكلا، وهي تبدل ثقلها.

يتطلب الأمر نضالا كي أبقى حاضرة حيثما أكون، لأن عقلي يرتحل في الزمان والمكان، ليس فقط إلى الماضي والمستقبل لكن أيضا إلى البيوت التي تحيط بنا في هذا المجمع السكني، إلى الأجساد التي تسكن هذه المدينة. عندما أرى الرسوم البيانية للسكان، تبدو البلد أشبه بكتلة من الفوضى المتصاعدة، تميل الأرقام إلى الشباب والجوعى، وأتخيلهم جميعا في الخارج مباشرة، يتسلقون فوق بعضهم البعض حتى يجدوا طريقهم عبر نافذة مفتوحة أو فتحة صغيرة أو حتى شق، ويكونون جميعا هنا معي، أو في الجوار، يتقدمون، يتعرقون، يصرخون، يثغون، يصهلون، يكونون أحيانا بحرا من البياض، وأحيانا بحرا من الألوان، وأشعر بالتهديد عند مؤخرة رأسي حتى وأنا وديليب مستمران في شجارنا حول نوع الأثاث الذي سيناسب المرسم.

في المتجر ذي الأقسام المتعددة، ننظر إلى سرير لشخص واحد وثمة لافتة

حمراء مكبرة تحمل كلمة (أوكازيون) معلقة فوق الإطار كما لو كانت ملاءة. سيصلح السرير لأمي ولن يستهلك مساحة كبيرة من الحجرة، لكن ديليب يتساءل إن كنا لن نندم في المستقبل على عدم شراء سرير أكبر. أسأله: «ولماذا سنندم عليه؟» رغم أنني يمكنني بالفعل التفكير في أسباب عديدة، ونقرر أخذ السرير الصغير حاليا، مؤجلين الندم إلى المستقبل بدلا من مواجهته فورا لأنه، في النهاية، من يعرف كم المدة التي سنعيشها في هذه الشقة. يضيف ديليب إلى هذا: ومن يعرف كم المدة التي سنحتاج فيها إلى مساحة لممارسة الفن، أو كم المدة التي سنعيشها في الهند، أو كم المدة التي سنعيشها أصلا؟ وفي الوقت الذي يرى فيه هذه الأسئلة مبهجة وهزلية، فإنها تملؤني بالغضب. نقف في طابور لندفع ثمن سريرنا الجديد، وأتخيل نفسي أعيش بعيدا عن البيت الوحيد الذي عرفته، وأموت في بلد أجنبي، حتى يسأل البائع الذي يسجل عملية شرائنا إن كان السرير من أجل طفلنا.

أقول: «لا. إنه من أجل أمي.»

«لن أكون قادرة على النوم في هذه الخزانة.» تقول أمي، وهي تنظر حولها إلى الكتب والأدراج والصناديق المكدسة بعضها فوق بعض في الركن. ألف الستائر الباهتة الرقيقة حول بعضها في عقدة وتتأرجح برقة. تطل نافذة مرسمي على حمّام سباحة لا يبدو أن أحدا في المبنى يستخدمه. يتحد الريش وأوراق الشجر المتحللة معا ليكونوا كتلة من اليابسة فوق سطح الماء، ويبدو كل شيء غير مغسول أكثر من المعتاد.

«يمكنني أن أخرج كل شيء من الحجرة.» أقول وأنا مازلت أنظر إلى الخارج.

«لا، لا. لا حاجة.»

لا تقول المزيد، لكني أحس أنها تفكر قائلة في بالها: *لن أظل هنا لوقت طويل.* لم نناقش إن كان هذا اختبارا تجريبيا لحدث وشيك أم حفل مَبيت للكبار، وأعتقد أنه قد يكون من الأفضل أن يستمر كلانا في أوهامنا المنفصلة. لكن عندما تنفتح الحقيبة القماشية التي أحضرتها معها ونكتشف أنها قد نسيت فرشاة أسنانها ودواءها وملابسها الداخلية وثوب نومها، أدرك أن واحدة منا على الأقل يجب أن تكون صافية الذهن وربما فات الأوان بالنسبة لأوهامي.

أنا وحدي في السيارة في طريق العودة إلى شقة أمي لجلب أشيائها، وأنا محبوسة مثل شريط في كاسيت، عالقة في مسألة كيف أعدها للوداع والطريقة الأفضل لفعل هذا. لأننا يجب أن نتفهم حتمية هذه النهاية بنفس القدر الذي تتفهمها به هي، رغم أن هذا قد يكون عصيا على التعبير بما أنها ستكون مازالت موجودة عندما نعود في اليوم التالي، لا تبدو ولا تتصرف بطريقة مختلفة عن اليوم السابق. هذه خسارة طويلة ومديدة، حيث ينقص جزء صغير في كل مرة. ربما، إذًا، ليس هناك من سبيل آخر غير الانتظار، الانتظار حتى لا يعود لها وجود داخل صدفتها، ويمكن للحداد أن يحدث بعد ذلك، حداد مليء بالندم لأننا لم نغلق المسألة أبدا في الواقع.

شقتها من الداخل على شفا الكارثة. تسيطر عليها محاولات فاترة تقوم بها كاشتا للتنظيف، لكنها أيضا تعرف أن ربة عملها في حال سيئة، وتأخذ حريتها عندما تستطيع. أتساءل كيف سأحب أمي عندما تكون في النهاية. كيف سأتمكن من العناية بها عندما لا تعود المرأة التي أعرفها كأمي ساكنة في جسدها؟ عندما لا يعود لديها وعي كامل بمن تكون أو من أكون، هل سيكون من الممكن لي أن أعتني بها بالطريقة التي

أفعلها الآن، أم سأكون متهاونة، بالطريقة التي نكون بها مع الأطفال الذين ليسوا أطفالنا، أو الحيوانات الخرساء، أو الصم والبكم والعمي، معتقدين أننا سنفلت بهذا؛ لأن الأخلاق شيء نمثله أمام الناس، بوجود شخص يشهد ويُقدِّر أفعالنا، وإذا لم يكن هناك خوف من ملام، ماذا ستكون جدواها؟

حمالات الصدر البالية والمرقعة موجودة في درج مع ملابسها الداخلية. أخرجها كلها.

«ماذا تفعلين؟»

ألتفت. كاشتا واقفة في المدخل، تحك فروة رأسها بإصبعها الوسطى.

«إنها ممزقة. أريد أن أتخلص منها.»

تبدل كاشتا ثقلها في وقفتها. «يمكن أن آخذها.»

كنت قد خططت للتخلص منها جميعا، مع كومة من المجلات التي أشعر بالثقة في أن أمي لن تتذكرها. لكن كاشتا تراقبني وحمالات الصدر المدعومة بالأسلاك المكشوفة في يديّ. أسلم الحمالات والسر في بئر. أتوقع أن تمر هذه المبادلة دون ملاحظة، إلا إذا بدأت أمي تشك في أن كاشتا تسرق منها. ربما ستستريح لأن هذه الأشياء البائسة التي لم تستطع التخلص منها قد ذهبت أخيرا.

أقول لكاشتا وأنا أغادر: «لا تبقيها في البيت..»

قبل أن أصل إلى البيت، يكون المزاج قد تبدل بمساعدة الغسق والويسكي. تأخذ أمي رشفات قوية من كأس بارد. حلقات من الماء المتكثف ظاهرة على سطحه كله. يتطلع ديليب إليّ عندما أدخل.

«هل ستتناولين شيئا؟» يسأل رافعا كأسه بحيث تقرع مكعبات الثلج بعضها البعض.

أهز رأسي.

غيرت أمي ملابسها مرتدية ثوبا أدرك أنه ثوبي. القماش القطني ذو النقوش المطبوعة بالخشب مشدود على جذعها الثقيل، محولا ثدييها إلى وحدة واحدة. الكُمَّان منحشران في إبطيها. تبدأ في التعرق. الأزرار التي في ظهر الثوب تمسك بالكاد في فتحاتها، وعندما أجلس إلى جوارها على الأريكة يمكنني أن أرى بقعا من اللحم بلون الكريمة لم تر الشمس قط.

«أمي، لماذا ترتدين ثوبي؟»

تنظر إليّ وبعد ذلك إلى ديليب. يغمز وتبدأ أمي في الضحك، وهي مازالت تنظر إليه. تقول: «إنه ثوبي..»

«لا. ليس كذلك. إنه لا يناسبك.»

تهز كتفيها بأفضل ما يمكنها في ضيق قيود ملابسي. «لديّ نفس الثوب.»

ينظر ديليب داخل كأسه، متجنبا أي تلاقٍ للعيون بيننا، رغم أنه يبدو أن كلتينا تراقبانه، ربما على أمل أن يقوم بدور الحَكَم. لا بد أنه يتساءل إن كان هذا سيكون حالنا قريبا، إن كانت كل أمسية ستمر هكذا. ماذا يمكن أن يتطلع إليه في كأسه؟ ربما منفذ للهروب.

أمد يدي داخل الحقيبة التي دخلت بها وأُخرج رداء منزليا. تتجاهله أمي عندما أمده لها وتلتقط مجلة من فوق منضدة القهوة بيدها الفارغة. تقر بضع صفحات دون أن تنظر إليّ، ثم تقول ساخرة: «انظرا إلى هذا..» صوتها يذبل. يميل ديليب إلى الأمام.

«علامات صغيرة، هنا وفي كل مكان. ما هذه، ساق؟»

لقد وجدت مقطعا صغيرا في النص الذي أشَرتُ عليه، شخبطة مهينة إلى حد ما لا يمكنها أن تدعها تمر. تسأل ديليب: «هل تبدو هذه حتى أشبه بالساق؟ تلك عادتها منذ الطفولة، أتعرف؟ ترسم على كل شيء. لا يمكنها أن تترك أي شيء كما هو. كانت تلك واحدة من أكبر الشكاوى منها عندما ذهبت إلى المدرسة الداخلية. أعتقد أن هذا هو السبب فعلا في أنهم طردوها. ماذا قالت تلك الراهبة؟ ابنتك تشوه أي شيء تصل يداها إليه. هل يمكنك تصديق ذلك؟ طردوها من المدرسة لأجل ذلك.»

تجد تحديقة ديليب طريقها إليّ وترتحل هابطة إلى الندبة الصغيرة على يدي. يجلو حلقه ويقول: «لديها موهبة في هذا..» مستمرا في الحديث وكأني لست موجودة. «كان هذا نداءها، فكري في هذا بتلك الطريقة.»

تلقي أمي بنفسها إلى الأمام وتضحك، وتكاد جبهتها تلمس الزجاج. يسقط الشعر أمام عينيها وهي تلتفت لتنظر إليّ. «نداؤها غريب. كانت تفعل أشياء غريبة وهي طفلة والآن كامرأة أيضا. أي نوع من الفن الغريب تصنعين؟ نفس الوجه، يوما بعد يوم. أي نوع من الأشخاص يفعل مثل هذا الشيء الغبي؟»

يبدأ ديليب: «ماما، أعتقد أننا ينبغي...»

«يجب أن أفسر عندما يسألني الناس، ولا أعرف ماذا أقول. أشعر بالخزي.»

«أهذا ما تشعرين بالخزي منه؟» أصرخ. يرتعش فمي. تلك الإنسانة، التي لم تقم قط بعمل يستحق الذكر في حياتها، تعتقد أني مصدر حرج؟

«لماذا لا تخبريني فقط بمن يكون؟ من الشخص الذي في الصورة؟»

وجهها ينكمش وعيناها مضطربتان.

أقول من خلال أسناني التي أصر عليها: «لقد أخبرتك مليون مرة، هذا الشخص هو أي شخص ترينه – وكل شخص يرى أحدهم بطريقة مختلفة. لم يعد للصورة الأصلية أي أهمية. كانت صورة شخص غريب وقد فقدتها الآن.»

تمسك أمي بجانب وجهها. تنتقل يدها إلى جبهتها وتنغلق عيناها.

يجلو ديليب حلقه وينهي ما تبقى في كأسه. يسأل: «ماما، هل أنت مستعدة للعشاء؟»

تفتح عينيها وتنظر إليه، فمها مرتسم في خط صلب، وبعد ذلك تنهض واقفة على قدميها، ببطء، مترنحة، حتى أننا للحظة لا نكون واثقين إن كانت تقف أم تقع. برباطة جأش تهز رأسها: «أريد أن أرقد لبعض الوقت.»

أراقبها وهي تغادر الحجرة، والكأس في يدها، وأشعر أني لا أستطيع التنفس. كل جزء مني يريد أن يؤذيها إيذاء جسديا، أن أمزق ملابسي من على ظهرها وأذلها. أدفن وجهي في يديّ، وعندما أشعر أخيرا أني أستطيع تحمل الضوء ألتفت إلى ديليب. هو يراقبني، مائلا إلى الأمام وكوعاه مستقران على ركبتيه. أعرف ماذا سيقول. كيف يمكن أن تعيش معنا؟ كيف يمكننا أن نترك هذه المخلوقة الشنيعة تسمم بيتنا؟

يقول: «هذه الرسومات تزعجها فعلا..»

أشعر بحاجبيّ يرتخيان. أبتلع ريقي وأحاول أن أهز كتفيّ.

يقول: «أمازلتِ تريدين الاستمرار فيها بينما تزعجها إلى هذا الحد؟»

أسمع نبضي في أذنيّ. أشبك يديّ. أنظر في حِجري. «ألم أقضِ ما يكفي

من الوقت وأنا أتخذ قرارات بناء على ما يعنُّ لها؟»

أتحرك بهدوء حول حجرة النوم، رغم أني أشعر بالجنون داخلي، حصان بري شقي، بينما يتكشف المساء أمامي وكأني أعيشه من جديد، أولاً كلماتها، وضحكتها المخبولة، وجسدها المقرف وهو ينزُّ من ثيابي. وبعد ذلك مداخلة ديليب، والتي ربما كانت أسوأ لأنها جاءت من خلفي كسكين غادر. ألم يكن هو الشخص الذي لم يرغب في أن تعيش معنا؟ ألم يقل إني اقتربت أكثر من اللازم، وأني بحاجة لمسافة ما بعيدا عن جنونها؟ والآن يعتقد أني ينبغي أن أوقف عملي لأنه يحبطها؟ لماذا ينبغي أن يكون كل شيء عنها طوال الوقت؟ أحس بجسده يضبط نفسه على الفراش وينصت لإيقاع تنفسه بينما أتخيل نفسي أتقلب وأثبت يديّ حول حلقه وهو نائم.

أنهض جالسة عندما تشق صرخة حادة صمت الحجرة. صرخة قادمة من المرسم.

أفتح الباب وأرى الشظايا اللامعة لكوب الماء الذي تركته من أجل أمي تلتقط الضوء على الأرضية، بينما تجلس هي كأنها ساحرة، متسمرة قرب نار صغيرة في صفيحة الزبالة. من أين أتت بقداحة أو أعواد كبريت؟ أشعر بديليب يأتي إلى جانبي، وسويا نشاهدها وهي تلقي الورق المجعد في اللهب، منتظرة حتى تتآكل كل واحدة قبل أن تضيف الأخرى. تعمل بطريقة منهجية ولا يبدو أنها ترانا، وبالكاد ألاحظ كومة كراساتي التي نزعت أحشاءها، وفتات الصور التي ترقد على الأرض. أجلس مشلولة، مرعوبة من الضوء في الحجرة المظلمة، من هذا المشهد بأكمله الذي لا بد أنه حلم.

في اللهيب، أبدأ في رؤية جسد، بداية تشكل إله راقص ما، ويبدأ رعب أصيل في التصاعد داخلي. تضحك أمي وتصب محتويات كوب في

الصفيحة، وتندلع النار، مندفعة إلى الخارج، متصاعدة كعمود من النور إلى السقف. أدير وجهي بينما يصفعني الدفء مثل كف مفتوح. يتقافز الورق المشتعل والمتفتت خارجا من الصفيحة في ذرات من البياض والرماد قبل أن يسقط كجمرات إلى الأرض. تحوم أمي قريبا، وطرف ثوبها مشتعل لكنها لا تلاحظ، وتجفل كلتانا عندما تضاء الأنوار ويندلق دلو من الماء فوقها وفوق اللهب.

ترمش أمي بعينيها، محترقة ومبتلة. يصير القطن شفافا مع الماء، وأرى البثور الغاضبة قرب يديها. ترتعش وتلف ذراعيها حول نفسها.

لكم من الوقت ظللتُ هنا؟ الأرضية الأكليريك التي كانت تبدو مثل الخشب قد ذابت وتحولت إلى بركة من البلاستيك المدخن. أسعل ويفتح ديليب النافذة على مصراعيها. أتطلع إليه من مكاني على الأرض. من هنا، تبدو كتفاه عريضتين متينتين.

أُلبسها ثيابا جافة، متجاهلة البثور على أصابعها. نصنع لها فراشا في حجرة المعيشة. الأريكة الجلدية أكثر زلاقة من أن تستوعب الملاءات، لكننا نبذل أقصى ما يمكننا. لا نتحدث أنا وديليب بينما نراقبها وهي تكور نفسها. نرقد صاحيين، نشاهد أشكالا تومض عبر السقف مثل سحب محمومة.

في اليوم التالي، أصطحب أمي إلى بيتها دون كلام، دون الإنصات إلى طلب ديليب باستدعاء طبيب. لا أتأثر من فكرة أنها قد تلحق أذى بنفسها. أيًا كان ما تريد أن تفعله، فلتفعله في بيتها. أرادت أن تدمر رسوماتي، وقد فعلتها – سنوات من دراسات الحياة، والاسكتشات التحضيرية، تقريبا ما يزيد على العشر سنوات، قد تبخرت بين ليلة وضحاها. كل الصور التي

كانت سجلا للحظات في حياتي، ذكرياتي، لكنها أيضا مآلي، صنع ذاتي المنفصلة عنها. ربما كان هناك شيء آخر تسعى وراءه – ربما أرادت أن يختفي هذا البيت، بيت زواجي، البيت الذي يبقيني بعيدة، المكان الوحيد الذي أشعر فيه بالأمان. ربما كانت تأمل في أن تحرق زواجي. وربما حياتي.

آثار هذه الكارثة تستغرق وقتا أطول في تدبرها. عامل دهان يكلفني ثمنا باهظا كي يغطي البقعة الرمادية في السقف، وهذا النوع من الأرضية لم يعد متاحا ويتطلب إعادة العمل من جديد بشكل كامل. طوال أسبوعين، المرسم منطقة عمل محظورة، مغطاة بالتراب، منطقة خطر مليئة بالمواد الكيماوية والفوضى. كل متعلقاتي جرى نقلها وتكدست في ركن من حجرة المعيشة. لا يغيب عنا أن أيا من هذا لم يكن ليحدث لو كنت قد أخليت الحجرة في المقام الأول.

أصحو على ضوء معتم خافت وعلى كل الصناديق مفتوحة. رسوماتي متناثرة، وورق الزبد مفضوض. بعضه في أكوام، وبعضه الآخر منفصل. ذلك الوجه غير المحمي، المكشوف للعناصر – ذلك الوجه نفسه مع اختلافات بسيطة، يكرر نفسه كلجلجة لا نهائية حول ديليب.

يقول: «قلتِ إنه لا توجد صورة..»

عيناي مازالتا على الرسومات. لم أرها مفتوحة كلها هكذا منذ فترة. بالكاد أميز ما يقول.

يقول مرة أخرى: «قلتِ إنه لا توجد صورة. قلتِ إنك قد فقدتيها.»

آخذ خطوة نحوه. في يده صورة فوتوغرافية ذات طرف مجعد. تطفو

بخفة على جلد راحته المفتوحة. أخطو إلى الوراء من جديد.

«لماذا كذبتِ؟»

فمي جاف من الليل.

«ماذا كان الداعي للكذب؟ من يكون؟»

أحاول أن أبلع ريقي.

«لن أسألك مرة أخرى. من هو؟»

أسمع نفسي أقول: «وجدتُ الصورة في أشيائها.»

«وجدتيها؟ أم أخذتيها؟»

«وجدتها.»

«أنتارا، من هو؟»

«لا أحد. لا أحد بالنسبة لي على الأقل. هو رجل عرفته أمي.» يتهدل كتفاي. «كانا عاشقين.»

1989

عرفت أن تلك الليلة مختلفة عندما دخلت أمي الحجرة التي كنت أتشاركها مع **كالي ماتا**. كانت هناك بدايات كدمات على وجهها. ولم تغلق الباب برقة.

قالت: «استيقظي...»

وضعت زجاجة ماء ومائة روبية مربوطة برباط مطاطي في حقيبة قماشية. وتحدثت إلى **كالي ماتا** بصوت منخفض.

عرفت أنهما تتحدثان عنها، عن المرأة الذهبية، المفضلة الجديدة التي ستأخذ مكان أمي، التي ستعيش الآن على الجانب الآخر من الباب المنحوت مع **بابا**. لقد قُضي الأمر. تنهدت **كالي ماتا** وهزت رأسها. «ليس هذا سببا للرحيل. هل رحلتُ؟ هل رحلت أي واحدة من الأخريات؟ كلنا نحبك. أنت واحدة منا. سيكون هناك مكان لك هنا دائما.»

ضحكت أمي وبكت في نفس الوقت. ومسحت أنفها السيال بكم ردائها الكورتا. كانت عيناها متسعتين، وفمها مشدودا.

قالت أمي: «الحقيقة أني أكره المكان هنا. وقد كرهته دوما.»

لم أرها بهذه الحالة من قبل قط. بدأت أرتعش. ضمتني **كالي ماتا** بين ذراعيها وقالت لي إنها تحبني.

غادرنا دون كلمة لأي شخص آخر. ولم يأت أحد ليشهد رحيلنا. مشينا لبعض الوقت. كان الليل مليئا برائحة وقود الديزل النفاذة وأصوات الشاحنات. كان فم أمي يتحرك وهي تكلم نفسها من منطلق التوهة والضياع. غطت شفتيها بيدها لتوقف الكلمات.

توقفت مركبة متهالكة أمامنا. كانت (تمبو تراڤيلر) وكان وجه السائق غائما. في الخلف رقد طرد ممزق، مربوط بحبل.

تساءلت أمي: «ما هذا الذي في الخلف؟» نظر السائق إليها لكنه لم يرد. «أثاث؟»

قال: «ربما. أي طريق؟»

كان يرتدي طاقية صوفية وكوفية مهترئة في ذلك الجو الحار. نبت شعر أشيب على وجهه، ومن أذنيه خرجت أجمتان. خلف نظارته، كانت عيناه مكبرتين إلى ضعف حجمهما. وفي بؤبؤيه تفتحت زهرتان زرقاوان.

قالت: «نادي بونا.»

أومأ برأسه: «نادي بونيه.»

جلست في حِجرها على المقعد المجاور له. لفت ذراعيها بإحكام حول وسطي. كانت مثانتي ممتلئة لكني لم أذكر هذا. تدلى تمثال معدني صغير للإلهة لاكشمي[28] من المرآة الخلفية المعوجة. جلست الإلهة على زهرة لوتس. كان لها أربعة أذرع. أو ستة. كانت ترتج مع اختلاجات المركبة. تنهدت أمي وتركت كتفيها يسترخيان على المقعد المكسو بقماش الفينيل. كان بمقدوري أن أشم وجبة السائق الأخيرة ولفحة من الكبريت عندما مال ليضبط الباب المجاور لأمي. تلكأ ذراعه، ضاغطا عليّ، على

28- لاكشمي هي الإلهة التي تقود المرء إلى هدفه.

ذراعيّ أمي من حولي، للحظة. «لن تتذكري هذه البلوى يوما ما. عندما تكونين أكبر سنا، ستتوقف كل هذه اللحظات عن الوجود.»

كانت الشمس بادئة في الصعود عندما وصلنا إلى النادي، وتعرف الحارس على أمي في حالتها الشعثاء وسمح لنا بالدخول. كانت أمي قد طلبت إنزالها عند النادي لأنه المكان الوحيد، بالإضافة إلى محطة القطار، الذي كان من المؤكد أن يعرفه السائق. وأيضا لأنه كان المكان الوحيد الذي يمكننا فيه أن نستخدم الهاتف. لم أدرك هذا في وقتها، لكن أمي لم تكن قد أعدت أي خطة قبل مغادرة الأشرم. لم تكن لديها أي فكرة عن أين سنذهب، ومن سيوافق على إيوائنا، وتحت أي شروط. لم تكن قد تحدثت إلى زوجها طيلة أعوام، وكانت قد أخبرت والديها بأنها لا تريد أن يكون لها أي علاقة بهما إذا كانا سيصران على أن تعطي زواجها فرصة ثانية.

طلبت مني أمي أن أنتظرها في الملعب قرب المدخل بينما ذهبت هي لتجري مكالمة. جلست عند أسفل الزلاقة المعدنية وتمددت، ناظرة إلى السماء. شاهدت طيورا تحط على الأسلاك الكهربية المتقاطعة مع الأشجار، متأرجحة جيئة وذهابا كأطفال صغار. كان الملعب خاليا ولم يكن هناك أحد آخر في الجوار. كنت أعرف أن الأطفال يحبون اللعب فيه، لكني لم أفعل ذلك قط، ولم أكن متأكدة مما ينبغي أن أفعله هناك. قررت أني أكره الملاعب، تلك البقاع المعدنية الغريبة التي لا غرض لها. بدت كراهية الملاعب شيئا جيدا، حيث منحت لشعوري بعدم الارتياح اتجاها، وثبتته في شيء يمكنني أن أراه. مازال هذا الاحتقار يساوي اللحظة التي أشعر فيها بعدم الارتياح. أتبرأ من الشيء حتى لا يمكنه أبدا أن يتبرأ مني.

عندما عادت أمي، كان الطين قد كسا ركبتيّ والقذارة تسربت تحت أظافري. أم أنها كانت كذلك من قبل؟ كان النهار أكثر سطوعا. لم يبدُ

أن أمي لاحظت. وكان بمقدوري أن أشعر بقلبها يدق في يدها عندما أمسكت بذراعي.

«لن يساعدونا.»

سألتها: «من؟»

«أبوك المقرف. أو جدتك-جدك.»

لن يساعدونا؟ لم يبدُ هذا شبيها بهم، من القليل الذي كنت أعرفه – المرأة التي كانت تضمني إلى جلدها المتغضن والرجل الذي كان يبرز طقم أسنانه العلوية الصناعي مثل درج الصراف لأن هذا كان يجعلني أضحك. وأبي. أبي، بالتأكيد كان ليساعدني.

أبي. أبي. أبي. لم أستطع تذكر أي شيء عن أبي. كنت رضيعة عندما غادرت بيته. وعلى حد علمي، هو لم يأت قط من أجلي.

كنت أحلم به أحيانا، عندما كنت في الأشرم. أحيانا كنت أتصور رجلا لم أستطع تذكر وجهه يأخذني من أمي. (هل تصورت هذا، أم زرعته أمي عندما كانت تخبرني بأني لطالما أردت أن أتركها، بأني لطالما أردت أن أجرحها؟)

كان أبي مجهولا، وأحيانا كان من الممكن إقناعي بتخيل أن هذا أفضل.

قالت أمي: «إنهم يحاولون السيطرة علينا كالطغاة، لكني لن أسمح لهم.» كانت عيناها متسعتين وحمراوين في أطرافهما، وكانت رائحة أنفاسها كالموز البائت. «سأعتني بأمرنا. أنت تثقين بي، أليس كذلك؟»

أردت أن أومئ برأسي أو أقول شيئا بدوري، لكني لم أفعل. أو ربما لم أستطع. أتساءل الآن إن كنت حتى فهمت ذلك السؤال وقتها. أثق بها فيمَ؟ ما الاختيار الذي كان أمامي، وماذا كنت أعرف غير ذلك؟

عشنا في النادي. أحيانا داخل الأسوار وأحيانا خارجها مباشرة. قابلت كلبا ضالا أسميته شمعة لأن طرف ذيله كان يشبه فتيلا محترقا. أبقيته معنا ليبعد الجرذان الكبيرة التي رأيتها تحفر داخلة وخارجة من أحواض الزهر في الجزء الأكثر عتمة من الليل.

بدأت أمي في التسول. لم أكن صغيرة بما يكفي كي أستثير التعاطف، لذا جعلتني أبقى قرب البوابة. في اليوم الأول، تعلمنا أن هناك قواعد للتسول، أن شوارع معينة تخص نساء وأطفالا معينين، وأن التعدي على مساحتهم يعد عملا من أعمال الحرب. كانت لديهم أسنان مفقودة، وترسخ التراب في شعرهم، وكانوا يتحدثون نوعا من اللغة المراتية[29] لم أسمعها من قبل قط. كانوا سريعين في استخدام أيديهم وأقدامهم، ذلك النوع من المتسولين الذين بإمكانهم المثابرة، والذين كانت أمي قد أخبرتني بألا أسمح لعيني قط أن تلتقي بعيونهم. لكن مع مرور الأيام، بدأت الاختلافات تتراجع.

أعضاء النادي الذين كانوا يعرفوننا، ويعرفون جديّ، نظروا إلينا بارتباك، غير واثقين من الطريقة التي يردون بها على توسلاتنا. بعضهم كانوا يدارون أعين أطفالهم ويستمرون في السير. وبعضهم الآخر كانوا يضحكون ويربتون على رأسي، وكأنه كان نوعا من المزاح. وكلهم مروا بنا بقليل من الكراهية بسبب ما عرفوه عن أمي وبسبب أننا كنا دليلا على أنه كم من السهل السقوط. ذات ليلة، رفعت يديها أمام وجهها وصنعت صندوقا صغيرا. أطلت داخله.

«انظري هنا في الداخل.»

29- لغة هندوأوروبية من فرع اللغات الهندوإيرانية، يستخدمها المراتيون في غرب الهند. وهي لغة رسمية في ولاية ماهاراشترا وغوا، ويتحدثها حوالي 9000000 حول العالم. تصنف اللغة كرابع أكثر اللغات استخداما في الهند. اللغة المراتية قديمة، وهي تعود إلى أكثر من 1500 سنة سابقة، وكانت معتمدة على اللغة السنسكريتية.

نظرت، لكن لم يكن هناك غير الشارع أمامنا. كان شمعة متمددا على ظهره. مرت بنا سيدة ترتدي ثوبا من الساري الأرجواني.

قالت أمي: «العالم موجود فقط إلى المدى الذي يمكنك أن تري فيه. ما هو أعلى، ما هو أسفل، لا شأن لنا به. ما قالوه لنا من قبل، لا شيء من هذا يهم.»

نظرت أمامي مباشرة، إلى ما كان موجودا في خط نظري. مؤخرات، أيادٍ، اثنان جالسان على دكة، منتظرين. قطعة خردة معدنية على جانب الطريق. فتاة تجلس في سيارة وخدها ملتصق بالنافذة. أعود بنظري إلى أمي، وأجدها تبكي.

أتذكر النوم جالسة مستندة إلى البوابة، مسترخية، والاستيقاظ ورأسي في حِجر أمي. لكني لا أتذكر كوني جائعة. كان حارس الأمن يحضر أطباقا من الطعام والماء في أوقات منتظمة. اكتشفت لاحقا أن أبي كان يتصل بمدير النادي ليأمره بإطعامي. لست واثقة كم من الوقت عشنا على هذا الحال. كنت مع أمي وكانت معي، ولم تكن هناك قواعد ولا واجبات يومية ولا جداول نتبعها. لم أكن قد استحممت، ونما العفن على لثتي. نمت مع شمعة، غافية على فرائه الأجرب، مراقبة المخلوقات التي تجز خطوطا صغيرة في شعره، مريحة يدي على البثور التي كانت أمي تسميها بالجرب. وسرعان ما بدأت أهرش مثله، وصرت أشبهه، تحولت بوجوده، وعرفت أني قد قابلت فردا من أسرتي.

ذات صباح، عندما كان الوقت مازال مبكرا بما يكفي لحارس الأمن أن ينام في مقعده علنًا، جاء أبي ليأخذنا في سيارته (الكونتيسة) البيضاء الفاتحة.

كان يبدو كما يبدو الآن، رجل تام النضج تبدأ لحيته في الظهور بعد

ساعات قليلة من حلاقتها، لكنه أكثر نحولا، وله أنف أكثر حدة. لم يكن يشبه في شيء **بابا** أو أيًا من الرجال الذين كنت قد رأيتهم في الأشرم. كانت أذناه نظيفتين ولم تكن هناك أي شعرات تخرج من منخريه.

أمسك بالباب مفتوحا. نهضت أمي ببطء وسحبت ذراعي. صعدنا إلى المقعد الخلفي وأغلقنا الباب.

لم يلتفت أبي لينظر إليّ، وأُعجبت بمؤخرة رأسه. لم يقل كلمة لأمي. فتح المذياع. وبينما كنا ننطلق بعيدا، ناديت **شمعة**، الذي نهض من المكان الذي كان مسترخيا فيه وقفز إلى الأمام، وعضلات ساقيه الخلفيتين تضغط على فرائه المدمر. طاردنا الكلب للحظة، لكنه توقف بعد ذلك ليهرش. لم يذكر أحد شيئا عن كوننا نشبه الشحاذين. ولم تكن هناك أي أسئلة عن الأشرم. في بيت جديّ، سرعان ما تعلمت، أن اسم **بابا** ممنوع. كانت جدتي في انتظارنا بإفطار ساخن على المائدة وبراد من الشاي المتصاعد منه البخار. كانت قشدة المالاي فوق اللبن وكل شيء كان مطهوا بالسمن.

أبي، بعد أن أنزلنا هنا، واقف الآن في الخلف، يحوم حول المدخل، سائق، سائس حقائب، مستعد للمغادرة بسرعة بعد أن انتهت مهمته.

كان ذراعا جدتي معقودين أمامها، وأساورها محكمة حول ساعديها اللحيمين، ومؤخرتها متمددة على الأريكة الحمراء شبه الدائرية.

قالت جدتي: «آمل أن تكون نوبة غضبك قد انتهت.» تردد صدى صوتها في الشقة. لم أعرف لمن كانت تتحدث حتى رأيت وجه أمي المتجهم.

قالت: «أنتارا، هل تتذكرين جدتك؟ تعالي هنا.»

مشيت عبر البلاط الأرقط نحوها لكني توقفت عندما وضعت وجهها

في يديها. بدأ صدرها يرتفع وينخفض وكتفاها يهتزان. التفت إلى أبي وأمي، التي وقفت في الظل. لوحت أمي بيدها، مشيرة لي كي أتقدم. وعندما التفت، لاحظت لون قدميّ، المغطاتين بالتراب والبقع، وآثار الأقدام التي تركتها خلفي. واحد من أظافر قدمي كان أسود، والجلد أسفله دامٍ.

أُخذت للاستحمام، ودعكتني خادمة لم أرها من قبل. كان شعرها معقودا فوق أم رأسها، وساريها القطني استقر عاليا على خصرها بحيث انكشف كاحلاها وسمانتاها. شممت يديها وهي تغسل وجهي وعنقي. ثوم، وفلفل حار، ورغوة صابون. ليست مختلفة كثيرا عن **كالي ماتا**. بعد ذلك، جلست عاجزة بين ساقيها بينما كانت تستخدم أصابعها لتحرث خطوطا عبر شعري، بحثا عن أي مخلوقات غريبة.

أطلت جدتي علينا. وقالت للخادمة: «بابي، بيه آماتشي بيتي هاي.»

قالت المرأة لي: «كاسا هاي[30]..» قالت جدتي: «يا حبيبتي، هذه **ڤاندانا**.»

بدأت **ڤاندانا** تعتني بي لأن أمي كانت تقضي معظم اليوم نائمة أو محبوسة في حجرة مع جدتي وجدي. كان بمقدوري سماعهم يصيحون في بعضهم البعض عبر الباب، لكن هذا كان يتوقف عندما يخرجون للغداء أو العشاء. كانت أمي مطرقة في طبقها، تمزج طعامها متظاهرة أنه لا يوجد أحد منا.

كان أبي كثيرا ما يتوقف عندنا في المساءات قبل العودة إلى بيته وأمه. وكان يجلس هو وأمي معا، أحيانا دون أن يتحدث أحدهما إلى الآخر. وفي أحيان أخرى كانا يتهامسان، بل وأحيانا يتصايحان. كنت أختبئ تحت مائدة السفرة، رغم أني كنت أكبر سنا من القيام بمثل هذه الأشياء.

30- "يا ابنتي، هذه ابنة جيدة." "كيف هذا؟"

حاولت أن أقرأ شفتيّ أبي، لكن إحدى سيقان المائدة حالت بيني وبين رؤيته.

لم يطلب منا قط أن نعود معه. أحيانا كنت أعتقد أنه ينظر إليّ بنفس النظرة التي ينظر بها إليها. ذات يوم، جاء مع رجل آخر وحقيبة أوراق مليئة بالمستندات. ألقت أمي نظرة عليها ووقّعت باسمها.

كانت لديّ أسئلة لم أسألها قط: لماذا كنا في بيت جدتي وجدي؟ هل سنعود في أي وقت ونعيش مع أبي من جديد؟ بدا لي أن الوالدين والأطفال يعيشون جميعا معا، أن الزوج والزوجة ينبغي ألا يفترقا، حتى في كرههما المشترك أحدهما للآخر.

أخذتني **ڤاندانا** إلى النادي في أوقات ما بعد الظهر لألعب. كانت تعد وجبة خفيفة تحملها في يد وتمسك بي في اليد الأخرى. في التوكتوك، علمتني التحدث بالمراتية قليلا. كانت من قرية لم نكن ندعوها إلا باسم (جاون). كانت تضحك من نطقي، وهو ما كان يجعل وجهي يحمّر خجلا ولا أرغب في المحاولة من جديد، لكن لم يخطر لي أن أعايرها عندما قالت إنها لا تستطيع القراءة ولا الكتابة. أظن أن هذا لأني لم أكن أستطيع أنا نفسي أن أفعل هذا أيضا. عقدت معها اتفاقا بأن تعلمني المزيد من المراتية وأعلمها الأبجدية الإنجليزية. لم أستمتع قط في الحقيقة بالملعب، لكن عندما كانت تعتلي الأرجوحة وتبدأ في ضرب الأرض بساقيها إلى الخلف وإلى الأمام، لتطير أعلى في الهواء، كنت أريد أن أنضم إليها.

أحيانا **ڤاندانا** كانت ترفع ثوبها الساري وراءها وتربطه بين ساقيها. كانت تجلس القرفصاء هابطة بعيدا على مؤخرتها عندما تكنس الأرض حتى أني كنت واثقة من أن مؤخرتها ستلمس الأرض. لكنها لم تلمسها قط. كان بمقدورها أن تظل على هذا الوضع لما يبدو أنه الأبد، وذات مرة حاولت أن أحسب الوقت لها، لكنها استمرت وقتا طويلا جدا حتى أني

نسيت أني كنت أراقب الساعة ولم أقم قط بقراءة دقيقة. كانت الأسنان في مقدمة فمها مفقودة، وكنت أرى الفراغات الوردية في لثتيها عندما تبتسم. كانت تُحضر فلفلا حارا أخضر طازجا معها كل يوم وتطهو لي (البوها)[31] على الإفطار.

ذات مساء شاهدت **ڤاندانا** تربط مفاتيحها بخيط عند خصرها وترتدي شبشبها خارج الباب.

قالت: «باي باي» وهي تريني لثتها الخالية من الأسنان. كان بمقدوري سماع أمي في حجرة نومها، تدندن. انتظرت كي تغلق **ڤاندانا** الباب قبل أن أخرج خلفها، وارتددت عندما التفتت وقالت: «هه، ماذا تفعلين؟»

قلت: «سآتي معك.» «تأتين معي إلى أين؟»

«إلى بيتك. لأقابل زوجك.»

مالت برأسها ونظرت إليّ: «لا يمكنك أن تأتي معي. عودي إلى الطابق العلوي. ستبحث عنك أمك.»

راقب **مورلي**، عامل المصعد، شجارنا وضحك.

قالت له **ڤاندانا** بالمراتية: «خذها إلى بيتها..»

قلت: «لا.» شعرت بشيء يتصاعد محتكا بجوانب معدتي وكتمته. «أريد أن أذهب معك. يجب أن تسمعي كلامي، أنت خادمة. أنا سيدتك.»

ظهرت أربعة خطوط على جبين **ڤاندانا** وأصبحت عيناها شقين أسودين: «أنت نكرة. أمك نفسها لا تكاد تنظر إليك.» أمسكت بي من

31- بوها أو أرز مسطح هو الأرز الذي تتم تسويته إلى رقائق مسطحة وخفيفة وجافة. يُسلق الأرز قبل التسطيح بحيث يمكن استهلاكه بقليل جدًا أو بدون طهي. تنتفخ رقائق الأرز هذه عند إضافتها إلى السائل، سواء كانت ساخنة أو باردة، لأنها تمتص الماء أو الحليب أو أي سوائل أخرى.

قفاي ودفعتني داخل المصعد. رفعت يدي وصفعتها، وردت صفعتي لي.

في الطابق العلوي، فتحت جدتي الباب لتجدني أبكي و**ڤاندانا** متجهمة، وعلى بلوزتها الأرجوانية بقع من العرق.

قالت جدتي: «ماذا حدث؟»

«حاولت أن تتبعني إلى البيت.» أسقطت **ڤاندانا** يدي ونكزتني بكوعها إلى الأمام. ظهرت أمي خلف جدتي عند الباب.

«تتبعك إلى البيت؟» نظرت أمي إليّ. استحال وجهها إلى لون الحريق. جفلتُ، متوقعة أن أُصفع من جديد، لكن بدلا من ذلك سمعت أمي تصيح في **ڤاندانا**: «ينبغي أن تكوني أكثر حذرا.»

جذبتني أمي إلى داخل البيت، لكنهما استمرتا تتصايح إحداهما في الأخرى، وأصبح من الصعب فهم كلام كلتيهما أكثر وأكثر. صفعت **ڤاندانا** جبهتها وأشارت إلى أمي. لم تأت إلى العمل مرة أخرى، وطلبت أمي من جدتي أن تبقي خادما رجلا من الآن فصاعدا.

تشاركنا أنا وأمي فراشا بعد ذلك، وكانت تدعوني إلى الخروج معها إلى الشرفة لأراقب بينما هي تدخن في الظلام. في ذلك الوقت أدركت لأول مرة كم كانت أمي جميلة. عندما كانت تنتهي من التدخين، كانت تعطيني عقب السيجارة وتعلمني كيف أنفضه بإصبعي بعيدا، إلى حركة المرور قرب المحطة.

أحيانا كنا نأخذ سيجارتها وننزل بها. كنا نمشي مارتين بالفندق المتداعي، الفندق الذي كانت تملكه وتديره جدتي، بواجهته المزخرفة ودهانه المتقشر. كانت العائلات تجلس على حصائر فوق الأرض. ذات مرة، رأينا رجلا مخمورا متمددا في نومه، يتمتم لنفسه، وتلكأنا قربه

محاولتين أن نميز ما كان يقول. كان باعة الشاي يحملون أمتعتهم بعيدا أو يغفون مستندين على أعمدة من الصلب، منتظرين وصول الحشود. بوجوه رطبة، وفكوك مشدودة، وعيون محتقنة، كانوا ينظرون إلينا في مرورنا، ونحن غائمتان في الليل الدافئ. ثمة تيار ثابت من الجرذان المنتفخة التي كانت تهرول بمحاذاة حارات المرور، تتشمم ما تبقى بعد النهار الطويل. تصاعد دخان ورائحة حشيش إلى أنفينا، بفضل مدمن حافٍ تحسس خصيتيه وهو ينظر إلى أمي. هيجرا[32] وحيد يتجول في أرجاء محطة القطار ربت على كتفها ومد يدا منقوشة بالحناء. عضت أمي على شفتيها الجافتين. لم تكن في العادة مؤمنة بالخرافات، لكن كان يقال إن الهيجرا لديهم قوى لا يمكن تفسيرها. كان يمكن مقايضة الوقاية بالمال، لكن لم يكن معنا منه شيء. أخرجت أمي إصبعا من أحمر الشفاه تصادف أن كان في ردائها الكورتا وناولته له. أخذ الهيجرا الأنبوبة، وقال كلمة مباركة واستمر في طريقه. كانت اللوحة الكبيرة التي يجلجل فوقها جدول القطارات اليومي، في هبَّة من الرموز المتبدلة، مستغلقة عليّ.

لا أستطيع تذكر ما كنت أحس به نحو أمي خلال ذلك الوقت لأن هذا الشعور كان يفتقر اسما مألوفا. في الأشرم، عشت بدونها وتقت إليها في نفس الوقت، لكن الآن ونحن معا كنت أجتاز المنعطفات الصعبة نحو الرعب، إلى شعور بأني هنا بالخطأ، أني ربما لم أكن أريدها أو أحتاجها، فقط لأعود إلى تصور كنت قد عشت به طوال حياتي؛ أن وجودي بدونها كان جحيما، بؤسا. والآن حتى، عندما أكون بدونها، عندما أريد أن أكون بدونها، عندما أعرف أن وجودها مصدر تعاستي – مازال ذلك الحنين المكتسب يتصاعد، ذلك الشوق إلى القطن الناعم الأبيض الذي تهرأ عند

32- الهيجرا أو الهجرة hijra هو رجل فسيولوجي يتقمص الهوية الجنسية الأنثوية وملابس النساء وغيرها من أدوار الجنس المؤنث. الهيجرا لها تاريخ طويل مسجل في شبه القارة الهندية، من فترة الإمبراطورية المغولية فصاعدا.

الأطراف.

لم تكن أمي بخير بعد الأشرم. لم يكن من الممكن أن ينكر أحد هذا، لكن لم يكن من الممكن لأحد أن يخبرني بمعنى هذا. ظلت عيناها على السقف، في حوار معه، عندما كانت مستيقظة، لكنها أغلب اليوم كانت نائمة. كانت تنام وكأنها لم تنم طوال سنوات.

اكتشفنا لاحقا أن هذا كان سببه أن أمي كانت تظل مستيقظة لتتصل بأبي في وقت متأخر من الليل. كان سيتزوج من جديد، كما سمعت، وكانت أمي تتصل بمقره لتسبه. وعندما كان شخص آخر يرفع السماعة، كانت أمي تقطع الخط وتتصل من جديد. أحيانا كنت أجلس في حِجرها وهي تفعل ذلك، وفي النهاية كانت تتركني أدير الرقم بينما تمسك بالسماعة على أذنها. مازلت أحفظ ذلك الرقم عن ظهر غيب، رغم أني نادرا ما اتصلت به أنا نفسي. عندما اكتشفت جدتي الأمر، جذبتني بعيدا وطلبت مني أن آتي إلى حجرتها عندما تتصرف أمي بطريقة غريبة. سألت جدتي ماذا يُعتبر غريبا.

تنهدت. «لا أدري ماذا تريد أن تفعل.»

تلقت الإجابة بعدها بيومين، عندما جاء أبي إلى الشقة وأعطى أمي مظروفا سميكا من المال. سواء فعل هذا من منطلق إحساس بالمسؤولية أم أنها وجدت طريقة لابتزازه، فهذا ما لن أعرفه أبدا، لكنها كانت المرة الأولى التي أريد فيها الذهاب مع أبي وترك أمي. راقبته، جسد طويل نحيل بشعر أجعد، التقت عيناه بعيني للحظة قصيرة عند ظل المدخل. لم يبتسم، وبدت عيناه منزعجتين عندما وقعتا عليّ.

سألت جدتي إن كنت سأذهب أنا وأمي إلى البيت الذي يخص أبي.

قالت: «لقد رحلت أمك عن ذلك البيت لوقت طويل. تتغير الأمور مع

مرور الوقت. هناك امرأة جديدة ستأتي إلى ذلك البيت الآن.»

رغم أن تلك الإجراءات لم يكن لها معنى كبير بالنسبة لي وقتها، إلا أني استطعت تمييز حقيقتين: لم يعد والداي متزوجين، ووجد أبي زوجة جديدة. بالضبط كما فعل **بابا**. تذكرت كيف طلبت **كالي ماتا** من أمي أن تبقى، كيف شرحت لها أنها جزء من العائلة. فهمت أن أمي كان يمكن أن تبقى وتكون مثل **كالي ماتا**، منبوذة ومحترمة. تساءلت إن كان هذا الخيار موجودا بالنسبة لها الآن، مع أبي، لكن عندما تذكرت وجهها يوم غادرنا الأشرم، بذلك الحزن والاستياء، عرفت أن أمي لم تكن تحب دخول الزوجات الجديدات.

بدأت أميز الفوضى بداخل أمي، بدأت أرى كم أختلف عنها. نعم، سقطت مرة أيضا، لكني كنت قادرة دائما على أن أتمالك نفسي من جديد.

سألت جدتي ما معنى الطلاق. كانت تعجز عن التعبير عندما يتعلق الأمر بهذه الأشياء، لكنها حاولت أن تشرح.

قلت: «عندما يكون الزوج والزوجة ليسا زوجا وزوجة بعد الآن، هل يعني هذا أن الأب لم يعد أبا؟»

أبقت جدتي نظرتي المحدقة عالقة لوقت طويل قبل أن تسمح لشفتيها بالانحناء في ابتسامة وقالت: «لا، لا يعني هذا.»

انتظرت أسفل شقة جديّ مع حقيبة ملابس زرقاء. كان شعري مضفرا في جديلة منتظمة مسحوبة عند بشرة وجهي أسفل السالفين. كانت جدتي قد بسطت حاجبيّ المهملين بالفازلين. وبينما كانت واقفة إلى جواري في الطابق السفلي، طلبت مني جدتي أن أكون فتاة طيبة.

قالت: «اجعليه يحبك.» بدت كلماتها أشبه بتحذير بأن لديّ فرصة واحدة فقط.

بالكاد قالت أمي وداعا.

وصل أبي في سيارته (الكونتيسة) المعتادة. كان رجلا نظيفا، وحريصا فيما يتعلق بالمال. كانت سيارته، رغم قِدمها، بلا شائبة وتحظى بصيانة جيدة. قال: «آمل أن تكوني قد حزمتِ في حقيبتك ما يكفي لأسبوع.» كنت قد حزمت كمية إضافية قليلا، الأشياء التي لم أكن أريد أن أتركها ورائي.

لا أذكر كم خطوة سرناها إلى البيت، لكني سحبت حقيبة السفر الزرقاء صاعدة وراء أبي. كان الباب أسود والمقبض قضيبا ذهبيا منحوتا على هيئة عمود في معبد محت الأيادي المتمسحة معالم نحته بمرور السنين. جرس الباب كان خافتا جدا حتى أني شعرت بالرغبة في ضغطه مرة أخرى بعد أبي، لكني وقفت وراءه وانتظرت، مندهشة عندما انفتح الباب. كانت تنتظرنا هناك، مرتدية الأساور من حفل زفافها القريب على رسغيها. أساور كبيرة جدا عليها ولا بد أنها كانت تخص جدتي. كان الزجاج في نظارتها مشقوقا وملطخا ببصمات الأصابع. لم يبدُ أن أبي قد لاحظ. خطا داخلا البيت ليحييها بينما راقبتهما من الخارج. لمست حائط البيت، مبدلة ثقلي على قدميّ حتى نظر الاثنان إليّ. جاء خادم ورفع حقيبة الملابس من يدي المشدودة.

انحنت الزوجة الجديدة وعانقتني، جاذبة وجهي في شعرها. تبسمت في غبشة الشعر الأجعد. كان خشنا وفاح برائحة زيت جوز الهند. في الردهة خلفها، استطعت أن أرى الخادمات يسترقن النظر إلى لحظتنا.

قادوني إلى حجرة كانت تشغلها في العادة جدتي. سأظل هنا لأنها

في دلهي، تزور واحدة من بناتها. كانت الحجرة رطبة وفاحت برائحة العرق والجلد، لكن لم يبدُ عليهم أنهم لاحظوا ذلك. كانت حقيبة ملابسي هناك بالفعل، مفتوحة، وكان الخادم يفصل ملابسي الداخلية في أكوام ويضعها داخل الخزانة المظلمة. ملت على قدم السرير ونظرت في وجه المروحة التي وقفت أمامي كفم مفتوح.

في الصباح، غادر أبي البيت إلى العمل بعد أن أكل موزة في قضمتين وشرب كوبا طويلا من اللبن. ضبطت المنبه كما علمتني جدتي حتى أتمكن من الاستيقاظ عندما يستيقظ. أكلت مثله وحاولت أن أقول شيئا، لكني اضطررت إلى الرقاد شاعرة بالمغص بمجرد أن غادر. بقيت في البيت لبقية النهار، مع الخدم وكلب الحراسة، الذي كان يندفع إلى البوابة نابحا لدى مرور أي سيارة أو راكب دراجة.

كنت قد أخذت أفضل ثيابي معي إلى بيتهم، أنهيت كل الطعام الذي قدمه لي الطباخ ولم أطلب طبق (شكّار روتي) الحلو في نهاية الوجبة. بعد حمّامي، حاولت أن أمشط شعري بنفسي، وأضفره، رغم أني لم أستطع أن أرى ظهري، ولم أطلب المساعدة عندما لم أستطع العثور على مفتاح السخان. لم يكن هناك صابون في الحمّام وأحرق معجون الأسنان لساني، لكني لم أنطق بكلمة حول هذا. كنت قد أصبحت واسعة الحيلة بعد الأشرم؛ كنت أعرف كيف أفعل أشياء لا يفعلها أحد آخر.

جلست عند أعلى السلم أنظر إلى أسفل معظم الأسبوع. كان السلم ينحني ملتفا مرتين وذكّرني بثعبان أمسكوا به في الأشرم. كانت رائحة الثوم تهب دائما صاعدة من المطبخ في الطابق السفلي. وكانت الأرضية من الرخام الأسود البارد، وعندما كان الخدر يتسلل إلى مؤخرتي كنت أسير رائحة غادية في الممر حتى أشعر بذهابه. كنت قد نسيت أن أحضر شبشبا للبيت معي وبقيت مرتدية جوربي طوال النهار لأدفئ قدميّ،

لكن الأرضية كانت زلقة مثلما كانت باردة، وكنت أخطو خطوات قليلة حتى وجدت مزيدا من المتعة في الانزلاق جيئة وذهابا. تخيلت أن التزلج على الجليد شيء يشبه هذا. وبمجرد أن يصبح التزلج متعبا، كنت أعود إلى الخطو، حيث كان إطار رؤيتي يتكون فقط من بسطة السلم، وحيث كنت أرى أعلى الرؤوس المندفعة بين الفينة والأخرى – الخادمات، الخادم الرجل، وأحيانا الزوجة الجديدة، التي كانت تتحرك حول المكان بسرعة، وتختفي كثيرا أغلب اليوم.

أردت أن أسعدها. كنت أرتب فراشي وأقتل الصراصير في خزانة الدواء من أجلها.

في اليوم الخامس لي في البيت، رأيت أعلى رأس الزوجة الجديدة، وذراعيها النحيلين مشدودين وهي تجر ثلاث حقائب سفر ضخمة عبر الممر. منقطعة الأنفاس، نادت للخدم، وعندئذ فقط لمحتني في مجال رؤيتها. اتسعت عيناها، وكأنها نسيت أني كنت في البيت.

قالت: «أنا وأبوكِ ذاهبان إلى أمريكا، لمدة ثلاث سنوات على الأقل. أرادني أن أخبرك.»

كان دورق الخمر البلوري الخاص بأبي، والمليء بالسكوتش ذي اللون الكهرماني، مستقرا على عربة صغيرة مستندة على الحائط خلفها. مر الضوء من خلاله وزينه كأنه تاج.

في المساء، جاء صديق أبي إلى البيت ليلتقي الزوجة الجديدة والابنة. كان اسمه العم **كوشال**، ونقل عينيه بيننا، نحن الأنثيين الموجودتين في الحجرة، مترددا بمن يبدأ التحية. استقر على الزوجة، ضاما يديه ومخبرا إياها كم هو سعيد بلقائها. ثم احتضنني بعد ذلك، وقرص خدي وطرف ذقني.

جلسنا في الصالة، وأحضر أبي السكوتش والكؤوس. كانت المائدة مغطاة بالآنية الفضية والأشياء التي لمعت كأنها جواهر. شرب الرجلان نخب أحدهما الآخر بينما شربت أنا والزوجة الجديدة شراب (البَنش) بالفواكه. بدا الكأس غريبا في يد أبي. كان رسغاه هزيلين، نحيلين، وبدا الاثنان مشدودين من ثقل الشراب.

جاءت الباكورا[33] المقلية والسمبوسك والكفتة من المطبخ. قدم الخادم صينية للعم كوشال، لكن أبي أشار إليّ وقال: «قدِّمي الطعام للجميع.»

كانت الصينية أثقل مما بدت بين يدي الخادم، وارتعشت يداي قليلا. حملتها متجهة نحو العم كوشال. ضحك وأومأ إليّ. أخذ الصينية، ووضعها على المائدة قرب شرابه وضمني في عناق آخر. فاح كتفه بالعرق والفينيك. ربت على مؤخرة رأسي وقال: «يالها من طفلة جميلة لديك!»

أدارني وأجلسني في حِجره. انزلق ذراعه حول خصري. بقيت هناك لبقية المساء، بينما كان أبي يتحدث عن خططه من أجل أمريكا، والشقة التي ينويان استئجارها، والنكات عن التأقلم مع الطقس المتطرف.

أتساءل الآن لماذا لم يخبرني أبي بأنهما سيرحلان، لماذا جعل زوجته تفعل هذا. هل كانت جدتي وأمي تعرفان أنه ذاهب؟ في كراستي، ضممت هذا إلى عدم معرفتي بتفاصيل طلاق والديّ، وعدم مناقشة زواجهما أبدا. لا بد أن كل هذا نبع من نفس الباعث. ربما، بزواجي من أمريكي، نسيت أن موضوعات معينة لا تناقَش. لكن وقتها، لم أتساءل حول أي من هذه الأشياء. كنت حزينة، لكن بدا من الصحيح ألا يخبرني أبي. بدا مقبولا أنه سيرحل.

بعد أسبوع بالضبط من وصولي جاءت جدتي لتأخذني. كان ذلك هو

33- وجبة خفيفة من المقرمشات المتبلة المقلية.

اليوم الذي أغلقت فيه كل أفكاري عن أبي في مساحة هامشية، مساحة تأخذ حيزا صغيرا، مساحة لا تستدعي أي اهتمام.

«هل ترتدين بالفعل حمالة صدرك هكذا؟»

تراقبني بيرڤــي وأنا أرتدي ملابسي. وصلت قبل أن أستعد وسمحت لنفسها بدخول حجرة نومي.

الوقت مبكر في المساء والسماء أرجوانية باهتة. ألتفت بعيدا عنها. أنا متعبة وعضلات وجهي لا يمكنها أن تخفي أفكاري.

عندما أرتدي ملابسي، ننضم إلى زوجينا في حجرة المعيشة.

زوجها مهذب عندما يقابلني، ونتعانق عناقا جانبيا بينما يربت على ظهري. يحب الويسكي أثناء مشاهدة مباريات الكريكيت، ويحمل رائحة معقم اليدين معه عندما يدخل البيت.

ننتقل إلى مائدة العشاء. كنت قد تأكدت من وجود أشياء كثيرة للأكل – فزوج بيرڤــي يحب الاختيارات المتعددة في وقت العشاء. بابدي، كانتولا، أفخاذ دجاج، كرنب. في وسط المائدة أرجل دجاج ممتلئة، متفحمة ومبخرة، جرى تتبيلها بالكزبرة والثوم والفلفل الحار. إلى جوار ديليب جبل من (داهي آلوو). يشيح بوجهه عن الطبق وعني.

نشأ زوج بيرڤــي في بونيه، وذهب إلى الكلية في بومباي وعاد لينضم إلى مشروع والده. صممت شركتهم أول مركز تسوق في المدينة، مبنى أحمر زاهٍ – لونهم المميز. والآن لديهم مراكز تسوق في كافة أنحاء الهند، جميعها بنفس العلامة التجارية، تضم بعضا من أفضل أسواق البيع بالتجزئة في البلاد. هكذا يقدم نفسه، مع قصة عن خلفيته، وأسرته،

وثروتهم الجديرة بالاحترام. يصمم المشهد الخاص بكيف يريد أن يحكم عليه الآخرون ويتذكرونه، قارعا مكعبا كبيرا من الثلج في كأسه عند نهاية كل جملة.

يوجه سؤاله إلى **ديليب** إن كنا قد لاحظنا آلية الإغلاق في سيارته. وعندما يقول **ديليب** إنه لم يلاحظ، يصر زوج **بيرڤــي** على أن ننظر بعد العشاء.

يقول: «كان بها ماسات. ماسات حقيقية، كما تعرف. لكن تبين أن هذا غير آمن بعض الشيء. لدينا سائقون كثيرون جدا.»

تكسر **بيرڤــي** رغيفها من خبز شاباتي إلى قطع صغيرة وتنثرها حول طبقها.

يقترح زوج **بيرڤــي** أن نذهب جميعا ذات ليلة في الأسبوع القادم إلى فندق جديد خمس نجوم على العشاء. يقول: «الطعام هناك ممتاز.»

أُذكره: «لقد ذهبنا إلى هناك سويا من قبل..»

يرفع كأسه لي ويمتدح الدجاج. أخبره أني لم أطبخه.

ثم يخبرني عن آخر حيازة اشتراها والده. إنها على طريق لا يبعد كثيرا عن بيت جديّ. اشترى والده قطعة أرض في منطقة صغيرة جميلة وبدأ بناء بيت حلمه. لكن جمعية من أهل المنطقة شكت من ارتفاع وحجم البناء، قائلة إنه يحجب الضوء عن البيوت الأخرى. وكان على أبيه أن يوقف البناء.

يقول: «انكسر قلب أبي.» ويترك رأسه مدلاة. تسعل **بيرڤــي**.

أقول إني آمل أن يبني في النهاية شيئا آخر يحبه.

يضحك زوج **بيرڤــي** ويناول كأسه **لديليب**، مشيرا إلى رغبته في إعادة

ملئه. يقول: «لا داعي لأن تقلقي بشأن أبي.»

أحاول أن أوضح أني كنت أتصرف بأدب فقط، أن اهتمامي بوالده إفراط في التأنق المجتمعي المكتسب، ابتسامة على الفم لا تصل إلى العينين. لكني أحس أنه لا يبالي كثيرا بشأن هذه التفاصيل، أنه يستخدمني للمضيّ قُدُما في هذه القصة.

يقول إن والده قريب من السياسيين المحليين ومجالس التصاريح. يناديه الموظفون بسيدي. رئيس الشرطة ضيف منتظم في بيتهم على العشاء. وجمعية البناء التي جرؤت على إيقافه قد أُجبرت بالفعل على دفع الثمن. لا يكشف عن العقوبة لكنه يبتسم على براعة والده، مفكرا أنها شيء يتمنى أن يتعلمه.

لا أقول أي شيء أكثر من ذلك لكني أرى أني كنت على حق، أن مداخلتي كانت مجرد مطب في الحكاية.

ينتابني شعور مفاجئ بأن الحياة قصيرة، أن بإمكاني الشعور بأن الدقائق تمر مسرعة، أنه لم يبق لديّ كثير من الوقت. أشعر بالتعب منهما، من بيرقــي وزوجها. لست متعبة بالضبط، بل شيء آخر، شيء عصبي ومهتاج. أريدهما أن يرحلا، أريدهما أن ينقشعا عن بيتي، أريد من جسديهما المتعددين أن يختفيا من مراياتي. منذ عام، تجادلنا بعد شرب كمية من الجين أكبر من اللازم وانتهت الأمسية بزوج بيرقــي مهددا بإطفاء سيجار في وجهي. وفي اليوم التالي تظاهرنا أن الأمر لم يحدث.

أتساءل ماذا سيحدث لو طلبت منهما الرحيل، ما هو خط الحبكة الجديد الذي سينشأ من ذلك؟ كيف سيردان؟ هل سينظران إلى ديليب كي يتوسط لصالحهما؟ ما الحوارات التي ستترتب على ذلك في طريق عودتهما إلى البيت بالسيارة؟ وكيف ستعاد القصة في حفلات عشاء

أخرى؟

تتصاعد ضحكة هيستيرية بداخلي، لكني أبتلعها وأبصق. ينظرون إليّ بعيون متسعة قلقة، خشية أني ربما أتقيأ، خائفين أن يروا الطعام الذي نأكله ممضوغا ومهضوما جزئيا.

بعد العشاء، يفتح الرجلان مباراة الكريكيت مرة أخرى. تتريث بيرڤـي أمام التليفزيون وتهتف عندما يحقق لاعب مضرب هندي مجموعة من مائة نقطة. تهز قبضتها وتلتفت، وعيناها على زوجها، وأرى الشيء العميق الذي يتشاركانه، الهيكل العظمي المتواري.

يصب زوج بيرڤـي لنفسه كأسا آخر من الويسكي ويربت على ذراع ديليب. «هناك مشروع آخر أريد الدخول فيه.»

يميل مقتربا من زوجي ويتحدث بصوت منخفض. يقول إنه يؤمن بأن شركات الأدوية في طريقها إلى الخروج من السوق. ثمة دراسات جديدة تبين أن كل شيء يمكن علاجه بالكركم أو، على نحو آخر، بالقنب. لقد سافر مؤخرا إلى الصين وزار معامل ينتجون فيها عش غراب طبي. «أعتقد أنه سيكون مشروعا كبيرا.»

يميل ويسألني إن كنت قد ذهبت من قبل إلى مملكة بوتان. أقول إني لم أفعل.

يقول إني لا بد أن أذهب، أن هناك أشياء غامضة تحدث هناك، معجزات تقع في الجبال، فوق خط الشجر، حيث يشح الهواء وتكون النباتات هي الأكثر صحة على وجه الأرض.

يقول إنه سيأخذنا، أنه دُعي من قبيلة من البدو الذين يعيشون هناك. رجال، أصغر من الأقزام، يرعون ثيران التبت الهائلة. لو كنا محظوظين،

سيأخذوننا عبر الجبال في رحلة بحث عن فطر؛ مخلوق ماكر يتعلق باليرقات. وما إن تصاب اليرقات بالعدوى، حتى تأكل بنهم، تتغذى على كل شيء في طريقها، مغذية الفطر، الذي يبني عشه ويختفي في الشرانق. وما يتبقى هو أكثر الفطريات مراوغة: الكورديسبس.

يبتسم لبيرفــي وينظر مرة أخرى إلى ديليب.

لقد وجد الصينيون طريقة لصنعها في المعامل، محدثين تأثيرات الارتفاع في خزانات، خالقين سوبر كورديسبس، لا يمكن أن تجد مثيلا له إلا على جبل كايلاش، لا، على القمر. يقول إننا يمكننا أن نكسب الكثير من المال معا.

تصفق بيرفــي بيديها. «ما رأيك يا ديليب؟»

يومئ ديليب برأسه ويهزها في نفس الوقت. «لست متأكدا. لا يبدو هذا نباتيا بالنسبة لي.»

يتعثر زوج بيرفــي وهو يعبر الحجرة. يميل نحوي. أشيح بوجهي بعيدا عن لفح أنفاسه. يبدأ من جديد: «هناك نوع من سمك السلمون المرقط يوجد في أمريكا، له بطن حمراء، ويعوم في المياه العميقة. عندما تصبح هذه السمكة عائلا لطفيل معين، تترك موطنها المظلم وتخرج إلى السطح. وهناك، تطفو في الشمس، ويلتقط الضوء قشورها الحمراء، جاذبا الطيور. تصبح السمكة غذاء للطيور، ويخرج الطفيل الماهر في براز الطيور على الأرض، حيث يمكنه إعادة التكاثر وبدء دورته من جديد. يمكن أن تكون الطفيلات أعظم سلاح على كوكب الأرض. عدِّلهم وراثيا وبإمكانهم أن يحولوا عائليهم إلى أجساد زومبي.»

*

تلك الليلة في الفراش، أنا هامدة. ساكنة كصخرة. يأخذ ديليب حمّاما طويلا ويسير حول الحجرة بقدمين مبتلتين. النوافذ مغلقة لإبعاد البعوض الذي سيستيقظ عند الفجر. يرقد إلى جانبي. لم نتحدث منذ أيام.

الليلة، يبدو الصمت حيا. لست واثقة إن كنت أنا من بدأته، لكنه يبدو شيئا من الممكن أن أفعله. تتدفع الشكوك بسرعة لتدفنني؛ ربما هو وأنا، لم نكن هادئين قط كما ظننت. أعتقد أننا إذا لم نستعد حوارنا، إذا لم نشر إليه من جديد أبدا، سيرحل بعيدا.

إذا لم نتحدث أبدا عن أمي، ستتوقف عن الوجود.

قد يكون الأمر نفسه صحيحا بالنسبة للصورة الصغيرة التي وجدها، والكذبة التي صاحبتها.

أنا متفائلة، وإن كنت خائفة.

لكن هناك شيء آخر يتنامى في الحجرة، في الفراش. شعور لا يمكنني أن أضع إصبعي عليه. أحاول تخيل ما يفكر فيه ديليب، ما يريد أن يقوله.

في اليوم التالي، تتصل أم ديليب. أكاد ألا أرد.

تقول: «أنا قلقة عليكما أنتما الاثنين. والآن تريدين أن تعيش أمك معكما؟ هل تعتقدين أن هذا من الحكمة؟ ألا ينبغي أن تظل في بيتها، ربما مع ممرضة مقيمة؟ أنت تقومين بعملك من البيت، ألن يجعل وجودها في البيت من ذلك صعبا؟»

بعد بضعة أيام، عندما نكون متفاهمين ويبدو الماضي في حجم لقمة

ومن الممكن تدبر أمره، أتساءل بصوت عالٍ حول ماذا كان يعني هذا الانقلاب بالنسبة لديليب، وماذا كان يعني بالنسبة لي، وفي المستقبل.. كيف سنأخذ بثأرنا ونجعل الآخر يشعر بالندم.

يظل صامتا.

أقول إن هذه الأشياء ليست واعية دائما، إن الطريقة التي نتصرف بها تتحدد بمعادلات نسقط فيها مرة بعد مرة. مهما كانت المشكلة بسيطة، ومهما كان الحل ناجعا، هناك دائما أثر، بقية من شيء قيل وأسيء فهمه.

يدعك عينيه ويقول إنه لم يكن ليتمسك أبدا بذلك النوع من العداء.

1989

أخبرتني جدتي أن أمي ثقبت أنفها مستخدمة دبوسا ثلما، ورسبت في المستوى السابع ليس مرة واحدة، بل مرتين. الذكرى الوحيدة الإيجابية التي حملتها جدتي لطفلتها كانت من الحرب في عام 1971، عندما قامت ابنتها، التي كانت مازالت صغيرة ومطيعة، بمساعدتها في لصق ورق بُنيّ على نوافذ كل حجرة لمنع الزجاج من التهشم فوقهم وهم نائمون.

أتذكر الجلوس بين ساقيّ جدتي وهي تصب الزيت على رأسي. دعكته في شعري، ممسكة بي في إحكام بركبتيها. وصل الزيت إلى رداء الشوريدار الذي ترتديه وتقاطر على الأرض. «لم تسمح لي أمك قط بأن أفعل هذا. لم تكن لتجلس ساكنة، وكانت تقول إنها تكره الرائحة. تخيلي. قلت لها، ابقيه لليلة واحدة واغسليه بعدها. لكنها لم تنصت قط. لهذا أصبح شعرها على ما هو عليه. لكنك تعرفين أمك. صعبة.»

كنت أعرف أن صمتي سيُسمع كتأكيد، لكن هذا كان وقت تحالفات غير مؤكدة بيننا جميعا.

ربما كانت جدتي هي مهندسة نفيي القصير إلى المدرسة الداخلية، لكن لا يمكن إثبات شيء. في السنين اللاحقة، سيعتاد الكبار على توجيه أصابع الاتهام إلى بعضهم البعض. قال جدي الأعلى صوتا إنه كان ضد الفكرة منذ البداية، رغم أني أذكر أنه كان من سلمني بحقيبة السفر الزرقاء

الصغيرة مرة أخرى، ذات صباح من يوليو 1989.

تكومنا في سيارته الحمراء الماروتي 800، نحن الأربعة جميعنا، وبدأنا الرحلة المنطلقة إلى بلدية بانتشجاني. عانقت السيارة سفح الجبل المنحني، وأمطرت أغلب الطريق، لتتشوش الرؤية من النافذة. في المقعد بيني وبين جدتي كان هناك ترموس وصندوق معدني به ساندوتشات. استمرت التفافات المنعطف الحاد الضيق، وبدأت أشعر بالغثيان. في الخارج، لمحت امرأة واقفة حتى ركبتيها في الطين. كانت الأرض في بانتشجاني مليئة بالمياه وعصارة النبات.

كنا بالفعل في السيارة عندما أوضحوا لي إلى أين نحن ذاهبون. تمدد الذعر بداخلي. فردت جسدي عبر المقعد. لم أعرف إن كان باستطاعتي البقاء بعيدا عن البيت طوال هذه المدة. لم أكن قد حزمت أشيائي للرحلة. عادت الفقاعات إلى مؤخرة حلقي، الفقاعات التي كنت أحس بها في الأشرم، لتخنقني، متقافزة مع السيارة. مع المطب التالي، تقيأت على نفسي.

فتح جدي النوافذ وبدأ يدندن بلحن أغنية (أمَر أكبر أنتوني). استخدمت جدتي مناديل ورقية لتنظف ثيابي. وسألتني: «أتعرفين كيف تجلدين الكتب بالورق؟» أوقفنا السيارة وشعرت بنسيم الجبل يهب عليّ. اقشعر جلدي تحت ملابسي. وشعرت بالبقعة المبتلة ذات الرائحة الكريهة وقد غدت أكثر بللا. خرجت من السيارة ووجد الطين طريقه إلى داخل حذائي. رمقتني أمي عبر نافذة المقعد الأمامي وأشاحت بوجهها بعيدا. ربتت جدتي على ظهري، وسألتني إن كان هناك المزيد في جوفي. قلت نعم، إن الفقاعات مازالت معي، تسد مؤخرة فمي. شعرت بها تحك لوزتيّ. دفعت لساني نحو حلقي، لكن الفقاعات لم تتحول. أخفضت لساني وتحسست لوزتيّ. ثم تقيأت مرة أخرى.

فتحت عينيّ على مرأى مبنى حجري وسطح منحدر مغطى جزئيا بالأشجار. نقوش البلاطات البرتغالية. أتتبع أشكال المعين الخضراء بأصابعي. وقفت جدتي مع امرأة منحنية ترتدي الأبيض.

قالت جدتي: «الأخت ماريا تريزا..» كانت تشمشم وتميل إلى الناحية اليمين على نحو خطير عندما تسير، وبدا وكأنها تخفي رأسا آخر تحت ردائها.

داخل الجدران كانت المدرسة مختلفة عما بدت عليه من الواجهة. أفسح الطوب الأحمر الطريق لفناء أسخم. ثمة قرود صغيرة كانت تتدلى من الأشجار على البُعد. وعلى طول المشي، كانت هناك أصص زرع مليئة بشجيرات جافة. لم تكن هناك أزهار في أشجار الياسمين الهندي. الفتيات في تنوراتهن الزرقاء الغامقة كن يعبرن في طوابير. كانت أحذيتهن ملمعة وضفائرهن اللامعة تتدلى مستقيمة في سيرهن.

فسرت الراهبة: «كان هناك حريق في عنابر النوم العام الماضي. تقيم الفتيات في صالة الألعاب الرياضية حتى يعاد بناء العنابر.»

وراء الأبواب البُنيَّة المزدوجة لصالة الالعاب الرياضية، امتدت أربعة صفوف من الأسرَّة والخزانات من جانب الصالة إلى الجانب الآخر. في الليل، كانت الأسرَّة تمتلئ بالفتيات في أزيائهن الموحدة الغامقة وشعورهن الملفوفة بإحكام.

قالت جدتي: «يبدو هذا لطيفا.» ولمست ملاءات الأسرَّة المنقوشة. ارتمت أمي جالسة على سرير. لم تكن قد قالت كلمة واحدة طوال أغلب اليوم، وأبقت عينيها على قدميها. كان فمها ساكنا ومشدودا.

كانت قاعة الطعام مغارة كبيرة بلا نوافذ تحت المبنى الرئيسي. كدت أتقيأ من الرائحة اللاذعة.

قالت الراهبة: «ليست معتادة على السمك كما أرى.»

بعد ساعات، أثارت السيارة الحمراء الغبار وهي تنطلق على الطريق، بعيدا عني. تخيلت أمي تلتفت وراءها، مشيرة لي كي أعدو وراءهم. عندما دعكت عينيّ وبحثت عنها، كانت قد رحلت بالفعل.

سيكون العام الذي قضيته في المدرسة الداخلية هو المرة الأخيرة التي نفترق فيها حتى أغدو أكبر سنا بكثير وأغادر بملء رغبتي، ضد رغبتها ودون اتفاق – لكننا لم نعرف ذلك وقتها، لم نكن نعرف غير الماضي فقط، عندما كانت رغبتي وموافقتي هما المعرضان للخطر. عندما عدت إلى بونيه، دخلت بيت أمي الجديد مثل الغريبة.

في المدرسة الداخلية، قررت أن أبقي ممتلكاتي خفيفة ومحدودة، مخفضة إياها إلى الأهم في حالة أني قد أحتاج إلى الرحيل. كان لا بد من إعادة التفكير في الأشياء، وترتيبها وفقا لأولويتها، وافتقرت الحياة إلى الثقل المطلوب لوضع الأساس والرسوخ، تاركة إياي مصابة بالغثيان مع ضغط التغيرات.

*

جلست فتاة نحيلة ترتدي نظارة ثنائية البؤرة على سريري بينما كنت أفرغ حقيبتي في المهجع. كان جسدي مليئا برعشة لم أستطع إخمادها. وكانت الفتاة، على العكس، مرتاحة وهانئة البال. كانت ترتدي جوربا يغطي ركبتيها ولديها ندبة صغيرة أعلى فمها.

«أنا ميني ميهرا. سريري بجوار سريرك.»

أوضحت ميني أن الحياة في (دير سانت أجاثا) مرتبة أبجديا في كل الأشياء. ستظل لامبا وميهرا إلى جوار إحداهما الأخرى طالما أن كلتيهما موجودتان في المدرسة، إلا إذا دخلت بينهما فتيات أخريات تبدأ أسماؤهن بحرف L أو حرف M. كانت في الأصل من بلدة ماهاباليشوار وتعيش في بيت مستقل مع إخوتها ووالديها. خلال العشاء، علمتني كيف أغطي السمك بالدال الأصفر لأخفي الطعم. وأوضحت لي أن الكرات البيضاوية كانت بيضا مسلوقا، والذي يمكن تقشيره وكان ألذ شيء في الطبق. بعد الغداء، كنت قد أفرغت محتويات معدتي في أصيص زهر.

مع الوقت، تعلمت بعض الأشياء وحدي. كان مسموحا لنا بالاستحمام مرتين في الأسبوع بماء فاتر، مهما كان الفصل من العام، لكن كان بمقدورنا غسل شعرنا مرة واحدة فقط. كل ستة أشهر، كانت تضاف ملاعق من زيت الخروع لمحاربة الإمساك، الذي كان يصيب الطالبات والمعلمات على السواء. علمت نفسي أن أنظف حذائي، وأعقد رباطي، وأضفر شعري، وأرتب سريري.

كان للناظرة ماريا تريزا اسم آخر منحته إياها الطالبات – كانت معروفة باسم ترور[34]، وفي يومي الثاني في سانت أجاثا عرفت السبب. بينما كانت الطالبات الأخريات يدرسن التاريخ والعلوم واللغة الإنجليزية والرياضيات، كان مقدرا لي أن أنحبس في مكتب صغير معها. خلف مكتبها الخشبي الأسود، وتحت تمثال كبير قاس للمسيح مصلوبا، كانت هناك لوحة لشابة محشور جسدها في ثوب يشبه الجورب. كانت المرأة واقفة بزاوية، سوداء البشرة. شفتاها الحمراوان تبتسمان، والشمس الداخلة

34- الرعب.

من النافذة شوشت الجانب الأيسر من وجهها. بدا الجانبان متشابهين، لكنهما ليسا متشابهين بما يكفي لأن ينتسب احدهما إلى الآخر. نظرت إلى اللوحة في يومي الأول في تلك الحجرة وأردت أن أسأل الراهبة من كانت الفتاة، لكني قررت أن أنتظر فترة، حتى يمر بعض الوقت، حتى نبني علاقة ودودة. فيما بعد، سأتمنى لو كنت قد انتهزت الفرصة في البداية.

قالت: «لست أدري كيف يمكن لفتاة أن تصبح شيئا كبيرا ثقيلا في حجمك ولا تعرف كيف تقرأ..»

انتظرت، متسائلة إن كان ينبغي أن أرد.

«تورد استماراتك اسم أمك واسم أبيك، لكنك تحملين اسم أمك. لماذا؟»

فتحت فمي لكن لساني كان مثل اللباد.

«لا يهمك. يمكنني أن أخمن الإجابة. افتحي كتابك الخاص بالحروف والقصص.»

بحثت بأصابع مرتبكة في الكومة الصغيرة ووجدت الكتاب. وقبل أن أتمكن من فتحه تماما، ضربت بيدها ظهر يدي.

«ما هذا؟»

كان الكتاب مجلدا بالورق. وكان التجليد رديئا. حاولت ميني أن تريني أسرع طريقة. في الصفحة الأولى من كتاب النصوص كانت هناك حروف، مشخبطة بالقلم الرصاص، مُشكِّلة ما كان لا بد وأنه جملة.



«هل كتبت هذا؟»



«لا.»

«أتعرفين كيف تكتبين؟ هل أنت كاذبة؟»

«لا.»

مدت يدها وقرصت خدي، لاوية الجلد بين أصابعها. شعرت بظفرها يخترقه.

«افتحي كل صفحة وامسحي كل أثر. كانت هذه الكتب جديدة أصلية عندما أُعطيت لك. وستحافظين عليها بهذا الشكل.»

بدأت في تقليب الصفحات، بسرعة لكن برفق، حتى تعرف أني احترمت الكتاب وتجليده. غادرت المكتب، تاركة الباب ينصفق وراءها. كانت مخطئة، لم تكن الكتب جديدة. بعض حواف الصفحات كانت مثنية، ومجعدة. كانت هناك شخبطات في الأركان. تساءلت كم فتاة قرأت هذا الكتاب نفسه، وجلست في هذا المكتب، قبلي. وأنا أدعك خدي الملتهب، أدركت أن هذه لا بد خربشات أطفال عمرهم أربعة أعوام. قبل بلوغ سني، كانوا جميعا يقرأون الكتب، ويحفظون جدول الضرب. فتحت صفحة بها مساحات خضراء وزرقاء، سماء وعشب. كانت قراءة الصورة سهلة. حركت إصبعي فوق الحروف السوداء التي امتدت بمحاذاة أسفل الصفحة. كان يمكن أن تقول أي شيء. في منتصف الصورة كانت هناك شجرة ذات جذع سميك عريض؛ ناعمة، لا تشبه أي شيء رأيته في بونيه. أسفل الشجرة كانت هناك فتاة تمسك كرة برتقالية في يدها. في ركن الصورة كانت هناك علامة. بدت بلا معنى. لم تقل شيئا ولم تعنِ شيئا. فقط شقت الزرقة الفاتحة نصفين. الكرة في يد الفتاة كانت مخططة. وإضافة خط زائد إليها ستمر دون ملاحظة من أحد. دفعت قلمي الرصاص في مركز الكرة وحركته إلى الحافة. والآن صار هناك خط. خط يشبه تماما ذلك الخط الضال في الركن، لكن هذا الخط الجديد وجد بيتا في الصورة وصار بإمكانه أن يسكنه دون أن يسبب مشكلة. كان من الممكن صنع خط آخر على فستان الفتاة الأصفر، حول الياقة التي انحنت

في كشكشة على شكل حرف S. أضفت طبقة إلى الكشكشة.

جذبة عنيفة لضفيرتي دفعت برأسي إلى الوراء. نظرت إلى السقف. نظرت إلى وجه الأخت ماريا تريزا. تجمع اللعاب عند جانب فمها.

«آمرك بأن تمسحي العلامات وماذا تفعلين؟» تدور بخطوة متثاقلة وترنو إلى الصفحة. «يومك الأول فقط وبالفعل مخربة؟» انتزعت القلم الرصاص من يدي وأشارت إلى الكتاب.

بدأت في المسح، لكن الخط لم يختفِ. بعكس الأزرق، تحول الأصفر إلى لون موحل، تقريبا أخضر. بهت فستان الفتاة عند الرقبة. توقفت عن المسح ووضعت يدي على المنضدة. كان العرق قد تجمع وغطاني تماما. أحنت الأخت ماريا تريزا رأسها لتنظر إلى الصورة، وبلا تحذير، غرست القلم الرصاص في ظهر كفي.

نظر كلانا إلى يدي، إلى القلم المغروس فيها، مثل الشجرة المغروسة في العشب داخل الصورة. مثل العلَم عند المدخل، حيث تركتني أمي. صرختُ، أولا من المنظر، لكني لم أشعر بشيء حتى سرى ألم لا يشبه أي شيء يمكنني تذكره صاعدا مزمجرا في ذراعي.

قامت الأخت ماريا ماتيلدا، المسؤولة عن الشؤون الطبية، باستخدام كرتين من القطن للتحقق من وجود أي جزيئات باقية في يدي. كانت رقيقة، لكنها لم تلمسني بأكثر مما كان يجب عليها. وأمرت بالانصراف بعد أن جرى تضميد يدي بالشاش.

تساءلت ميني: «ماذا حدث لك؟» قلت: «تِرور المرعبة..» محاولة ألا أبكي.

فغرت ميني فمها لتصنع حرف O نموذجيا عندما أخبرتها بالثقب

الذي في يدي. «ليس مسموحا لها أن تفعل هذا.»

فتحت وأغلقت يدي. لم أكن قد تعلمت أن أثور بعد.

في الصباح التالي، بدأت الأخت ماريا تريزا دروسي. لم تشر أي واحدة منا إلى اليوم السابق. في الأيام التي كنت فيها بطيئة، غير قادرة على مواكبة سرعتها، كانت تحفر بأظافرها في جلدي، كل مرة تستكشف بقعة جديدة. وإذا كانت هناك قذارة بي أو بعملي، كانت تهوي بمسطرة على مفاصل أصابعي أو ظهر سمانتيّ. تعلمت كلمات مثل «الخطيئة». تعلمت أن النظافة لا تتوقف على الاستحمام.

كان الحمَّام الذي نتشاركه نحن الفتيات مخنوق الضوء، حتى عندما كانت السماء في الخارج مشمسة. كانت البلاطات تحت قدميّ مبتلة، وكان بمستطاعي أن أشم رائحة الغسول والصابون ورطوبة تخللت الأبواب الخشبية لكابينات الاستحمام. كانت الهالة المحيطة بالبالوعة سوداء، ترسخت مع سنوات من القذارة التي دارت واختفت في الثقب. وقفت عارية في الكابينة. كانت ميني مرتدية ملابسها، لكن ولا واحدة منا علقت على هذا. كان الجانب الأيمن من نظارتها منحدرا ومستقرا على وجنتها، ونظرت إلى وجهها وقتا أطول قليلا لأرى إن كان معووجا.

لم أعرف لماذا دخلت ورائي. عدلتْ السطل المقلوب وفتحتْ الصنبور. ضرب الماء المعدن بعنف. راقبته وهو يرتفع ومددت يدي لأغلق الصنبور عندما وصل الماء إلى علامة المنتصف. هذا هو كل ما هو مسموح لنا، كما عرفت. نصف سطل من الماء الفاتر. لكن ميني لمست رسغي وجذبت جوربا طويلا من جيب زيها المدرسي. حدقت فيها ورمشت بعيني، متسائلة أي معجزات أخرى تمتلكها بالداخل. ضبطت الطوق المرن

للجورب حول فم الصنبور ووضعت القدم النايلون في السطل. ناظرة في وجهي، فتحت صنبور الماء الساخن إلى آخره. استمر الماء في التدفق داخل السطل بلا صوت.

«لامبا، هل أنت هنا؟»

اتسعت عيناي وسقطت معدتي في جوفي. «نعم.» كان صوتي حادا.

سمعت خطوات **تِرور المرعبة** تقترب من الكابينة. وضعت ميني إصبعها على شفتيها وخطت دون صوت داخل السطل المعدني. اضطرب الماء. واستمر الصنبور في التدفق.

سمعت أنفاس **تِرور المرعبة** تتلاحق وهي تنحني. نظرت عبر الشق الصغير أسفل باب الكابينة، لترى قدميّ وأسفل السطل. طرقعت ركبتاها وهي تستقيم واقفة.

قالت: «لا تتباطئي وكأن الوقت لك وحدك.»

أنصتُ بينما كانت خطواتها تختفي في الممر.

وقفنا أنا وميني وقتا أطول قليلا، وأنا مازلت عارية، وهي في زيها المدرسي، مغمورة إلى ركبتيها في ماء استحمامي.

ذات ليلة رقدت في سريري، محدقة في السقف المظلم. وراء هذه الحجرة كانت السماء المزبدة.

قلت: «ميني، يجب أن أذهب للتبول.»

تمتمت: «فلتذهبي، هيا.»

كانت مسيرة طويلة عبر الطرقة غير المضاءة، مرورا بصوت الأشجار المسكونة، والحيوانات المولولة، والبرد.

«ميني، تعالي معي.»

أدارت ميني رأسها بعيدا، مغمغمة.

رقدت من جديد. كانت أصابع يديّ وقدميّ متجمدة، لكن عرقا ما سال متدفقا على جسدي. ضممت ساقيّ وشعرت بالضغط عبر جوفي. لو أغمضت عينيّ بقوة، يمكنني تقريبا أن أرى السماء تشتعل بالضوء بينما الليل يزداد ظلمة، ضوء متدفق كالحليب. كانت السماء تومض. شعرت بوجهي يرتخي، وفمي ينفتح وأتنهد.

استيقظت في الصباح التالي على وخزة حادة في جانبي. كان ضوء الصباح، دون أي مرشح، يدفئ وجهي. فتحت عينيّ لأرى ذقنا قوية وفكا ثقيلا يطلان عليّ.

«أيتها الهندوسية الصغيرة القذرة. انظري إلى الفوضى التي صنعتيها.» كنت راقدة في وسط سريري المبتل.

ذلك الصباح، وقفت عند باب صالة الألعاب الرياضية، رافعة الملاءات الملطخة فوق رأسي. اشتعلت مفاصل أصابعي وتقت إلى أن ألعقها. غاضت الدماء من ذراعيّ. ارتعش جسدي. مرت بي زميلات فصلي، مندفعات إلى دروسهن الأولى، يكتمن قهقهاتهن. لم يعرفنني بعد، هؤلاء الفتيات. رغم أني عشت وسطهن لشهور، إلا أني كنت أقضي أيامي معزولة. كن يعرفن أني مختلفة، بطيئة.

لم تكن العقوبات شرا كلها. أحيانا كانت هي الطريقة التي نعقد بها

الصداقات. كنا نقارن الكدمات الحمراء على أصابعنا ومعاصمنا. كانت تلك خواتمنا وأساورنا. أما ظهور الأيادي والسمانات فكانت تميل إلى كدمات أغمق. كانت تلك هي نقوش حِنَّائنا. في كل أسبوع كانت الفتاة ذات النقوش الأغمق هي العروس. كنا نقيم لها احتفالا ونقول إنها ستكون مفضلة لدى حماتها. أما الفتاة ذات الخواتم والأساور الأكثر فكانت ملكتنا. كنا ننحني لها او نقبل يدها عندما نمر بها ونطيع أوامرها كما هو مطلوب.

كانت أيام الآحاد تُقضى في القداس. كنت أحرك فمي مع كلمات الترانيم، لكن في عقلي كنت أردد صلوات أخرى. يسوع، شاحبا في تمثال من الجص، كان ينظر إليّ من علٍ من المذبح. كنت أتحدث إلى آلهة أخرى، الآلهة التي أرتني جدتي إياها في البيت، لكن باللغة الهندية حتى يمكن لهم أن يفهموا.

تعلمت أن أرسم بشكل جيد جدا، بشكل جميل جدا، حتى أن تِرور المرعبة لم يعد بمقدورها أن ترى أثري. تعلمت القراءة، والكتابة، وأسماء الكواكب وضرب الكسور.

في بعض الليالي، كنت أجلس القرفصاء في ركن من صالة الألعاب الرياضية وأتبول على الأرضية مباشرة. كان البول يتناثر على قدميّ الحافيتين، لكنني دربت نفسي على عدم التفكير في هذا. سرعان ما لاحظت الراهبات البرك وبدأن مراقبة صالة الألعاب الرياضية في منتصف الليل، مقتحمات إياها وخارجات منها كأشباح في أثوابهن الليلية البيضاء. في هذه الحالات، علمت نفسي أن أرفع كعبي بين ساقي وأدفعه عميقا في حوضي.

تعلمت كيف أنظم جسدي. عدد المرات التي يمكنني فيها الاستحمام يحدد المقدار الذي يمكنني أن أتعرقه. عدد المرات التي يمكنني التبول

فيها يحدد كمية الماء التي يمكنني أن أشربها. كان جزء مني مختوما. قليل ما كان يدخل وقليل ما كان يخرج.

سألتني ميني: «ما خطبك؟»

هززت رأسي، لكن إحساسا مقبضا بدأ يسحبني إلى أسفل. بدأت قاعة الطعام تغيم. انزلقت ساقاي واحتك ظهرهما بالمقعد. وأصبحت الحجرة سوداء.

أفقت لأجد أنفي مضغوطة على الأرض. كانت هناك عشرات من الأحذية السوداء اللامعة إلى أقصى مدى يمكنني أن أراه. تمتمات وضحكات. هبطت يد باردة على جبهتي. تتبعتها صاعدة الرسغ المليء بالعروق ونظرت في وجه الراهبة فوقي.

«اتصلوا بالممرضة.»

بدأت الممرضة البروتوكول الخاص بفحص درجة حرارتي، لكن لدى مرأى بولي الأحمر الناري صرخت طالبة الناظرة.

قالت: «عدوى..»

أُدخلت المستشفى المحلي، حيث كتب لي الطبيب الريفي مضادا حيويا قويا. طوال ثلاثة أيام، ظللت في حجرة المستشفى الزرقاء. التهبت أنفي من رائحة البوتاس وكرات النفتالين التي استقرت فوق البالوعات.

جرى الاتصال بأمي وجدي. وصلا وجلبا روائح بونيه معهما. هز جدي رأسه عندما رآني. وبكت أمي.

قالت: «سنأخذها إلى البيت..»

عندما أُخرجت من المستشفى عدت إلى المدرسة فقط لأجمع متعلقاتي. حقيبة سفر زرقاء صغيرة. بعض الرسومات التي قمت بها. علقتها في حجرة في شقة جدي وجدتي، حجرة سأتشاركها مع أمي.

لم يسألني أحد قط عمّا حدث، لماذا فقدت كل هذا الوزن وبعضا من شعري، أو لماذا لديّ ندبة مستديرة على جانبيّ يدي اليسرى. استمرت الحياة وكأن شيئا لم يتغير. ربما، بمعنى ما، كان هذا صحيحا. استمررنا جميعا نعيش في عوالم منفصلة.

أنفقت جدتي مقدارا كبيرا من الوقت وهي تحاول إقناعي بالأكل. وعندما أخبرتها أني لست جائعة، قالت إنها ستتصل بأحدهم ليأخذني بعيدا. طبيب، شرطي، بعبع. رجل ما. دائما رجل ما.

كانت اللحظة غير ملائمة – شعرت أني أكبر عمرا من هذا، كبيرة بما يكفي لمعرفة أن هناك شيئا مصطنعا في بنية تحذيرها. وأكثر من أي شيء، كنت أشعر بالفضول تجاه تفاصيل العقوبة التي ينبغي أن أتوقعها، تفاصيل الألم أو الإذلال. يأخذني بعيدا ويفعل ماذا، أردت أن أسأل. من جانبي، كان بمقدوري أن أرى ما وراء أفق تهديداتها، حتى الجانب الآخر – لقد زرت المكان هناك، هذا المكان الذي اكتفت فقط بالتلميح إليه، لكني شعرت أن حقيقة هذا العالم ترعبها. لذا أكلت طعامي، وتركتها تصدق أني كنت خائفة.



هناك حوادث تقع يوميا تقريبا مع أمي الآن.

لا تعرف من الذي نقع اللوبيا. ومع ذلك، كل صباح، هي موجودة. لماذا هي موجودة؟ أحيانا تتذكر نقعها لكنها لا تتذكر من أجل ماذا. فطيرة التشيلا؟ طبق من الدال؟

يحدث نفس الشيء مع الملابس في سلة الغسيل. تتساءل إن كانت امرأة ما تعيش في بيتها، وتستخدم أشياءها. من تكون هذه المرأة الأخرى؟ هل هي واحدة أم عدة نساء؟ تدفع للخادمة مرتبها مرتين في أول الشهر. تبتهج الخادمة على غير العادة حتى أصحح الخطأ.

لا أذكر هذا لديليب. كلما ذكرتها أقل، كلما كان هذا أفضل. فمرض أمي، كما هو دون زيادة ولا نقصان، يحوم فوقنا في الليل. لم تعد الأشياء كما كانت في البيت. فهو يغلق الباب بالمزلاج عندما يدخل الحمَّام، ويأتي إلى الفراش عندما يكون متأكدا أني نائمة، وأرتجف إذا فكرت وقتا أطول من اللازم في هشاشة ما لدينا.

أذهب لزيارة طبيب أمي. لقد حلق شعره ولا يرتدي خاتم زواجه اليوم.

أسأله إن كان قد قضى عيد ديوالي[35] مبهجا. ويقول إنه كان مبهجا.

أحكي له عن اللوبيا.

ويقول لي إنه سينظر في أمر جرعة أمي من الدواء.

35- ديوالي أو ديفالي هو عيد ديني للهندوس والسيخ يحتفل به في فصل الخريف ومعناه عيد الأنوار.

أقول له إن أمي تعيش وحدها مرة أخرى. «وقعت حادثة.»

«أي نوع من الحوادث؟»

«أشعلت نارا مستخدمة أشياءنا، غمستها في الكحول. دُمرت الحجرة كلها. وقد أحرقت يدها. كان الأمر مرعبا. بدت كما لو كانت ممسوسة.»

يومئ برأسه. «هذا يبدو مرعبا، لكن مع الاحتياطات المناسبة أنا واثق أنه يمكن تجنب هذا في المستقبل.»

أتحرك متأرجحة إلى الخلف وإلى الأمام. «حاليا، لا يمكنها العيش معي.»

يقول الطبيب إن هذا مؤسف بالنسبة لأمي، لكن قد يكون هو الأفضل بالنسبة لي على المدى الطويل.

«بالنسبة لي؟»

يقول إني وأمي قد تشاركنا دائما نسخة ما من واقعنا الموضوعي. وبدوني، قد تتفكك روابطها بهذا، محزن، لكن حقيقي – لكن على الجانب الآخر، كمقدمة للرعاية، قد يكون البُعد جيدا بالنسبة لي. الأمر صعب عندما يبدأ كل شيء في التلاشي.

يقول إن الذاكرة عمل دائر. ودائما ما يعاد بناؤها.

أقول: «ربما ستتذكر أشياء من الماضي، أشياء نسيناها جميعا.»

«لن تعرفي أبدا إن كانت الذكرى حقيقية أم متخيلة. لم تعد أمك موثوقا بها.»

نراجع المراحل المتأخرة من هذا معا، هو خبير في الطب وأنا خبيرة في البحث عن النظريات.

هلوسات، العيش في الماضي، إحساس عفا عليه الزمن بالذات، شعور عميق بالعزلة. يُرى الحاضر على ما هو عليه، نقطة تنزلق من الغربال.

يومئ إليّ ويقول إني ضليعة جدا. أشكره لكني أشعر بالوهن داخلي.

يطلب مني أن أستمر في الحديث إليها، أن أساعدها على التقليب في ذهنها. قد تساعد الكتابة أيضا. فهي تنشط مراكز مختلفة في المخ. قد تبقى المشاعر، لكن في النهاية ستخبو. سأفقدها على دفعات. وفي النهاية، ستكون بيتا انتقلت منه، لا يضم شيئا مألوفا لي.

أبدأ في الحديث: «لقد قرأت أن هذا المرض سببه مقاومة الإنسولين في المخ. كأنه نوع آخر من مرض السكري.»

«لا يوجد ما يكفي من الدلائل لدعم ذلك.»

«لقد رأيت أيضا بعض الدراسات التي تربط الصحة المعرفية بمشاكل في الأمعاء.»

يميل مبتعدا عني، كما لو أنه يشم شيئا مزعجا. ربما ذكري للأمعاء كحاوية لإجابة عن سؤالنا، تدنيس للعقيدة التي يحملها باعتزاز. تأفف المثقفون الفرنسيون عندما أشار باتاي إلى إمكانية العثور على التنوير في الخراء، أو الرب في عاهرة، ومن المحتمل أن أطباء الأعصاب الآن يفضلون الاحتفاظ بالحاجز الذي يفصل مجالهم عن بقية الجسد، قداسة حاجز الدم في الدماغ، لأنه لا يمكن أن تكون هناك صلة للغائط بالأسرار التي يبحثون فيها.

في البيت أضيء الأنوار وتمرق ذبابة إلى جوار وجهي. تجوب حدود قفصها، مصطدمة بالمرايا ومنضغطة على النوافذ، متذوقة الأسطح بقدميها. أراقبها تطير في دوائر وأتساءل كم ساعة لبثتها هنا. لقد رسمت

خريطة هذا المكان إلى الآن، وخلقت إحداثياته في عقلها. تعرف أبعد مسافة يمكنها أن تصلها، الأريكة، رف الكتب، مقبض الباب. أفتح باب الشرفة قليلا وأقف جانبا. أنتظر كي ترحل الذبابة، كي تلتقط رائحة من الخارج، نسيما مألوفا. لكنها لا تفعل. تستمر في العبور من جانب من الحجرة إلى جانب آخر.

أعود إلى الأريكة، رافعة قدميّ على مسند الذراع. ربما تحب المكان هنا، بيت جديد. تطن حول رأسي، محبطة. محبوسة.

مرة أخرى، تمر الذبابة قرب الباب، الموارب كما هو. أراقبها وأتساءل إن كان بإمكانها أن ترى الباب أصلا، أو إن كانت الخريطة التي رسمتها لهذه الحقبة في حياتها القصيرة خريطة دائمة حتى أن العالم الخارجي يتوقف عن الوجود بالنسبة لها. إنها عمياء عن طريق الخروج. كل ما تعرفه، بينما تضرب بجسدها المرآة، مصطدمة بانعكاسها ذاته، أن هناك شيئا ما مفقودا، شيئا ما خاطئا.

تترك أمي البيت في منتصف الليل. تصحو، تستخدم المرحاض وتخرج رأسا في ثياب نومها. يجدها الغفير وهي تحاول إيقاف توكتوك. وعندما يعيدها إلى شقتها، يكون الباب مفتوحا على اتساعه.

يتصل بي على الفور. نصل أنا وديليب خلال ثلاثين دقيقة. تبدأ السماء في السطوع. يخبرني الغفير أنها قد تركت الصنبور مفتوحا في الحمَّام. أشكره وأعطيه أصغر ورقة نقدية معي مقابل عنائه.

«هل هي ليست بخير؟» يسألني قبل أن يغادر مباشرة.

أقول: «لا. هي بخير. مجرد أحلام سيئة.»

بعد أن غادر، ألتفت إلى ديليب. «هو يعرف الآن.»

يرمش ديليب بعينيه. ذراعاي يرتعشان.

أقول: «هو يعرف أنها ليست بخير. ستعرف البناية بأكملها، كل الخدم، أن امرأة عزباء تعيش بمفردها ليست بخير، وربما مجنونة. لم تعد في أمان بعد الآن.»

أقول لديليب إني باقية مع أمي حتى نجد حلا. لا يسألني كم المدة التي أتوقع أن أبقى فيها. أحاول ألا أفكر في هذا، أتجاهل التوتر في وجهي والإحساس بأن كل شيء ينهار.

أتشارك أنا وأمي سريرا، وهو الشيء الذي لم نفعله منذ ما قبل ذهابي إلى المدرسة الداخلية.

تكنس الخادمة البيت مرتين في اليوم، منحنية بشدة ومتقدمة ببطء. تدعك عينيها بيدها الخالية. تراب وشعر من كومة قرب الأريكة. تخدش شعيرات المكنسة قدميّ.

ثمة سحلية قد وجدت طريقها إلى الداخل، إما من خلال الباب الموارب دائما، أو من خلال النافذة المفتوحة في المطبخ. تزحف مقلوبة عبر السقف، ضائعة في البقع البنية. أراقبها وهي تتقدم كما لو أنها تسير على الثلج. وثمة قشرة من الجير تتدلى كأنها ورقة، تتأرجح مع المروحة الدوارة.

تنهي الخادمة الكنس وتتحرك مبتعدة. تبقى كومتها على الأرضية كعش من السلك الأسود.

أرى بقعا جديدة على السقف. يبدو أنها تزداد دكنة. تقول الخادمة:

«انكسرت ماسورة الجار في الطابق العلوي.»

أميل برأسي إلى الوراء، ماسحة خريطة الدهان المتقشر. بونيه مدينة مبهمة، لكن الكون داخل هذه الجدران مليء بثغرات كبيرة. السحلية والخادمة تحاكي إحداهما الأخرى، متلكئتين حولي. تنبض رأسي. كانت أمي تصحو كل ليلة بأحلام سيئة.

في الغسق، نستمع إلى السيارات والشاحنات، كلها تطلق أبواقها، تتقاتل عبر الطريق الرئيسي خلف بوابة المجمع السكني. يتصايح الرجال في بعضهم البعض، وأصواتهم نائية لكنها مألوفة.

أسكب الديتول على أرضية الدُّش وأتركه ليلة بأكملها. في الصباح، ألتقط لوفتي. تبدو رائحتها مثل الكحول الإيثيلي. أستخدمها حول ركبتيّ، لكشط الجلد الميت. يضرب الماء الساخن ظهري. أستمر في الدعك. بعد قليل، أتوهج بلون أحمر. أتخيل أني لو استمررت وقتا طويلا كافيا، وبقوة كافية، سأكون غيمة شفافة. ويمكنني أن أنسى وجود أي شيء في الأسفل.

يرتعش السقف كما لو كان حيا.

أحيانا أعتقد أن العلة في هذه الشقة. من السهل أن يُجن المرء هنا.

في أحيان أخرى، يكون الأمر واضحا لا لبس فيه: لقد فقدت أمي عقلها.

تخبر جدتي أنها تسمع صوت بابا. لا يقول أي شيء خارج عن المعتاد – يعلق على الطقس، ينادي باسمها. أحيانا لا يعدو الأمر نخرة أو سعالا، أو ضحكته وهي تتعالى من مكان صف السيارات بالأسفل.

تنظر حولها في البداية، واثقة من وجوده، داخلا عبر النافذة أو الباب

– يفتقدها ويعرف أين تعيش. يبدو قريبا جدا حتى أنه لا بد وأن يكون هنا. يزعجها هذا حتى تستسلم، حتى تتوقف عما تفعله وتسير في أرجاء البيت، باحثة خلف الأثاث ومزيحة الستائر. أراقبها وهي تفعل هذا، لكني أنظر بعيدا عندما تعود دون شيء.

يتغضن فم جدتي لكنها تظل صامتة. أدخل الحمّام وأبكي.

أقول لجدتي: «أعتقد أنها تهلوس بما يمثل لها أكبر جرح. توقعت شيئا مختلفا عندما غادرت الأشرم. توقعت أن يأتي وراءها، ويطلب منها أن تعود وتتخذ مكانها إلى جواره. لكن هذا لم يحدث قط.»

تقول جدتي: «كان هذا منذ زمن بعيد جدا. لا يتمسك الناس بالأشياء هكذا.»

أصحب جدتي في طريق نزولها إلى سيارتها. لقد تُركت البوابة مفتوحة. يتشارك الغفير سيجارة ملفوفة وشايا مع صديقه على الطريق. لا تبدو السيدة راو في أي مكان، لكن كلبها البومرينيان ينبح من الشرفة، دافعا رأسه عبر القضبان المعدنية. أتبادل القبلات مع جدتي. ألوح لها وهي تقود مبتعدة. لقد استقررنا داخل نموذج من التهرب. لم تبدُ جدتي قط كشخص غريب أكثر من هذا.

في المساء، تسقط أمي نائمة في الفراش وهي مازالت ترتدي شبشبها. أتصل بديليب. يتناول العشاء وحيدا، أمام التليفزيون. يخشخش صوته، وكأنه بعيد جدا.

يقول ديليب إن أصدقاءه في دبي قد انتقلوا للتو إلى مكان لطيف به حديقة وجراج لسيارتين. وعلى مبعدة خمس دقائق سيرا على الأقدام منهم يوجد شاطئ عام. يسأل إن كنت أود أن أنتقل إلى دبي يوما ما. أنصت إلى أوصافه المجردة، محاولة أن أتخيل هذه المدينة الأخرى، متعجبة كيف

يلائم الشاطئ الصحراء، كيف يتحول الهواء من الرطب إلى الجاف.

تصرخ أمي في نومها. يسأل ديليب: «ما كان هذا؟»

أقول: «لا شيء.»

تخرج أمي من حجرة النوم. شعرها منضغط على جانب وجهها. تنزلق إلى المقعد ذي الذراعين أمامي.

تهمس: «يجب أن تتوقفي...». عيناها مخضلتان.

أتنهد وأريح السماعة على رقبتي. «ماما، هذا ليس حقيقيا. هل ينبغي أن أضعك في الفراش من جديد؟»

«أعرف أنه حقيقي. يجب أن تتوقفي عن صنع هذه الرسومات.»

التليفزيون مفتوح. مذيعة أخبار من أصل عرقي عام[36] تقرأ خبرا عن هجمة إرهابية مشبوهة. أمد يدي نحو الريموت.

تقول: «هل سمعتيني؟ توقفي عن صنع هذه الرسومات المقرفة. إنها إهانة لي. إنها إهانة لزوجك. أنت تلحقين بنا الإهانة في كل يوم تفعلين فيه هذا. تلحقين بنا الإهانة كل مرة تعلقينها في معرض ما بأحد الجاليريهات.»

أضع الهاتف على الأريكة وأنهض مندفعة. قلبي يدق بعنف وركبتاي تطرقعان وأنا أعتدل واقفة. أضع يديّ على كتفيها، واحدة بعد الأخرى.

أقول: «طيب، أي شيء تريدينه. لكني أريدك أن ترقدي لبعض الوقت.»

36- عرق عام أو مفتوح open ethnicity تعبير يشير إلى الشخصيات المشاركة في البرامج التليفزيونية والأفلام والتي تقوم بأدوار هامشية غالبا ويتم اختيارها من أصول عرقية غير بيضاء تحت دعوى خلق التوازن الجندري والعرقي حتى لا يسيطر البيض على كل شيء.

يبدو عليها الهدوء وتسمح لي بمساعدتها على النهوض من المقعد. يداها باردتان بينما أدسها تحت الأغطية.

ديليب هادئ على الخط.

أقول: «إذًا، وماذا أيضا؟»

«لماذا ذكرتني؟ لماذا تكون الرسومات إهانة لزوجك؟»

أدعك عيني. يلتصق على أصابعي العماص الأبيض العالق في زاوية العين. «لا أعرف. لا أعرف ماذا أصنع بهذا.»

1993

لم يعد بمقدور أمي وجدتي أن تطيق إحداهما رؤية الأخرى أكثر من ذلك، وقررت أمي أن تستأجر شقة صغيرة ليست بعيدة عن الأشرم.

في ذلك الوقت، لم أكن متأكدة كيف كانت تدفع إيجار المكان، لكن في وقت لاحق أخبرتني جدتي أن جدي منحها النقود كي يسترد بعض السلام في حياته. كما ستأتي كالي ماتا بين الحين والحين ومعها مظاريف بها ما أشارت إليه على أنه إحسان من الأشرم.

بدأت في ارتياد مدرسة إنجليزية متوسطة في المنطقة، باستعدادي الضعيف لمواكبة بقية التلاميذ. اقترح الناظر دروسا يومية لعدة ساعات، لكن أمي ابتسمت ردا عليه. لم يكن هناك ما يكفي من المال لهذا النوع من الأشياء.

كانت المادة التي أخشاها أكثر من الباقين هي اللغة الهندية. كيف أمكن للغة سمعتها وتحدثت بها طوال الوقت أن تكون أجنبية تماما هكذا؟ في غير ذلك، كانت مهاراتي في القراءة والكتابة مقبولة، وامتدح المعلمون خطي الآلي. كان الخضوع ظاهرا في كل سطر كتبته.

قالت أمي: «مدرسة راهبات.» وبدا أن الناظر قد فهم.

الآن بما أني امتلكت الأرقام، والحروف أيضا، بدا عالم كامل ينفتح

لي. ابتسمت كالي ماتا. «القراءة تغير كل شيء.» لكن لم تكن اللغة هي ما تحمل الجاذبية، فقط الرموز التي كانت تكونها، المجردة والعشوائية، الحروف التي كنت أملؤها بمعانٍ بديلة.

بدأت أحتفظ بدفتر يوميات، لكن ليس من النوع الذي كانت تحتفظ به الفتيات الأخريات في المدرسة – لم تكن به أبواب عن قصص الحب والأولاد والأحلام والأمنيات. كان دفتري مجموعة من اللحظات من الماضي، اللحظات التي كان بمقدوري أن أتذكرها على أي حال، قائمة من الضغائن في المقام الأول. صغت شفرة هذه القائمة بعناية، ابتدعت نظاما، نظام يمكن قراءته بالترتيب الزمني وكذلك وفقا لحدة الانتهاك. كانت هناك جداول كاملة مخصصة للأخت ماريا تريزا، والعديد منها لأمي أيضا. ومُنح الآخرون قالبهم الخاص من مدخلات البيانات، المرموز لها باللون أو بالأرقام.

لم يتلق أبي هذه المعاملة. في يومياتي، لم يكن له وجود.

عقدت صداقات قليلة في المدرسة، بل وصداقات أقل في البناية. اشتد اغترابي عندما صحوت ذات صباح لأجد حاجبي الأيسر مفقودا. كانت الشعرات متناثرة على الوسادة مثل قصاصات من الخيط، قليلة الحيلة جدا لدرجة أني لم أستطع أن أصدق أنها كانت تشكل من قبل صفا منتظما على جبيني. نظرت في المرآة وجريت بإصبعي على وجهي. بدت عيني اليسرى مهزومة، ناقصة.

«ماذا فعلتِ؟» تساءلت أمي عندما رأتني.

وضعت كالي ماتا فنجانها من الشاي جانبا. تصدع ظل عينها مثل سطح طبق من الكاسترد المحلى بالكراميل. قالت: «أي حظ سيئ لديك؟»

توسلت لأمي كي تجعلني أتغيب عن المدرسة، لكنها لم تُلقِ أذنا لهذا.

قالت كالي ماتا: «إنها ليست ملحوظة للغاية، حسن، هي ملحوظة؛ لكن فقط بسبب أنك مازلت تحتفظين بالآخر.»

أبقيت رأسي مطرقة، ومشطت شعري على جانب واحد من وجهي. ملت برأسي على يدي وفضلت زوايا بعينها. في تلك الظهيرة، عدت إلى البيت مرهقة.

قالت أمي: «هذا شيء ليس جميلا، لكن لماذا ينبغي أن تخفي وجهك؟ المفترض من الفتيات الصغيرات أن يكن شجاعات.»

كانت تتحدث عن نفسها، عن صورتها الخاصة عن ذاتها. متمردة، معارضة. لكني لم أكن أشبهها في شيء. لم أكن أشعر بالشجاعة.

أثمر قلقي نوعا من الحمى وبقيت في البيت بضعة أيام، أقرأ كتب إنيد بليتون[37] وأتفحص المرآة كل ساعة. بحثت عن لمحة من سواد في مكان ما، لكن جبيني كان فارغا.

عندما تحرك الضوء على وجهي رأيت شخصين مختلفين. الفتاة التي كنتها والمخلوقة التي صرتها الآن، شيء غير بشري.

أزلت بموس أمي الحاجب الآخر.

في أقل من ثانية، تلاشى. وتناثرت البقع السوداء حول البالوعة المبتلة.

بدا الشعر أغلظ على أرضية الحمّام، وأكثر ابتلالا، وأكثر سوادا مما كان على الوسادة.

صرخت جدتي عندما رأتني.

37- إنيد ماري بليتون (1897- 1968) Enid Blyton كاتبة أطفال إنجليزية كانت مؤلفاتها من بين الكتب الأكثر مبيعا في العالم منذ 1930، وبيع منها أكثر من 600 مليون نسخة. كتب بليتون لا تزال تحظى بشعبية هائلة، وترجمت إلى ما يقرب من 90 لغة.

قالت: «كنت أعرف أن هذا سيحدث، إنه مرض ما التقطته في الدير..»

عندما قلت إني قد حلقته بنفسي، مالت أمي إلى الأمام على مائدة السفرة. كان ذراعاها شاحبين مثل فخذي دجاجة نيئين.

قالت: «حسنا، يمكنك أن تخيفي الشيطان، لكني سعيدة لأنك فعلت الشيء الصحيح.»

أصبحت مغادرة البيت شيئا مروعا. كانت العيون تتتبعني أينما ذهبت. قضيت الوقت ما بين الجدران الأربعة. كانت **كالي ماتا** فقط من تزورني بانتظام. تجلب لي الكتب، ومجموعات من بطاقات اللعب القديمة، وألعابا لم تسمع بها أو تراها مطلقا. ثم جلبت أشياء أخرى غريبة: أطقم شاي شرقية، مفاتيح قديمة، بعض الصور لي وأنا طفلة في الأشرم. وضعنا الصور الباهتة على مائدة السفرة. كانت **كالي ماتا** قد ازدادت وزنا وتميل إلى الأمام بشكل ثقيل، وقد استقر ثدياها على المائدة، منفصلين كالعجين.

كنت أعرف أن **كالي ماتا** مختلفة عني بسبب لون عينيها، وليس لاختلاف في بشرتنا. كان لعينيها ظل أرقط من الزرقة، وشكّل بؤبؤا عينيها نقطتين سوداوين بارزتين في المنتصف. كنت متأكدة أن العالم يبدو مختلفا عبر هاتين العينين، ولم أعتقد أن **كالي ماتا** يمكن أن تشهد أياما عادية سوداء.

قالت: «العالم في الخارج يتحرك إلى الأمام بدونك.»

فكرت في هذا، لكني تساءلت إن كنت أصلا أنتمي إلى هناك، مع جميع الآخرين.

ذات مرة، تسللت خارجة لأشتري سيجارة واحدة من محل على الطريق. أشفق صاحب المحل عليّ بسبب حاجبيّ وأعطاني سيجارة أخرى مجانا.

وقفت في الشرفة قبل أن تستيقظ البناية. كانت المظلات مسكونة بالحمام، مفروشة بفضلاته المكسوة بالزغب. اختبأت في ركن، وأشعلت سيجارتي.

في الناحية المقابلة، وعلى ارتفاع طابقين لأسفل، عبر نافذة مفتوحة رأيت رجلا عجوزا يخلع ملابسه في حمَّامه. ترك ملابسه تسقط على الأرض في كومة. كان نحيلا، مجرد جلد وعظم، وكان قضيبه ذابلا منكمشا إلى حجم لبة. فردت ذراعي وقست بالتقريب حجم عضوه عبر المسافة. تقريبا في حجم ظفري. استدار إلى الدش وانساب الماء كما لو كان يتدفق من خرطوم. وتدلت مؤخرته كجوالين فارغين.

تلك الليلة، رسمته كما تذكرته، ساكنا تحت الماء، وذراعاه متدليان إلى جانبيه.

يتفلت مني الوقت من اليوم الذي مات فيه بابا. وكذلك الفصل من العام، لكن هذه التفاصيل جرى توثيقها بعناية على يد أتباعه.

كان مدخل الشقة مظلما كما هو دائما، وكأننا أردنا أن يتخيل الناس الذين يجيئون إلى الباب أن نُسَّاكا تعساء يعيشون في الداخل. لا أتذكر ما كانت تقوله الرسالة الصغيرة على المائدة، لكن شخبطة أمي بدت متوترة وغير معتنى بها. بدا أن شيئا ما يزحف هابطا رقبتي، وارتعدت. هل كانت تلك هي المرة الأولى لي وحيدة في البيت؟ سرت إلى جوار المرآة المرقشة التي عُلقت إلى جوار الباب الأمامي، ولم أنظر قط مباشرة إلى انعكاسي لكنني كنت واعية بأن المرآة تراني، تضاعفني، حتى عندما أوليها ظهري. بدت البلاطات المسامية لأرضية المطبخ موحلة، كما لو أنه لم يتم مسحها ذلك اليوم، لكن عندما خطوت داخلة، شعرت أنها مازالت رطبة، بل ربما

كانت لزجة بعض الشيء من طارد الحشرات الذي كانت كاشتا تمزجه بالصابون.

وجدت كرتين من البوندي لادوز[38] في الثلاجة ووضعتهما في فمي مرة واحدة. بعد ذلك، سرت جيئة وذهابا في حجرة المعيشة الصغيرة، متوقفة فقط لآكل كل الجبن الذي يحمل على بطاقته صورة لبقرة حمراء، وكرات القشدة التي تأتي ملفوفة في الشمع، حتى قرقرت معدتي بالغازات المحبوسة.

استقر مقعد هزاز أحمر إلى جوار الهاتف الساكن. كنا نقول على المقعد أنه أحمر، بينما كان في الحقيقة بُنيا مائلا للحمرة، ولم يكن يهتز بل كان ينزلق إلى الخلف وإلى الأمام. وكان الخيزران المنسوج الذي يشكل المقعد باليا ومتهتكا، وكان يمثل قطعة الأثاث المفضلة لديّ في البيت، رغم أني لم أعد أجلس عليه قط بسبب ذكرى باهتة لانحباس إصبعي في تروسه عندما كنت صغيرة. كانت المرآة مازالت خلفي، تمتص ظهري، ولم أجرؤ على الالتفات إليها.

دخلت أمي ترتدي ثوبا أبيض مجعدا. كانت مشعثة الشعر، شاحبة تقريبا بشكل ما. تراجعت مبتعدة عنها عندما رأيت وجهها، وانضغط عمودي الفقري على مائدة السفرة.

استقرت الحافة الخشبية الصلبة في ظهري. شعرت أنها منفصلة عن عظامي بقليل من الجلد المشدود فقط. لم يكن هناك ألم، مجرد شعور وديع، تقلله البطانة التي كانت تغطيني. أحيانا كان دمي يتدفق هادرا إلى درجة تكفي لإيقاظ جسدي بأكمله، لكن في أوقات أخرى، كنت أشعر أني

38- كرات من العجين تُقلى بعد إسقاطها في المقلاة عبر مصفاة أو منخل لتتخذ شكل قطرات ماء (بووند باللغة الهندية) وتصنع منها كرات محلاة ناعمة أو خشنة الملمس، مثل لقمة القاضي.

أرتدي حُلة يمكن أن أفتح سَحَّابتها وأخطو خارجة منها لأكشف ذراعيّ ووجهي الحقيقيين، الجلد الذي كنت أختبئ تحته. كنت قد اكتسبت ثلاثة عشر كيلو جراما منذ أن أكملت عامي الحادي عشر. اعتقدت كالي ماتي أن السبب هو الهرمونات.

فتحت أمي خزانة عالية كانت تحتفظ فيها ببعض الكحول وأخرجت، وهي واقفة على أطراف أصابع قدميها، زجاجة من ويسكي (تيتشر) كانت تحتفظ بها فقط للضيوف من الرجال. بعد أن فتحت الزجاجة، تشممت محتوياتها وأغلقتها من جديد. استطعت أن أميز الآن أنها كانت تبكي. ليس مؤخرا، بل ربما ذلك الصباح. وكانت أنفها دهنية مع مجموعة من البثور السوداء.

قالت: «بابا مات اليوم.»

تقنيا، كان موته في وقت ما من اليوم السابق، لكنهم انتظروا ليقوموا بحرق الجثة في الصباح. كانت هناك خلافات بين أتباعه. أراد بعضهم إجراء تشريح للجثة لتحديد سبب الوفاة، بينما رأى آخرون أنه أمر غير مطروح للتفكير شق جسد إله راحل. وجادلوا بأنه لو أراد أن يُشق جسده، لترك تعليمات بهذا. اعتقد البعض أنه ينبغي استشارة كاهن هندوسي، لكن بابا كان يكره الكهنة وجرى رفض هذه الفكرة. أراد آخرون تحنيط الجثة، على الأقل في الوقت الحاضر، حتى يتمكن أتباعه الكثيرون من السفر لرؤيته مرة واحدة أخيرة.

قالت أمي: «التحنيط فقط للشيوعيين..» وافقت الأغلبية على أن هذا سيكون أمرا غير معتاد، ليس في تقاليد أسلافه، وأنه ينبغي حرقه في أسرع وقت ممكن. انتصرت الجماعة الأخيرة، وبُنيت محرقة لبابا في الأشرم. فُتحت البوابات على مصاريعها ليوم واحد ودخل كثيرون دون معرفة السبب في ذلك. كانت أمي حاضرة لتغسيل الجثمان وتغيير الملابس.

قالت إنهم شقوا جمجمته من الخلف حتى لا ينفجر رأسه في النار.

بعد ذلك وقفن صفا، خليلات **بابا**، وقدمن التعازي والبركات للحشد. بدأ رجل في الصياح بأنه ينبغي عليهن كلهن أن يلقين بأنفسهن في المحرقة. وقد جرى إبعاده بعد ذلك.

في وقفتها إلى جوار **كالي ماتا**، شعرت أمي بإحساس من الفخر.

قالت: «أدركت أنه ليس شيئا صغيرا أن تكوني خليلة رجل عظيم.»

أخبرتها أنه بدا بالنسبة لي صغيرا، بل ورخيصا، ولم يكن بالقطع شيئا يدعو للتفاخر.

أمسكتني من ذراعيّ وهزتني قبل أن تصفع وجهي.

«أنت عاهرة سمينة صغيرة. فليكن لديك بعض التعاطف! لقد أصبحت أرملة اليوم!»

خرجت كلمة «مومس» من فمي لكنها كانت ممتزجة بصرخة وأنا أندفع إلى جسدها، طارحة إياها أرضا. جلست على صدرها ولففت يديّ حول عنقها، ضاغطة حتى ظهرت العروق تحت عينيها.

عندما أفلتها، سعلت وشهقت بحثا عن الهواء. نظرت من علٍ إلى وجهها.

كررتُ: «عاهرة سمينة صغيرة..»

عندما لم أكن آكل، كان ينتابني دافع لوضع أشياء أخرى في فمي. أصابعي، شعري، الأزرار البلاستيكية في زيي المدرسي. بعد خمس وأربعين دقيقة من تناولي الطعام، كنت أشعر بالجوع مرة أخرى، رغم

أن معدتي لم تكن مرنة بدرجة كافية وكان الطعام يتخمر داخلها. قضيت ليالي دون نوم والغاز محبوس في قفصي الصدري، وأياما من الإسهال والإمساك. أحيانا كان يظهر دم في برازي. وأحيانا كان الحمض الصاعد من معدتي يظهر في فمي.

أحيانا كانت أمي تبتئس من منظري، لكن في غير ذلك كانت تصر على أنه ينبغي أن تأكل الطفلة متى شعرت بالجوع.

في الأيام التي كانت الحالة الأخيرة تلك صحيحة، كانت تأخذني لتناول الآيس كريم إذا توسلت لوقت طويل بما يكفي. بعد المدرسة، كنت أجلس عند طاولة البيع وأعب اللبن المخفوق بالفانيليا في (العم سام)، مطعم أمريكي صغير على طراز الخمسينيات من القرن العشرين متوارٍ في ظهر فندق خمس نجوم. ضمت قائمة الطعام النباتي مكعبات البطاطس المقلية والبيتزا المرشوشة بالكمون. كانت العائلات تصطف من أجل الآيس كريم الباهت الخالي من البيض الذي ذاب تقريبا قبل أن يصل إلى الطاولات. كانت أغطية المقاعد الجلدية البيضاء قد اكتست بظل من الرمادي الكئيب، لكن الجدران، ذات الرايات الخفاقة والتذكارات الغريبة، بدت وكأنها أقيمت بالأمس. لم يكن صندوق الموسيقى يقبل المال ولا يلعب إلا أغاني براين آدمز، وثمة نموذج مصغر لسيارة كاديلاك كلاسيكية قائمة على منصة دوارة قرب ماكينة دفع النقود. وأطل العم سام على الجميع من صورة في مقدمة القاعة.

«لو كانت هذه كنيسة، يا سيد باريخ، لكان هذا هو مكان المذبح..» قال نادل للمدير الشبيه بالدب. تطلعنا أنا وأمي إلى العم سام.

هز المدير رأسه. «هذه ليست كنيسة يا ريزا، وهذه السيدة تريد كوبين من الآيس كريم بالشيكولاتة.»

أُحضر طلبنا من الآيس كريم بالشيكولاتة دون صينية. وضع النادل سلطانية إضافية من الكرز المعلب اللامع إلى جواري. تطلعت إليه. كان كفاه أغمق من بقية جسمه. وكان شعره طويلا بشكل زائد ويرفرف على وجنتيه المجدورتين.

حاولت أن أجعل الآيس كريم يذوب حتى أتمكن من أكله بسرعة، مساعدة إياه على ذلك بظهر ملعقتي، ضاغطة بها على الجبال الصغيرة من الكريمة. استند النادل على الحائط بينما كنت أعمل على الآيس كريم. نظر بيني وبين أمي، مبتسما من وقت لآخر.

«لا بد أن طعمه جيد» قال، مراقبا إياي وأنا أزدرد ملعقتي الأولى.

أومأت برأسي وأخذت ملعقة أخرى ملء فمي. انفجر اللعاب في فمي. وغدا السائل البارد دافئا بقدر درجة حرارة جسدي.

«كيف يبدو طعمه؟»

كان فمي مليئا ولم أستطع الإجابة. ابتلعت، لكن السائل الحلو الحليبي غطى حلقي وسعلت.

ضحكت أمي: «أنا واثقة أنك تذوقته من قبل.»

هز رأسه وحك مقدمة زيه الموحد بيده المسودة. لم تترك يده أثرا واضحا حيث لمس جسده. راقبته، مفتونة بخضابه الغريب.

«لا يبدو مذاق الطعام هكذا بالنسبة لي. انظري إلى وجهها. إنه شيء مختلف بالنسبة لها.»

تطلعت إليه ورأيت أنه كان ينظر إلى أمي، وخطر لي أنهما كانا يتبادلان حديثا غير منطوق بينما كنت أنا آكل.

«اسمي ريزا باين.»

قدمنا أنفسنا، لكن المدير ناداه عبر القاعة المليئة بالأصوات، أصوات الكبار والصغار. وقبل أن يمضي بعيدا أعاد ملء سلطانية الكرز.

1995

كنت أعرف بالفعل أن للجنس رائحة تشبه رائحة السمك والآيس كريم، لكن المرة الأولى التي مارست فيها الجنس كانت مقابل باكو لبان (بيج ريد) مستورد. كان الصبي المقصود يمضغ قطعة لبان ويزفر أنفاسا برائحة القرفة في وجهي. كان في السادسة عشر من عمره، يسكن في البناية ولديه بثور على جبهته. كان يراقبني وأنا ألعب كرة الريشة مع أخته الأصغر. فعلناها بالقرب من شقته، على البسطة بين طابقين. بعد المرة الأولى، بدا الأمر سهلا.

كنت في الثالثة عشر من عمري. أرتدي ملابس بمقاسات السيدات، وقدماي تنزلقان بيسر في صندل **كالي ماتا**. يضغط عامل المصعد نفسه إلى جدار المصعد عندما أدخل. أصيح كلما تحدثت أمي معي. ونادرا ما كنا نجتمع في نفس الحجرة بعد ذلك. شيء ما فيّ كان يتمدد، ويشغل حيزا مفرطا من الفراغ، ويمتص الهواء في المناطق المغلقة. لم يكن هناك أحد يريد أن يكون حولي لوقت أطول من اللازم، لكني لم أبالِ وكرهتهم جميعا بالمقابل على أي حال.

كان أبي وزوجته قد عادا من الولايات المتحدة.

ثلاثة أعوام تحولت إلى ستة. اتصلا ليخبراني أنها حامل. رفضت استقبال مكالمتهما وكان على أمي أن تبلغني بالأخبار.

كنت قد بدأت أشك أن واحدة ما غيري تعيش في جسدي، تحتله كمسكن

مؤقت وتأخذ فيه راحتها. كانت تفتحني من الداخل، متسببة في ظهور علامات تمدد على جسدي وتغير لون بشرتي. كان الشعر قد ظهر بكميات أكبر حيث لم أكن أريده، ولم أستطع ملاحقة متطلبات إزالة الشعر. وبدا أني آكل لجماعة وليس لفرد، محاولة إشباع هوة لا قرار لها من الجوع.

لم يخبرني أحد بأن هذا السن وقت تلك المشاعر، وحتى لو أخبروني لم أكن لأصدقهم. لم يخبرني أحد أن الأمر سيستغرق أعواما لقبول جسدي أصلا، للشعور بأني أعرف أين يبدأ وأين ينتهي. في تلك اللحظة، كان حجم الوجود غير قابل للقياس. كان بمقدوري أن أتذكر الوقت الذي كنت أنزلق فيه عبر شقوق ضيقة، عندما كان بمقدوري أن أجلس على ركبة جدتي دون أن تصدر عنها آهة.

ولم تكن الحيرة التي شعرت بها داخلي تُقارَن في شيء بالتغيرات التي شهدتها من العالم الخارجي. بدأ الرجال ينظرون إليّ بطريقة لم ألاحظها من قبل. هل كنت غافلة كل هذا الوقت؟ أم هل رأوا تلك المرأة الأخرى التي تعيش في جسدي أيضا؟

اختلفت النساء أيضا، أو ربما أصبح بمقدوري قراءة بعض التحول في عيونهن. انتزع التضخم الدهني أعلى حزامي رد فعل. هل كان استياء؟ كنت أعرف أن هناك غضبا. في الحقيقة، كان الغضب هو الشيء الوحيد القابل للتمييز الذي تشاركناه جميعا، والشيء الوحيد الذي كان بمقدوري تسميته. بدا العالم غاضبا مني بقوة، بلا نهاية. الرجال بسبب الرغبة التي كنت أثيرها. والنساء بسبب عجزي عن كبت هذا الجسد الجديد.

ينمو البشر بشكل فاضح، بشكل فوضوي، ولم يُمنح لأحد خيار أن يشيح بنظره بعيدا. لعل حبسي طوال هذه السنين البينية كان يمكن أن يساعد – الدخول في شرنقة قطنية والخروج كامرأة كاملة.

انحدرت إلى مستوى أبعد من الكآبة عندما أخبرني ريزا أن بشرتي قد لا تصفو أبدا. دخل بالضبط عندما كانت أمي تغرس إبرة معقمة في بثرة برأس بيضاء على ذقني وقال إن بشرته انفجرت بالبثور عندما كان في حوالي السادسة عشر من عمره والآن، بعد حوالي خمسة عشر عاما، مازال أثر ذلك باقيا. خلع قميصه الحائل ليوضح. كان جسده مشدودا، نحيلا، لكن مساحات جلده الشاحب كانت مغطاة بمستعمرات من آثار الجدري، ندوب لم تُمحَ قط. قال ريزا: «آمل ألا يحدث هذا لك.» نظرت مرة أخرى إلى بطنه المبقعة. قال: «أنت فتاة. الأمر أسوأ بالنسبة للفتيات. الرجال ذوو البشرة السيئة مازال بإمكانهم أن يضاجعوا.»

انطبقت أسناني بإحكام أمام هذه اللعنة المزدوجة. شعرت بالفتاة الأخرى بداخلي تنهض.

تكلم مرة أخرى، كما لو أنه قرأ أفكاري: «ليس عدلا، بالطبع، أن يكون هذا هو الحال. لكنه حقيقي، بغض النظر.»

تطورت صداقتنا مع ريزا ببطء، على مدار فترات الظهيرة ما بعد المدرسة. كان يقوم بأعمال غريبة، خاصة أشياء بيديه. لم نكن ندفع الكثير في (العم سام)، لكن ريزا كان يحضر لنا في البيت الكعك والحلوى التي لم تُبَع. خلال ساعات العمل، كان من المفترض أن يرتدي قفازات ليخفي يديه. لكنه كثيرا ما كان يخالف الأمر.

كره ريزا العمل، لكنه في نهاية الشهر كان يستلم مظروفا نحيلا من البنك به أوراق نقد جديدة لا تشوبها شائبة. كانت تذكره بأمه، كيف كانت تفخر بالتأكد من أن النقود في محفظتها مفرودة وجديدة، كيف كانت تحاول استهلاك أوراق النقد البالية بأسرع ما يمكنها. كانت تؤمن

بأن النقود المكرمشة ليست عملة الأغنياء، مثل شرائح اللحم المختارة، أو الخضروات اللينة، أو ثمار المانجو الحلوة. لكن قبل أن تصل النقود إلى أمه، كانت تمر عبر أيدٍ كثيرة.

أخذتنا أمي أنا وكالي ماتا إلى المطعم ذات يوم بعد الظهر. جلسنا إلى طاولة وظللنا نشرب الماء لأن كالي ماتا لم تكن تتناول أي شيء به ألوان صناعية.

قالت أمي: «ينبغي أن نطلب شيئا.»

حدق المدير فينا ونحن نتظاهر بقراءة بطاقات قائمة الطعام المغلفة.

أخذ ريزا رشفة من زمزميته. «لا، لا تقلقوا. سأحضر بعض الكعك الليلة إذا أردتم.»

من الصعب رسم اسكتش لريزا باين لأنه كان دائما ما يتحدث بمفردات الواقع السائل. كانت الحقيقة شيئا ذاتيا، شيء كان لديه اهتمام قليل به، والخبرة تغير نفسها باستمرار مثلها مثل الذاكرة. كان قد التقط بعضا من تلك الأفكار من لقاءاته مع بابا وقد شكلته عندما كان مازال شابا صغيرا. وكان هذا هو السبب في أنه لم يجد قط مكانا في عالم التصوير الصحفي واضطر لاستخدام مهاراته كمصور في مكان آخر. لم تكن أمي قد قابلت ريزا قط في الأشرم، لكن الناس كانوا يذكرون اسمه.

قالت: «أشعر كأني أعرفك..» ولمست ساقه وهي تتحدث.

فأجابها: «إذًا فأنت تعرفينني..»

أرحت وجنتي على كتف كالي ماتا في ردائها الأسود.

عندما وصف ريزا نفسه بأنه فنان، كانت غريزتي الأولى التي تحركت هي عدم الثقة به. ماذا كان يعني أن تكون فنانا؟ كان أول فنان قابلته

في حياتي.

قال إن المطورين العقاريين في بونيه أشبه بأغنياء الحرب، يستغلون غرائز التملك لدى الناس. كان يرسمهم بأقلام الفحم الأسود، في أجساد مترهلة تسير والبول يقطر من أعضائها الذكرية المنكمشة، يضعون علامات على أجزاء المدينة برائحتهم النتنة. كان يرسم في أي مكان، على الورق أو الجدران. لم يكن هذا يمثل فارقا. لكن يديه، السوداوين دائما، كانتا مألوفتين لي.

قال: «إنه العمل القذر.»

وُلد لأب شاعر كان يملك محلا ليعول به أسرته. كان أبوه بطله، عبقري في الشعر الأوردي، رجل لم يكن بمقدور ريزا أن يتذكره لكنه كان يخلد ذكراه دائما.

اعترف ريزا أنه هو نفسه كان منبوذا بعض الشيء من الصحافة والمجتمع الفني في بومباي. لا بد أن الأمر كانت له علاقة بحادثة وقعت خلال أعمال الشغب عام 1993 في بومباي.

قلت إني لم أسمع قط باسم يشبه باين. ليس مع اسم مثل ريزا، على أي حال.

ابتسم لي وأشحت بنظري بعيدا.

كاد ريزا أن يصبح واحدا من الهنود المهاجرين. عندما كان صغيرا جدا، انتقلت أسرته إلى كندا. وعندما وصلوا، كان الثلج هناك على الأرض.

اعتقد أبوه أن اسما مثل (شيخ) لن يفلح أبدا. خرج من شقتهم المكونة من حجرة نوم واحدة في الجيتو البرتغالي في مونتريال وقرأ اللافتة: شارع

باين[39]. ومن تلك اللحظة فصاعدا سيُعرفون باسم آل باين.

«ماذا حدث؟»

قال ريزا: «رحَّلونا. اعتقدوا أن أبي كان شيوعيا.»

«وهل كان؟»

«نعم، بالطبع.»

*

في عام 1992، سافر ريزا باين، مصور صحفي شاب، إلى مدينة أيوديا في شمالي الهند ليشهد هدم المسجد والمسيرات للاحتفال بمكان ميلاد الإله راما. في بومباي، اندلع العنف في شوارع المدينة، وشبت في كافة أرجائها ألسنة اللهب. زجاجات يُلقى بها داخل النوافذ، أصحاب محلات يروَّعون، نساء يُضربن، يُغتصبن، وأطفال يُجبرون على المشاهدة.

هندوس يقتلون مسلمين، ومسلمون يقتلون هندوسًا، مطلقين العنان لوحشية كانت هاجعة بالأمس، وأيقظتها كلمات ملهبة.

كان من السهل إثارة العنف الطائفي. لقد وضع التاريخ الأسس لها. رأى ريزا كيف كان من السهل إشعال بذور الخوف، كيف كان من الممكن تهدئة الخوف لكنه كان في النهاية سيجد مصدرا آخر يغذيه.

قابل الرجال، الأشخاص الذين كانوا يشكلون الغوغاء. كانوا يرتدون ألوانهم بفخر، وفي وقفتهم إلى جوار بعضهم البعض، كانوا يبدون إعجابهم ببراعة عنفهم.

قضى ليالي يتساءل إن كان ما رآه حقيقيا، أم أنه كان موقع تصوير

39- Pine Street: وتعني كلمة pine حرفيا شجر الصنوبر.

فيلم – ممسرح، مؤطر في القطع القاسي لعدسات آلة تصوير، لحظات مفردة مثلت بدايات ونهايات رعب مستمر.

هدأت أعمال الشغب بعد بضعة أيام. وحان وقت لملمة الأجزاء.

في بومباي، حُرقت الأجساد، ودُفنت الأدلة ببطء. استعادت الحياة نبضها العادي، وبدأت عملية النسيان على الفور. ضحك بعض الناس، واقفين بإهمال في الشارع، مستمتعين بشمس الظهيرة.

في العام الجديد، بدأت إراقة جديدة للدماء. وأعيد فرض حظر التجوال. تشكلت المدينة من أبواب موصدة ونوافذ مظلمة. عاش ريزا مع أمه الأرملة في شقتها قرب محطة قطار بومباي المركزية، حيث كانت الصرخات قريبة بما يكفي لسماعها، كما لو كانت ستعبر المنعطف وتسقط فوقهما. باستثناء ذلك، كانت الطرق مهجورة ولم يجرؤ أحد على مغادرة بيته. كان مفهوما، كحقيقة مسكوت عنها، أنه لو تم اصطيادك، لن يكون هناك أحد لينقذك. لا حرس، ولا شرطة. لا، اليوم لا وجود لقوة أعلى من مهاجمك – لقد سيطر على المدينة. لم تعد بومباي مدينتك، ليس الآن، وربما لن تكون مرة أخرى أبدا، ومنذ هذا اليوم فصاعدا ستسير في الظل.

لكن شيئا ما كان مختلفا. بدأ الأثرياء وذوو النفوذ يرتعدون عندما هاجم الغوغاء الأبنية في منطقة بريتش كاندي السكنية الفاخرة وحي ناريمان بوينت للأعمال، الأرصفة الطويلة والشوارع الظليلة، البيوت الفخمة حيث كان أثرياء المدينة وجميلاتها يذهبون عندما يتركون أنديتهم الترفيهية وفنادقهم ذات الخمس نجوم. رجال بلا وجوه وبلا أسماء يتحركون في جماعات، ملوحين براياتهم الزعفرانية وصارخين بشعاراتهم، مندفعين عبر أماكن لم تكن النساء ينتقلن فيها إلا بسيارات يقودها سائق خاص، والنوافذ تطل دائما على البحر.

كان الوقت عصرا. وكان ريزا يلتقط صورا للدمار الملحق بالمحلات والبيوت، يصور عائلات فقدت أحباء، وأرامل وأيتام. لم يطلب إذنهم؛ فقد كان الأحياء يشبهون الأموات، وقد اتخذوا ألوان جلودهم المتهدلة. ولا يمكن لأحد أن يتحدث إلى الموتى.

سمع صرخات من خلفه، وجاء حشد من الرجال الغوغاء يعدون، ملوحين بالعصي. اختبأ خائفا خلف حافلة متوقفة أمام بناية. حاول أن يلتقط صورا للحشد المقترب، لكن يديه ارتعشتا. ثم جرى. جرى إلى المدخل المظلم للبناية، صاعدا السلالم، مصطدما بالحوائط، طارقا على الأبواب وهو في عدوه صاعد.

كانت امرأة شابة واقفة في الطابق الثالث، على وشك الدخول إلى بيتها. كان ريزا يرتعش منقطع الأنفاس.

«ما الخطب؟»

لم يستطع أن يخبرها، لم يستطع أن يتكلم، لكنها سمعت أصوات الرجال في بئر السلم. جذبته ليدخل عبر الباب، وأغلقت الباب بالمزلاج.

سمع التكات. واحدة. اثنتان. ثلاث.

لم يخبرها بأنه رأى أقفالا كهذه من قبل. رآها تنقسم نصفين عندما يُركل الباب. رآها وهي مازالت سليمة بينما كل شيء حولها قد احترق تماما. وبدلا من ذلك، قبض على ذراعها وشكرها.

ثم نظر حوله. وبادله النظر رجال ونساء وأطفال.

كان اسم الفتاة روكشانا. وكان الآخرون عمات وأعماما وأبناء عمومة. جلست جدتها في مقعد بجوار النافذة، صماء وعمياء، غافلة عن المشهد

بالأسفل. وكان إخوتها الصغار جاثين على ركبهم وهم يتهامسون بعضهم لبعض، وأجسادهم متكورة.

كان لقب العائلة: **شاه**. مكث عندهم، ونام إلى جوارهم. أحيانا، في الليل، كانوا يجلسون معا وينصتون إلى الصرخات والطلقات. كانوا يطلون على الشوارع المهجورة بالأسفل. كل يوم، كانوا يُصلُّون كي يعمل الهاتف وتعود الكهرباء، لكن شيئا لم يتغير.

انفصلت الأيام والليالي عن التواريخ والساعات، ولم يعد من الممكن تمييز الوقت إلا بمرور القمر في السماء.

عندما تكون الكارثة قريبة جدا، لا يجب أن يتحدث أحد عنها أبدا.

شعر ريزا بالامتنان لأن أي شخص يمكن أن يختلط عليه أمر الحب. كان من الممكن لحشد الغوغاء أن يقتلوه لو لم يدخله آل **شاه** بيتهم. أكل طعامهم، وعاش على لطفهم. كانوا كرماء، لكنه كان يعرف أن ثمة شك في عيونهم. كان كل شيء مختلفا عندئذ. بدا كل يوم أشبه بعمر كامل. تساءل إن كان سيترك هذا المكان حيا أبدا. كان هناك خطر ما في الانحباس في بيت مثل هذا. كانت الأكتاف المحتكة تشحذ الأعصاب لتجعلها خيوطا دقيقة. شدة واحدة وستنقطع. جعله صوت صلوات روكشانا راغبا في البكاء.

لذلك تزوجها.

وكان أفراد أسرتها شهودا.

خلقوا عالما سعيدا صغيرا في ذلك البيت.

كان هناك القليل لأكله ولا شيء لفعله. ظن أن الأمر سيكون رهيبا، لكنهم تعلموا ببطء أن يتجاهلوا الأصوات القادمة من الخارج، وأصبح

كل شيء مقدورا عليه. أكثر من مقدور عليه. متعة. بعض الأيام لم تكن أقل من احتفال.

وعندما خرج أخيرا، كانت أمه سعيدة لأنه وجد فتاة مسلمة ورعة. قالت إن كل شيء يحدث لسبب.

*

«أين روكشانا الآن؟»

«تعيش مع أمي.»

«وأنت؟»

«أتنقل.»

بدأت الأسئلة بعد أن قام بتحميض الفيلم. صور الموت والخراب تخللتها مساحات داخلية هادئة، وابتسامات وأوضاع خرقاء لأسرة ما. وصور الزفاف. كانت صورا متقشفة وجادة. لقد التقطها ريزا باستخدام عداد الوقت. حكى لمدير تحريره خبرته. مجازر وموت وخراب، لكن كان مازال بإمكان الحب أن يظهر في ومضات.

قال السيد شودوري، الذي كان ريزا يحكي له، إنه يريد مقابلة هذه الروكشانا. جاءت إلى المكتب في الأسبوع التالي لكنها كانت أكثر خجلا من أن تنظر إلى أي أحد في وجهه. لم تكن متعلمة، وكانت هذه الحجرة التي تجتمع فيها الكلمات مع الصور لتحكي قصة اليوم غامضة بالنسبة لها. أومأت برأسها عندما سألها الرجل ذو النظارات أسئلة، وأيدت ما قاله زوجها الجديد.

قال السيد شودوري: «قد يكون للأمر منظور إنساني شيق جدا، لكن علينا أن نتعامل معه بالطريقة الصحيحة.» كان يعرف كيف يسوِّق جريدة.

تحت وشاحها الدوباتا، كان لروكشانا شعر مجعد مثل اللوالب. لم يعرف كثير من الناس ذلك السر. في بعض الأيام، كان ريزا يرغب في أن يخبر شخصا ما، أي شخص، حتى أي غريب في حافلة مزدحمة، لعلهم ينظرون إليها، ويتخيلون شعرها، لكنهم لا يعرفون أبدا ما كان في الحقيقة. أحيانا وهو معها، كان يدرك سلطته المطلقة. وأخافته المتعة التي جلبتها هذه المعرفة.

لم يرغب ريزا قط في أن يكون قصة مثيرة لاهتمام الناس، معلبة ومباعة. كان كاتبا، صانع صور. في اليوم التالي، زار جاليري للفنون في منطقة كولابا دون موعد مسبق، حاملا مظروفا ورقيا مليئا بأفلام النيجاتيف.

طلبت منه صاحبة الجاليري أن يكرر اسمه وقالت إنها ليست مهتمة بتبنِّي فنانين جدد.

ثابر كل يوم لمدة اثني عشر يوما. كان عمله يتطلب منه دائما الجَلَد، الوقوف في جو عدائي وتحمل فترات انقطاع طويلة في النشاط. لو كانت هناك خصلة واحدة لديه منها وفرة، فقد كانت الصبر. بعد اليوم الخامس، لم يُسمح له بدخول الجاليري وجلس في الخارج، مستعيرا كرسيا قابلا للطي من رجل كان يبيع مجلات قديمة. بدأ يمضغ التبغ، وهي العادة التي دامت حتى نهاية الأسبوع. لم يكد يبصق آخر مضغة ملأت فمه حتى فتحت صاحبة الجاليري الباب على مصراعيه وعقدت ذراعيها.

قالت: «لديّ عشر دقائق فقط.»

تجهز المعرض ببطء. كان هناك المناخ السياسي الذي يجب مراعاته. ولم ترغب صاحبة الجاليري في أن تكون هدفا. كما أخذت فكرة المعرض وقتا لتتكشف. كانت الصور، رغم قوتها، تبدو ناقصة، وعاد ريزا إلى أقلام الفحم. رسم على قطع كبيرة من الورق، وقَطع الورق المقوى إلى أشكال من الأثاث. أصبح الجاليري شقة آل شاه، ليس كما كانت خلال هذين الأسبوعين السرمديين، لكن كما تذكرها ريزا. أشير إلى المقاعد فقط بظلالها على الأرض. وكانت النوافذ إطارات مكسوة بالقماش، لتضفي إبهاما على المشهد في الخارج. لم تكن حجرة للأشياء بل للمبالغات، لم تكن ذات مساحة بل ذات رهاب أماكن مغلقة. تخللت الصور كل هذا، وكان الافتتاح هادئا لكنه حظي بحضور جيد.

تحدث ريزا إلى جماعة أحاطت به، راويا ترتيب الأحداث التي أدت إلى المعرض. كانت هناك أسئلة وحوارات عندما انتهى، وشعر ريزا بالثقة في بدايات مشواره المهني. لم يقرأ المراجعات التي نُشرت في الصحف –ومن يقرأ المراجعات على أي حال؟– وفوجئ بتلقيه ملفا من الجاليري ببعض المقالات المقصوصة من المجلات.

اتفق النقاد على أن المعرض كان مزعجا، وهو أقل ما يمكن أن يقال، ومليئا بالمشاكل الأخلاقية التي لم يتمكن الفنان من تفسيرها. قالوا إن قصة الحصول على الصور مشكوك فيها، وزاخرة بالفجوات، وجعلت العمل غير جذاب على الفور. لقد اخترق مساحة خاصة بأسرة، وصورهم دون تفسير نيته واستغل هوياتهم لأغراضه الخاصة. وبعد ذلك تزوج واحدة من بناتهم حتى يمكن تكريس اعتدائه القذر. كان العنف ضد روكشانا، سواء الصورة أو الشخص، أمرا غير مقبول. كل هذا خلال واحدة من أبشع اللحظات في تاريخ مدينته. ونادى كاتب أحد المراجعات

بإزالة المعرض متسائلا: «ألم يمر آل شاه بما يكفي بالفعل؟ أيجب أن يتم تسليع وتوزيع رعبهم ومعاناتهم وجهلهم على يد رجل يفتقر إلى النسيج الأخلاقي؟»

أزالت صاحبة الجاليري المعرض قبل عشرة أيام من الموعد المخطط.

أخذ ريزا عمله من المكان بعد ثلاثة أشهر. لم يُبَع شيء. قالت إن هذه الخبرة قد دمرت سمعتها وكانت كارثة كاملة.

هز ريزا كتفيه. وأخبرها أنه لم يفهم لم كانت كل هذه الضجة.

قبل أن ينهي ريزا قصته كانت أمي تمسك بيده. وكانت يدها الأخرى على ثدييها. تنفست كالي ماتا بعمق، وأدركتُ أنها قد تأثرت كذلك. أما عني، فلم أكن واثقة أني قد سمعت أو فهمت القصة كاملة. أتذكر على نحو مبهم شعورا بعدم الارتياح، ليس تجاه ما يحيط بي، بل تجاه ما كان بداخلي. لقد علموني طوال حياتي أن لحظة العيش لم تأت بعد، أن المرحلة التي كنت أعيش فيها، وهي حالة دائمة من الطفولة، هي فترة انتظار. وهكذا انتظرت، نافدة الصبر، بامتعاض، متلهفة لأن تمر هذه الفترة من العجز. وفي تلك المرحلة، كنت أستمع أقل مما كان ينبغي لي، ولم أشعر بالحاجة إلى التورط.

آمنت بأن هذه الرغبة في أن أغدو أكبر سنا تعني أن العمر سيجيب على كل أسئلتي، أن رغباتي ستتحقق في موعد لاحق، لكني مع مرور السنين وأمنيتي بأن يعود الصبا مرة أخرى، كانت عادة الانتظار قد رسخت بالفعل. إنها متأصلة بعمق، شيء لا أستطيع أن أتظاهر بنسيانه. أتساءل إن كنت، بعد أن أصبح عجوزا واهية ويمكنني أن أرى شكل نهايتي أمامي، سأظل في انتظار أن يصل المستقبل.

1996

انتقل ريزا إلى شقتنا. ذات صباح، وجدته يشارك أمي الفراش. كانت آثار الجدري التي تغطي جسده وحشية في الضوء المبكر. اعتقدت أنه يبدو منفرا وأخبرته بذلك.

«وأنت لستِ ملكة جمال..» قال ضاحكا.

قيل لي أن أظل هادئة، لكن سرعان ما التقط الجيران الموضوع وتهامسوا به في النادي. وبختني أمي على إفشاء سرها. قالت: «كيف أمكنك أن تفعلي هذا؟» بدا ريزا أقل انزعاجا. صب بعض الويسكي في كأس وعرض عليّ تذوقه. لمست سطح السائل بلساني. وجفلت من قوته.

في الشارع بالأسفل، كانت السيارات تطلق أبواقها وهي تسير متثاقلة. كان جيراننا قد احتشدوا للاجتماع على مرأى من الجميع. وبين الحين والآخر يرفعون عيونهم إلينا، إليّ أنا وريزا ونحن مائلان على حافة الشرفة. ترك بعض اللعاب يسيل متقاطرا من فمه وسحبه مرة أخرى.

ضحكت. أخذ ريزا رشفة من كأسه.

لاحظت ندبة قرب صدغه، ندبة غاصت وامتدت عبر شعره.

سألته: «ما هذا؟»

لمس جبهته. «دخلت في شجار بالمدرسة.»

«أي نوع من الشجارات؟»

«النوع الذي يجعلك تدركين كم يوجد كثير من السكارى في هذا العالم.»

سكارى. سكــارى. أردت أن أسأله المزيد حول هذه الكلمة، أسأله إن كانت كلمة واحدة أم اثنتين، وإذا كان بمقدوره استخدامها في جملة أخرى. نظرت إلى الزاوية الحادة لفكه والزرقة التي تحت عينيه. لمس المنطقة المحيطة بحجره، ومد يده في جيبه وأخرج مركبا ورقيا صنع يدويا. أمسكت بالشيء الصغير في كفيّ. كان مصنوعا من ورق جرائد ملطخ، وقد انسحق نتيجة وجوده في ملابسه.

شكرته، رغم أني فكرت أنه شيء غبي بعض الشيء. أومأ برأسه. «لا تضعيه في الماء.»

كان الجيران مازالوا أسفلنا. السيد **كاماخيا**، وهو رجل بدين أصلع وأب لأربعة، كان يحملق فينا ويداه معقودتان أمام بطنه.

دون كلمة، ترك ريزا الكأس يسقط من يده. تفرق الجيران مع تحذير السيد **كاماخيا**. سقط الكأس طابقين، وتحطم مع الصدمة. تطايرت الشظايا في كل اتجاه مثل قصاصات ورق الزينة اللامعة.

كانت أمي تذهب للتمشية مع ريزا عندما تكون الشمس لطيفة. وأحيانا كانا يتركانني أسير في ذيلهما. كان يحمل الألوان وأقلام الفحم في كل مكان، وكنا نشاهده وهو يضع علامات على الجدران، وجوانب المباني، والعقارات الخاصة. كان يترك خلفه قصائد ذات جناس بسيط. كانت في الغالب بلا معنى ومضحكة أحيانا. كنت أدير الكلمات على لساني بعدها، وأحتفظ بها بعيدا في مؤخرة عقلي.

كان يترك كتابته دون توقيع. ويقول: «لم أعد أنوي أن أكون كاتبا.» بعد أسابيع، في واحدة من تمشياتنا، عاد إلى الأماكن التي كان فيها من قبل وغطى الكلمات التي كتبها. طمسها بالدهان الأبيض، وجفت مثل بقعة من الحليب فوق المدينة المصفرة. أحيانا كان يُقبِّل أمي بينما نسير، ويمد يده داخل بلوزتها ليقبض على ثدييها. كان ينظر إليها وهو يفعل هذا، ويحتوي نظرتها، وكانت تبتسم دائما وتتحرك مقتربة أكثر من يده.

رسم ريزا خرائط لزوايا بونيه في رأسه. هكذا عرف أين يمكنه أن ينتمي يوما ما. كان يكره الشوارع المزدحمة، والمحلات والأسواق، والأغنياء والفقراء وهم يبحثون عن مساحة للوقوف جنبا إلى جنب. كان ريزا يبحث عن الصدوع، الشقوق التي سقط الآخرون عبرها، التي لم تعرف بأمرها قط المدينة نفسها. كانت نقاط استراحة، كما أخبرنا ونحن نسير، حيث يتوقف كل شيء. في تلك الأماكن، كانت المدينة صامتة.

أخبرته أمي بأنه متساهل مع ذاته وملذاته. بدا أنه معجب بهذا وقبَّلها مرة أخرى. كنت أسير خلفهما بقليل. كان حيوانا قذرا، لكن في مكان ما بداخلي أدركت ما قال. ضربتني كلماته بقوة، درس قديم أتعلمه من جديد.

أراد ريزا أن يرتدي ملابس أمي واقترح أن ترتدي هي ملابسه. اعترضت في البداية، لكنها أذعنت بعد ذلك. كان هذا نموذجا شائعا بالنسبة لها طوال وقتهما معا. كان بنطاله الجينز فاضحا، باليا لكنه خشن. وكان قميصه خفيفا. قالت إنها تشعر أنها عارية فيه.

سألتني: «كيف أبدو؟»

ضحكت رغما عني. جاءت إلى حيث كنت أجلس على الأريكة وعانقتني بملابسه. كان هناك شيء مريح في رائحته. ساعدتها على تثبيت مؤخرة

بنطاله الجينز لمنعه من السقوط.

عرف كيف يلف وشاح الدوباتا ووضعه بسهولة على كتفيه. تمدد النسيج الوردي على ظهره حتى كاد يتمزق. غطيت فمي أمام منظره. أمسك بي، مقلدا صوت امرأة، وقال إني ابنته الحلوة الصغيرة، وتظاهر بوضعي على ثديه ليرضعني. ضحكنا أنا وأمي حتى آلمتنا ضلوعنا. تخيلت أن يديه سيكون ملمسهما رطبا، لكنهما كانتا جافتين كالحجر. من الشرفة، راقبتهما يسيران عبر البوابة. رمقهما عدد صغير من الناس. أغلبهم لم يلاحظوا شيئا على الإطلاق. بقيت حيث كنت إلى أن لم يعد بمقدوري رؤيتهما بعد ذلك. كانت ضلوعي مازالت تؤلمني من الضحك، لكني في نفس الوقت شعرت بالغضب. كان بمقدورهما أن يكون أحدهما الآخر، لكني كنت نفسي فقط.

أراد ريزا أن يعرف كيف كانت تبدو الأشياء من الداخل. ليس لأنه كان مهتما بما كنت أحس به، لكن لأنه كان يحب التمييز بيني وبين نفسه. أحسست أنني كلما أجبت على مزيد من أسئلته، كلما امتلك المزيد من المواد الخام والمزيد من الاختلاف الذي يمكنه صنعه.

كنت سمينة وكان نحيلا. كنت سمراء وكان فاتح البشرة.

بدا أن الطعام يثير فيّ نشوة تشبه المخدرات، بينما كانت المخدرات المحظورة فقط هي ما يمكن أن تترك أثرا فيه.

ذات يوم في حجرتي، عثر على كافة قوائمي ولم يخفِ حقيقة أنه كان يتجسس في المكان. أراد أن يعرف الغرض منها، وفردها على السرير، صفحات وصفحات منها. عاملها ريزا باحترام، كما لو كانت نوعا ما من الأدلة، وشعرت بالفخر والغرابة عندما رأيت هذا.

سألني بطريقة مباشرة عن مدخلات معينة، وماذا كانت تعني الحروف

والأرقام. تهربت حيثما استطعت لكني حاولت ألا أكون وقحة. كلما سأل أكثر، كلما ارتسم عليه المزيد من اليقين بأننا لا يشبه أحدنا الآخر في أفكارنا واهتماماتنا. كنا مختلفين، كما بدا أنه استنتج، بل نقيضين. بدا أن هذا يقويه، وكأن فهمي جعله واثقا من نفسه. لم أشعر بنفس الإحساس، رغم أني وجدت اهتمامه مريحا أحيانا.

كان مما يبعث على السرور أن أشعر بأني فاتنة إلى أن أدركت أنه أشبه بعالم يدون ملاحظات، وكل نقطة في قائمته كانت توخزني قليلا، وتجعل مسامي مفتوحة أكثر كل يوم.

«أنت لا تريدين له أن يرحل، أليس كذلك؟» قالت أمي، عندما سألتها كم المدة التي سيمكثها ريزا معنا. بدا عليها الحزن، وشعرت بمسؤولية مفاجئة نحو بقائه حتى يمكن لنا جميعا أن نكون سعداء.

لو حاولت أن أصنع توازنا بيننا، نوعا من التثليث، كنت أجد نفسي عاجزة. فهمت أنا وأمي معا أن هناك شيئا ما يتشاركه ريزا معي ولا يتشاركه معها. وبطريقة ما وقع على عاتقي عبء التأكد من حفاظي عليه، رغم أني لم أوافق عليه.

«أحبه، أتعرفين؟» قالت عندما كنا وحدنا. «لو أني أحببت أي شخص أصلا، فإنه هو.»

ذات مرة أخذنا الطريق الطويل المؤدي إلى ولاية جوا. جلست على مؤخرة الدراجة. كان ريزا يعرف الطريق. جلست أمي بيننا. ثمة حقيبة معلقة على كتفي. كنت في الرابعة عشر من عمري وشغلت حيزا أكبر من اللازم. مررنا بغابات من أشجار الأوكالبتوس، وبدت الأشجار على وشك أن تقتلع نفسها وتطير بعيدا في الاتجاه الآخر. انفتح المنظر على امتداد

لا نهائي من الأرض الزراعية، به بقع ذهبية وخضراء، وتلال بنية عند الأفق.

انخفضت درجة الحرارة مع الصعود إلى أعلى. مثلما كان الحال في بانتشجاني. مرت القرى، وبحثت عن شيء مألوف، لكن الأشجار كانت كثيفة، ولها جذور بصلية الشكل.

لم نتوقف إلى أن رأينا لافتة (كاندوليم هاوس)، وسرنا لفترة قبل أن نجد مدخل الفندق. تحدثت صاحبة المكان بطريقة ناعمة. وبدت مؤخرتها تتحرك حتى عندما كانت ساكنة.

كان هناك ولد صغير راقد على الجانب فوق سرير مفرد، وساقاه مرتفعتان في الهواء، مستندتان على قضبان الحديد الملتوية التي تآلفت معا في شكل زهري فوق النافذة. راقبته من الشرفة الأمامية. تجاهلنا. لم أفهم قط لماذا يحب الناس الأطفال.

كان النقش على واجهة النافذة متماشيا مع فستان صاحبة الفندق. فتشت السيدة في حقيبة من المعدن، منقبة أكثر وأكثر داخل الكيس، وهي تغمض عينيها نصف إغماضة، وتعض شفتيها، وتعتذر.

من الحقيبة أخرجت مفتاحا وناولته لريزا. ثم عانقتني.

قالت: «اسمي بيبر، وهذا هو ابني. الحجرة هنا تماما.» وأشارت إلى باب. «والمرحاض هناك في الخارج.»

التفت إلى صوت هدير منخفض، لكن لم يكن هناك إلا الظلام.

في الحجرة، لاح ضوء أصفر كئيب من مصباح مكشوف فوق الفراش.

كان الهواء رطبا، والملح والرمل على كل شيء. كانت الحجرة علبة صغيرة، بها حوض صغير متصل بماسورة في الحائط. بالضبط مثلما

كان الحال في بيت جدتي. مال السقف على شكل السطح، وتدلى قضيب من المكان الذي كانت فيه المروحة ذات يوم.

سهرنا طوال الليل، ثلاثتنا فوق فراش واسع. ظلت أمي في المنتصف، وفي الصباح رأينا أشجار جوز الهند وأكواما من الزجاجات البلاستيكية. دستة رجال لفوا قماشا حول الجذوع وتقدموا ببطء في طريقهم إلى القمة. سقطت الثمار مثل القنابل.

على البُعد، بين سرب الأطراف الداكنة، رأيت المحيط.

أعدت بيبر بيضا ونقانق جوا المميزة من أجل الإفطار، وقامت بقلي (بوي)[40] في الزبد على الموقد. وكان هناك مخلل سمك لاذع وقد لانت أشواكه وصارت هشة. خلف قضبان النافذة، كان الولد الصغير يضع إصبعه على زناد مسدس بلاستيكي وهو يشاهد توم وجيري على تليفزيون صغير. كان يهلل كلما أمسك توم بالفأر، ويسدد مسدسه اللعبة إلى جيري عندما يفلت. بعد إطلاق النار، كان يقرب فوهة المسدس من فمه وينفخ الدخان المتخيل بعيدا.

كانت بيبر تندفع داخلة وخارجة من المطبخ. وقد ظهرت حلمتاها البنيتان من خلف قماش فستانها. كانت بشرتها ملساء باستثناء ندبة التطعيم المستديرة على ذراعها. حشوت فمي بلحم الخنزير الأحمر.

ركبنا حافلة صاعدة إلى الشمال وسرنا هابطين دربا ملتويا إلى الشاطئ. دفعتني أمي لألتصق بحيطان الأكواخ الأرجوانية والقرمزية عندما مرت بنا الدراجات البخارية وهي تهدر. كانت الشمس حامية، لكننا تتبعنا

40- هناك طبقان يحملان هذا الاسم؛ poi: الأولى حلوى شائعة في دولة ساموا وتصنع عن طريق هرس قطع الموز في لبن جوز الهند، والثاني شائع في هاواي ويتكون من عجينة مهروسة مخمرة تصنع من القلقاس.

النسيم، ورائحة السمك القادمة من السوق، وأصوات الرجال والنساء.

كان الشاطئ طويلا وخاليا، باستثناء كوخ وحيد حيث كان يجلس الشباب الهيبيز وأبناء المنطقة تحت مظلات بلاستيكية. كانت الرمال ذهبية ومغوية، وانطلقنا عليها.

حبات الرمل بين أصابع أقدامي بدت غريبة، ومؤلمة تقريبا.

سألنا رجل من الكوخ إن كنا نرغب في شراء بعض الماء. قالت أمي وريزا معها ربما بعد قليل وشكراه. كان يرتدي قميصا انطبعت عليه كلمات ما في زمن مضى.

جلس وأشعل غليونه. قال إن اسمه هرمان.

أوفرول هرمان المصنوع من قماش الجينز الحائل كان يفتقد أزراره المعدنية، وكان هو يمتلك الكوخ الوحيد على شاطئ ماندريم.

خلع ريزا ملابسه. تركها في كومة، حيث ستبهت بعد بضع ساعات في الشمس. حذت أمي حذوه وطلبت مني أن أنضم إليهما. نظرتُ إلى علامات التمدد على بطنها، وكيف كانت مؤخرتها بها طبقة من الجلد المتهدل.

قالت: «أوه، هيا. ما المشكلة؟»

راقبتهما وهما يدخلان الماء. أخذت أمي نفسا طويلا بشكل مبالغ فيه وغابت تحت السطح.تطلعتُ إلى البحر، إلى الأمواج التي ظلت تجيء، حركة المد والجزر الدائمة. كان من الصعب أن أصدق أن أمي موجودة فيه. تخيلتها تغرق، تفقد الهواء. وعندما صعدت أخيرا، أتى صوت وقوة اندفاعها صاعدة من المحيط ليجعلا قلبي يرتج. «هيا يا أنتارا.» كان ريزا هذه المرة، وهو يطفو على ظهره.

وقفت بخجل وخلعت سروالي القصير. وكان قميصي هو التالي. فكرت في ثيابي الداخلية وقررت أنها لن تصنع فارقا كبيرا عند هذه النقطة. مستخدمة يديّ لتغطية نفسي، تحركت إلى حافة البحر. كانت أمي وريزا يراقباني. بدا الاثنان بعيدين جدا.

التفتُّ ونظرت إلى متعلقاتنا على الشاطئ.

تحركت عينا هرمان من جسدي إلى وجهي. قال: «سأراقب كل شيء. لا تقلقي.»

أخذنا هرمان إلى جوا القديمة، عبر الأقواس والحجارة، آثار زمان ومكان آخرين. وأنا أجر قدميّ على الأرض، وأختبئ من الشمس في الظلال، وأشرب الماء بسرعة شديدة حتى انتفخت معدتي لتغدو ربوة صغيرة.

عند كنيسة (يسوع الصالح) رأينا الرفات المقدس للقديس فرانسيس خافيير.

كان الجسد في تابوت زجاجي، متيبسا تحت أردية ذهبية وبيضاء. كان جزء من الوجنة مفقودا، لكن فيما عدا ذلك احتفظت الرأس بهيئتها. حدقت أمي في جانب الوجه، وجه الرجل. كان وجهها مليئا بتفاصيل مكتومة، مثل تلك التي تراها للتو قبل أن تعتاد عيناك تماما على الظلام.

قال هرمان: «ذراعه مفقود. أرادت الكنيسة الكاثوليكية نقله إلى روما. لكنه ينتمي إلينا هنا. هذا هو المكان الذي كان فيه قومه.»

قلت: «كان الكاثوليكيون قومه.»

هز هرمان رأسه. «لا، لم يكن مهتما بتعميدهم وإرسالياتهم. اعتاد

الناس أن يقولوا إنه ترك الكاثوليكية عندما جاء هنا، وأنه بدأ في ممارسة الديانة المحلية.»

«لكنه قديس شهير، الأشهر في الهند.»

نظر إليّ. «عندما مات، أرادت الكنيسة أخذه، لكن الناس هنا لم يسمحوا لها. لم يتركوه ليرحل. كان مخلصهم، وليس يسوع. يقول بعض الناس إن أهل المنطقة حاولوا أن يأكلوا جثمانه.»

تأملت الوجه الذابل، الأنف التي بدت كما لو أنها قد قُضمت.

قال هرمان: «إلى هذا الحد كان محبوبا. بعد سنوات، أتى الكهنة الكاثوليك في الليل وبتروا ذراعه ليرسلوها إلى روما. وحتى بعد كل ذلك الوقت، مازال الجرح ينزف.» تخيلت الحياة تنبض تحت رقعة الجلد البني.

«إيه يا فتاة، هل تحبين السمك؟»

كان هرمان يتحدث إليّ. هززت كتفيّ.

«تعالي على العشاء. سأصنع لك بعض السمك اللذيذ.»

تلك الليلة، ذهبنا إلى كوخ هرمان مع بيير. أراني كيف أسحب الهيكل العظمي لسمكة زبيدية كاملا. ثم قدم لي العمود الفقري الغريب كخاطب يقدم هدية. مررت بإصبعي على حافة العظام، على الهيكل العظمي الذي بدا أشبه بمشط ذي حدين.

قال ريزا: «أنا مندهش لأنك سبحتِ اليوم.»

شعرت بوجهي يحمرُّ وكنت سعيدة لأن السماء كانت مظلمة.

ابتسم: «لا تكوني خجولة. أنت جميلة، مثل أمك.»

شرب ريزا البيرة وبالم فيني[41]، وحكى لنا **هرمان** عن خططه لشراء منزل برتغالي قديم في الجنوب وتحويله إلى منتجع. قدم عرضا مغويا لبيبر، طالبا منها أن تديره من أجله. ضحكت كما لو كانت خجلة وطلب منها أن تراقصه.

دخنت أمي غليون **هرمان**، وشاهدنا السلطعونات وهي تهرول عبر الشاطئ في الظلام. أشرت إلى كل واحدة وهي تجري بشكل جانبي قبل أن تختفي داخل الثقوب في الرمال.

غصت في ذراعيّ أمي، شاعرة بالجلد المحيط ببطنها عبر رداء الكورتا.

قالت أمي: «في بطني، كنتِ أصغر من واحدة من تلك الحبات من الرمل.»

أومأت برأسي. كان يوما أمكنني فيه أن أصدق أن هذا حقيقي.

راقدا على سرير من الخوص، غطى **ريزا** نفسه بشال أمي. غطى الشال أنفه، وأخذ هو يتنشق رائحته.

كنت أعرف الرائحة التي أمكنه شمها.

راقبني **ريزا** عندما وقفت ورقصت مع **هرمان**. بين ذراعيّ صاحب الكوخ، تركت ثقلي ينفلت. ببطء، ببطء، ببطء، أمالني **هرمان** وانطرحت رأسي إلى الوراء. وعندما تطلعت ناظرة، كان **ريزا** هناك، مقلوبا وواضحا، وهو يراقبنا. في الأعلى، كانت السماء حليبية مرصعة بالنجوم.

أحيانا كانت أمي تأتي إلى حجرتي ليلا، وتنزلق داخل الفراش إلى

41- نوع من عرق جوز الهند ينتج في مقاطعة جوا بالهند.

جانبي وتضغط قدميها الباردتين إلى قدميّ. بعد ذلك كانت تلعب بشعري وتخبرني كم أصبحت امرأة جميلة.

أحيانا، كانت تطلب أن ترى أجزاء جسدي. كانت تحدق فيها وتقارنها بأجزائها؛ كان ثدياها أكبر من ثدييّ، وخصري كان أصغر. كانت تعلق حول كيف أن سماتي الإيجابية كانت من أعراض السن، معلنة بيقين أن قبحي سيفوق قبحها عندما أصل إلى الأربعينات من عمري.

كان تحذيرا كي لا أصبح مرتاحة أكثر من اللازم تجاه نفسي.

تتغير الأشياء دائما، وأنا جيدة فقط طالما لجسدي جاذبية، والتي ستختفي، كما اختفت جاذبيتها.

انتابني إحساس واضح بأنها تسعد بإخباري هذه الأمور، بمعرفة أني سأعاني كما عانت – وجاء عزاؤها من رؤية أن الألم سيستمر ولن أنجو منه.

عندما أسترجع تلك الأيام، أتساءل إن كانت قد رأتني أبدا كطفلة أرادت حمايتها؟ هل رأتني دائما كمنافسة، أو بالأحرى كعدوة؟

كانت سنوات المراهقة تلك هي أقرب وقت وصلت فيه إلى كراهيتها. كثيرا ما تمنيت لو أنها لم تولد قط، عارفة بأن هذا سيمحوني كذلك – فهمت كم كنا مرتبطتين بعمق، وكيف سيؤدي دمارها إلى دماري بلا رجعة.

عندما اختفى ريزا ذات صباح بعد حوالي ستة أعوام في بيتنا، افترضنا أنه ذهب ليصلح آلة تصويره. كان قلقا، مفرط التوتر، وقال إن الوقت قد حان له كي يعود إلى المجال. في أمريكا، كانت الأبراج تسقط. في الهند،

كان مبنى البرلمان تحت الحصار. كنا نصاب بالرعب أنا وأمي كلما فتحنا نشرة الأخبار. رأينا العالم في حالة من الفوضى، لكنه رأى بداية جديدة. كان العالم يتغير، عرف ذلك قبل أي شخص آخر – في المستقبل، سيجري التقاط العنف بأدق تفاصيله. كنا مشلولتين في عجزنا عن الاستيعاب، وسخر هو منا، داعيا إيانا بالغبيتين، وقال إننا بحاجة لفهم أن هذه فرصة.

بعد بضعة أيام، رحل، ولم يعد أبدا.

أحيانا أعتقد أن أمي بدأت في الانهيار بعد ذلك اليوم.

لطالما تساءلت ما الذي أحبته أمي فيه إلى هذا الحد، ولماذا تستمر في حبه. ربما ما يبقى هو الإحساس، أكثر من الشخص. لقد جعلها سعيدة لفترة، ولأنها لا تتذكر إلا المعنى العام الأكبر للأشياء، لم تعد التفاصيل الدقيقة تهم.

لم يكن ريزا باين قط بالناصح الخبير بالنسبة لي. كان فوضويا، ولم يمتلك قط النظام المطلوب لصنع الفن.

على أي حال، كانت أناي قد تكونت قبل أن يظهر بوقت طويل.



نقرر أن جدتي وأمي ينبغي أن تعيشا معا، على الأقل لفترة صغيرة. توافق كلتا المرأتين، لكني أظل متوترة.

أتصل بجدتي. أمي تتدبر أمرها بقدر ما يمكنني أن أعرف، لكن جدتي تتهرب عندما أطرح الأسئلة. تطلب مني أن أركز على حياتي، تخبرني أن كل شيء بخير. أصدقها حتى أتلقى مكالمة في منتصف الليل من خادمة أمي المشلولة من الخوف. تبلغني بأن أمي قد بدأت تتجول شاردة من جديد، حائرة، غير مدركة لمن تكون. يبدو أن بيت جدتي يزيدها ارتباكا.

كثيرا ما تسأل: «أين أنا؟ وأين **أنتارا**؟»

تبحث عني وتتخيل أنها نسيت أن تُحضرني من المدرسة. تحاول أن ترتدي ملابسها وتندفع خارجة من الممرِ المظلم إلى الشارع الخالي. ليس هناك إلا هؤلاء القلائل الذين يصنعون أسرَّة لهم من علب الكرتون المفرودة، وهم يتمددون ويهرشون ويرقبونها وهي تزعج هدأة الليل. حيث تذهب، لا يوجد فرق بين الليل والنهار، ومنطق الزمن والعمر لا سطوة له على خوفها.

أحيانا تصرخ باكية بأنها تريد منا أن نعود، أنها تعرف أننا معا وأنها تريد منا أن نعود، وعندما يسألونها من تقصد، بدلا من **ديليب** ومني تتحدث عن ريزا باين.

يترك آل **جوفرنر** شقتهم بعد أن يصبح خبر علاقة الزوجة العاطفية

معروفا في بونيه. ينتقل إلى الشقة جيران جدد، زوجان إنجليزيان لديهما طفلة ومربية فلبينية يجلبانها معهما من سنغافورة.

تقدم الزوجة نفسها بإناء بلاستيكي يضم كعك مادلين[42] صنعته المربية. اسمها إلين وابنتها لانا، وكلتاهما لها لكنة منطقة كوكني بلندن. للفتاة الصغيرة عينان زرقاوان – زرقة ظننت أنها تخص كالي ماتا فقط حتى الآن. زرقة تجعلني أفكر في الحب والغابات ورائحة اللحم المتعفن. صبغت إلين شعرها بنفس لون شعر ابنتها لكن أعلى رأسها يكشف عن جذور بطول أربعة سنتيمترات من البني الغامق. تسألني بعد ثوانٍ إن كنت أخطط لإنجاب أطفال.

أهز رأسي قليلا.

تضحك وتقول إنها تشعر بأنها محظوظة لأن لديها ابنة، البنات رائعات، الفتيات طيبات جدا، إلا عندما يكن مراهقات، عندئذ يمكن أن يكن عاهرات صغيرات. ترسم بشفتيها كلمة «عاهرات» حتى لا تستطيع لانا سماعها، لكن لانا تراقب أمها وهي تتحدث. أبتسم للانا وألوِّح، وتمنحني ابتسامة خجولة في المقابل.

تربت على رأس ابنتها وكأنها فخورة بها لذلك العرض الصغير من آداب السلوك، وتقول إنها تحب ابنتها وتدللها الآن، بينما تستطيع، لأن كل شيء يتغير بعد ذلك، يصبح كل شيء بعد ذلك متعلقا بالرجال، ومواعيد حفلات الرقص، والماكياج، ومرافقتها في السير عبر الممر بين المقاعد في الكنيسة يوم زواجها، لأن الأم لا تزف الابنة يوم زواجها، وهذا يبدو خاطئا تماما. إنه دائما الأب والابنة، كأنها رقصة بين الأب والابنة

42- كعك إسفنجي صغير يوضع في قشرة من الورق أصله مقاطعة لورين بفرنسا ويصنع من البيض والسكر والدقيق واللوز.

تغيب فيها الأم الطيبة العجوز، الأم التي كانت مجرد علبة لبن.

أومئ برأسي بينما تتحدث، وأخبرها أني لا أعرف الكثير عن الآباء بما أني لم أملك واحدا.

عندئذ بالضبط يظهر ديليب عند الباب ومعه كرة وردية من المطاط يناولها للانا. لا أعرف من أين أتى بها، وأحدق فيه. تبتسم له لانا ابتسامة عريضة. تشكرنا إلين وتقول إنها تحب أن نزورها قريبا.

عندما يغادران يقول ديليب: «أنت دائما حادة جدا. لا بأس بأن تتخففي أحيانا.»

أبدأ في الرسم من جديد، لكنه لا يملأ أيامي وأخرج من البيت لأهرب من الملل. أحيانا أزور إلين على الغداء. تلعب لانا في الجوار، وهي تكلم نفسها بدرجات مختلفة من الصوت. تبتسم أمها بكرم.

تقول: «الأطفال فقط من يكلمون أنفسهم..»

أراقبهما وهما تتبادلان القبلات وتدغدغ إحداهما الأخرى وأتساءل كيف سيبدو طفلي. لطالما اعتقدت بأني سأنجب ولدا، رغم أن فكرة وجود فتاة أكثر تشويقا. أحس بأن ارتباطي بابنة سيكون أكثر عمقا، لكن ربما ستؤلمني مشاعري تجاهها بحدة أكثر من اللازم بعض الشيء. لست واثقة إن كان هذا الألم الاستثنائي سيناسبني.

تضع لانا رباط شعر ورديا وترتدي جوربا عليه نقش لخيول أحادية القرن. تحب أن تُدخل إصبعها في أنفها وتتذوق ما تجده بها.

أزور أمي كل يوم عندما يكون ديليب في العمل. أحكي لها أشياء لا يعرفها أحد آخر لأني واثقة أنها لن تتذكر.

أخبرها أني لا أحب الطريقة التي يضع بها ديليب الشيكولاتة في الثلاجة.

كل ليلة بعد العشاء، يمد يده ويتناول قطعة مربعة.

يقول إنه يحب تغيير مذاق فمه.

سألته لماذا يحب تخزينها في الثلاجة.

وكانت لديه قائمة جاهزة: «إنها تدوم لوقت أطول. وكانت أمي تحتفظ بها بهذه الطريقة. وأنا أحبها باردة. ألا تحبينها باردة؟»

أعطاني الغلاف الورقي المفضوض. نظرت إليه مطرقة في يدي.

ليسيثين الصويا. بندق.

هززت كتفيّ وكأن الأمر لا يعنيني، لكنه بالطبع يعنيني. الشيكولاتة الباردة أصعب في الكسر. وتثير ضجة عندما تنشق نصفين. الشيكولاتة الباردة تستغرق وقتا أطول كي تذوب. لا يمكن أكلها أبدا خلسة أو بكميات كبيرة. آكل صفوفا كاملة من الشيكولاتة مباشرة من الخزانة دون أن يعرف أحد. القوالب في الثلاجة ليست ملائمة لهذا تقريبا.

تقول أمي: «هذا شيء فاحش..»

أحكي لها كيف حزمت حقيبة يد صغيرة، وأخذت جواز سفري وبعض المجوهرات، وتركته ذات صباح. كيف جلست في سيارتي طوال اليوم وأنا أقرض أظافري، فقط لأعود إلى البيت في وقت العشاء. ولم يعرف قط.

*

يشكو ديليب من الصداع النصفي والضعف واضطراب الساقين. تتعرق يداه كلما شرب نبيذا أحمر. أحجز موعدا عند أحد الأطباء وتأتي

تحاليل دم ديليب مقبضة. فقر دم، نقص في فيتامين د، نقص في فيتامين ب 12. ينظر الطبيب إليّ بحثا عن تفسير.

أسأل الطبيب إن كانت هذه المشاكل هي السبب في أعراضه. يسألني الطبيب أين نعيش في بونيه. أخبره. يقول إن واحدة من بنات أخيه تعيش في تلك البناية، وأن ديليب في حاجة إلى مكملات.

أسأله عن يدي ديليب المتعرقتين. «ماذا عنهما؟»

«هل ستتحسنان أيضا مع المكملات؟»

يريح الطبيب يديه على المنضدة ويقول إنني يمكنني الاستعانة برأي طبيب آخر إذا أردت.

في الطريق إلى البيت، نتوقف عند الصيدلية. تصطف الزجاجات على الرفوف بمختلف الألوان والشعارات. ألتقط زجاجة وأنظر إلى الظهر.

«لم أكن لآخذ هذه الزجاجة..» يقول صاحب الصيدلية.

«لماذا؟» الصورة التي على الناحية الأمامية لرجل أشعث بساق واحدة على قطعة من الخشب. تبدو كأنها ما يحتاجه ديليب بالضبط.

«هذا الشكل من فيتامين ب 12 ليس متوفرا بيولوجيًا.»

أحدق فيه بجمود.

«إنه ليس مُمَيثلاً.»

يدعك ديليب عينيه.

«ها هي..» يقول البائع، وهو يجذب زجاجة أخرى من الصف. هذه الزجاجة أرجوانية ومصطفة عليها خيوط الحمض النووي كحقل من

الزهور. «هذا اختيار أفضل.»

أسأله لماذا تقوم أي علامة تجارية ببيع مكمل فيتامين ب 12 ليس متوفرا بيولوجيًا. يقول إنه لا يعرف. ينظر في أرجاء المحل، خلفي أنا وديليب. أدرك أنه لا يرغب في الإجابة على أي أسئلة أخرى.

في الأسبوع التالي، أدرك أني أكره كل شيء في بيتنا.

أشتري مكتبا جديدا ومقعدا دون أن أخبر ديليب، وأبدأ الرسم من جديد. في اليوم الأول أتعرق وتتلطخ يداي الورق. المحاولات التالية أسهل. أحس أني بعيدة جدا عن البورتريه لكني لست متأكدة كيف أبدأ شيئا جديدا. يستغرق الرسم ساعة واحدة فقط من يومي.

أبحث عن مشروعات خيالية أخرى كنت قد دونت قائمة بها في كراسات وأوراق، لكنها لم تعد ذات معنى. تنضب المواءمة من الأفكار، وتتركها جافة يابسة.

تبدو المساحة المربعة الصغيرة لحياتي العملية، بعيدا عن العالم والأصوات الأخرى، قاهرةً اليوم. أتمنى لو كانت هناك طريقة لأحمل عملي خارج هذه الحجرة الخاصة إلى مكان آخر، حيث يمكنه أن يتصادم مع أفكار وأجساد ناس آخرين.

أتصل ببيرفي. لقد مضت بضعة شهور منذ رأيتها لآخر مرة وتفاجأ بسماع صوتي. تقول إنها تفتقد تمشياتنا في النادي. هي تتعلم لعب البريدج والماه-جونج[43]، وقد كونت مجموعة جديدة من الأصدقاء الظريفين في غيابي.

43- لعبة تشبه الدومينو أصلها صيني.

أقول لها إني لست متأكدة مما يجب عليّ أن أفعله، وأني ربما قد فقدت خيالي.

تقول إنها لم تتخيل قط أن عملي يتطلب الكثير من الخيال، وأنه كان نسخا لصورة مرارا وتكرارا.

أوضح لها أني أقصد نوعا آخر من الخيال، النوع الذي يبتكر عالما تكون لعملي فيه أهمية. لكن الأيام تبدو نائية وبلا نهاية، لذا لا يبدو أن الوقت يتحرك.

أسألها إن كانت تعتقد أنني ينبغي أن أحصل على وظيفة. أسمع الابتسامة في صوتها عندما تجيب:

«لا أعتقد أنه من السهل للغاية أن تحصلي على وظيفة في هذه الأيام، وأنت لم يكن لك وظيفة حقيقية طوال أعوام.»

«نعم، أعرف ذلك..» أرد، لكن الإدراك يسري فيّ مثل رعدة. إذا احتجت إلى وظيفة غدا، قد لا أكون قادرة على نيلها. لن تكون لديّ أي طريقة لإعالة نفسي لو تركني ديليب.

لكن لماذا سيتركني؟

لكن لو تركني واضطررت إلى العودة إلى بيت أمي، كيف سأعول نفسي؟ جدي رحل، وجدتي ليست قادرة على الاعتناء بي بالطريقة التي كان سيرعاني بها. أين سأعمل؟

ربما يمكن لبيرفـــي أن تسأل أصدقاءها إن كان لديهم أي سبل. أفر في عقلي قائمة بكل الأشخاص الذين أعرفهم وأحذف هؤلاء الذين لا ينظرون لي بلطف.

وبعد ذلك هناك أمي. سيكون عليّ أن أعتني بها كذلك. ولا علم لي بكم

يمكن أن تبلغ فواتيرها الطبية مع مرور الوقت.

أندفع إلى الخزينة الصغيرة التي ثبتها ديليب في الدولاب وأضغط الرقم السري. ينفتح الباب على مصراعيه وأجذب كومة من الأكياس المخملية.

بعض المجوهرات من أسرتي، بعضها منه. ساعة اشتراها أبوه له.

شخشيخة فضية كانت له وهو طفل. بعض أوراق النقد الأمريكية والعملات الذهبية.

كم سيكون ثمن هذا اليوم؟ أفكر في أخذها لتحديد قيمتها، لكن الساعة الثالثة بالفعل ويمكن أن يصل ديليب إلى البيت قبل الثالثة وخمس وثلاثين دقيقة.

أفكر في كل قرار اتخذته حتى النقطة التي أتت بي إلى هنا، وأتساءل كم يكون ثمنه لأنه كان سهلا.

أتصل ببيرڤـي مرة أخرى وأسألها عن رقم بائع المجوهرات الخاص بها لتقدير قيمة أشيائي.

تقول لي إني أبدو ضجرة. «ربما هذا هو الوقت المناسب لأن تنجبي طفلا.»

طفل.

تضحك وأضحك بدوري، مالئة الصمت بالصوت. طفل. طفل سيشغل الزمان والمكان، طفل سيملأ اليوم. طفل سيربطني على نحو لا رجعة فيه بديليب، ويحولني من زوجة إلى أم. ربما سأكون مقدسة حينها. لا يمكنه أبدا أن يتركني بمجرد أن أكون أم طفله. لن يرغب أبدا في ذلك.

ينفجر الارتياح بداخلي.

في الليل أدخل إلى الفراش دون ثياب عليّ، وبينما نمارس الجنس أهمس في أذنه بأن يقذف بداخلي لأني أنتظر دورتي الشهرية، رغم أني لست كذلك.

من خلال إلين، أتصل بمدربة حياة في المملكة المتحدة متخصصة في مساعدة مقدمي الرعاية للأشخاص المصابين بالألزهايمر وأشكال أخرى من الأمراض العقلية. نحدد موعدا للحديث في الهاتف.

أخبرها أني لم أكن أعرف أن المجال متخصص هكذا. تقول إن مقدمي الرعاية في حاجة إلى رعاية أيضا. أرى لاحقا أن هذه العبارة مكتوبة بامتداد أسفل موقعها الإلكتروني. أريد أن أضحك عندما تقولها، لكن صوتها جاد على نحو خطير.

توقن بأني لم أبدأ في سبر غور الخطر الذي أنا فيه، كيف أن فهمي للواقع يجري تمزيقه إربا.

أقاوم الفكرة في البداية، لكنني سرعان ما أجد منطقا لكلماتها. «من المنطقي أنك ستبدئين في الشعور بأن هذا مزعج. عندما يقول أحدهم إن شيئا ما ليس ما تعتقدين أنه كذلك، يمكن أن يسبب هذا ارتجافات طفيفة في المخ، وتغيرات في نشاط المخ، وتبدأ شكوك اللاوعي في الظهور. لماذا تعتقدين أن الناس يمرون بالصحوات الروحية؟ هذا لأن الناس المحيطين بنا متورطون. الجنون تهمة معدية.»

«هل تقصدين أن أمي ناقلة للعدوى؟»

«لا، لا أقصد هذا. رغم أني ربما أقصد، بمعنى ما. نحن نصنع ذكريات بنشاط، كما تعرفين. ونصنعها سويا. ونعيد صناعة الذكريات أيضا، في

صورة ما يتذكره الأشخاص الآخرون.»

«يقول الطبيب إن أمي قد أصبحت غير موثوق بها.»

«نحن جميعا غير موثوق بنا. يبدو أن للماضي قوة لا يملكها الحاضر.»

«لماذا تفترضين هذا؟» أسألها، وبالكاد أسمع إجابتها. نستمر في قول أشياء واضحة إحدانا للأخرى، أشياء أريد منها أن تقولها؛ لأني في حاجة لأن أسمع شخصا آخر يقولها.

أعرف أني حامل قبل غياب أول دورة شهرية لي. أشعر بجسدي يزداد سمنة، يتمدد بشكل أكثر امتلاء، وأكثر رطوبة، القليل الزائد من كل شيء. لفترة أحاول أن أكبح نفسي، متذكرة من فترة الصبا أن كونك ضخما يعني أن تكون ضعيفا، فاقدا للسيطرة بعض الشيء. أشعر بخوف مألوف. أعرف أني قد خططت لهذا، لكن ربما يكون خطأ. أضع علامة على تقويم حائط بآخر يوم يمكنني فيه القيام بإجهاض آمن. أراقب الأيام وهي تمر حتى أصل إلى نقطة اللاعودة. عندئذ فقط أشعر بنفسي مسترخية، متصالحة مع التحول في الديناميكية، أن شيئا ما ينمو بداخلي الآن ولا يمكنني التحكم فيه ونحن الاثنان تحت رحمة قرارات أحدنا الآخر.

هناك شيء آخر: بدأت أفوح برائحة مختلفة. قرب نهاية اليوم، يكون عليّ أن أستحم. إبطيّ يفوحان برائحة حادة والإفرازات في ملابسي الداخلية تفوح برائحة قوية. أنزعج من هذا الاكتشاف، وأغتسل عدة مرات في اليوم، لكن هذا يؤدي إلى عدوى فطرية وجرعات من المضاد الحيوي وحكة دائمة. أغير الطعام الذي آكله، من طعام كله فاكهة إلى الامتناع عن كل الفواكه، من الصوم إلى الأكل كل ساعتين، لكن لا شيء يبدو نافعا. أشك أن الأمر لا يتعلق بي بل بالبيئة، أني خلية في طبق

بتري[44] قليل الضغط، والروائح تُستخرج مني لصالح التوازن الداخلي. هذا طبيعي، أقول لنفسي.

يدعونا رئيس ديليب إلى وجبة يابانية. المطعم باهظ الثمن، الوحيد من نوعه في بونيه، وطعامنا يُقدَّم في دورات. السمك نيء، أو أحيانا يُدفأ بشعلة صغيرة، قبل أن يُصب يدويا على أسطوانة من الأرز اللزج. كل قطعة تتمدد على الطبق مثل لسان مطيع. يأكل ديليب السلاطة بينما أضع اللقمة في فمي وأشعر بها تذوب. نشاء ودهن وملح. يتفسخ اللحم وللحظة يمكنني أن أقسم بأن فمي يتحلل. أتساءل إن كانت النكهات أكثر عمقا لأن لساني اتصل بمرآة تعكس ذاته، وإن كانت الخبرة في مكان ما بين الأكل والتقبيل. يراقبني ديليب وأنا أبتلع الطعام، ويدق المائدة قلقا بيده الحرة.

أحيانا أتخيل نسخا مختلفة لنهاية قصة حب أمي مع أبي. في خيالاتي الأخيرة، أكون أنا السبب في افتراقهما. تخبر تارا زوجها بأنها ستفارقه، بأنها قد وجدت معلمها الروحي، بأنها تحمل طفله، وينظر أبي إلى بطنها المنتفخ، وللحظة، يتمزق. يريدها ولكنها تصده – الحمل الوشيك، الطفل غير الشرعي. ينظر في وجه أمي الجميل ويعرف أن المخلوق بداخلها يجعل من المستحيل بالنسبة له أن يبقى.

أخبرتني معالجة نفسية زرتها منذ بضع سنوات بإلحاح من ديليب أن مفارقة أمي لأبي، وقيام أبي بتركنا نرحل نحن الاثنتين، قد لوَّنا منظوري لكل العلاقات. اعتقدت أن هذا أسهل من اللازم قليلا وقلت هذا.

تساءلت: «وألا يوجد منطق في رغبة الناس في الرحيل؟»

44- طبق شفاف غير عميق يستخدمه علماء البيولوجيا في زراعة الخلايا والفطريات واستنباتها.

دوَّنت المعالجة النفسية شيئا وسألتني أن أوضح.

قلت لها إن البقاء لا يملك الجاذبية، أو السحر، الذي يملكه الهروب. أن تبقى يعني أن تكون رزينا، أن تكون مذعنا، أن تؤمن بأن هذا هو كل ما سيكون هناك إلى الأبد. ألسنا مخلوقات صُنعت من أجل البحث والتقصي والسيطرة؟ ألم ننشأ كي نؤمن بأنه يمكن أن يكون هناك دائما شيء أفضل؟

«أنا لا ألوم أمي..» أقول للمعالجة النفسية، رغم أني أعرف أني ألومها ولطالما فعلت ذلك.

«هل شعرت بالقلق وأنت طفلة من أنها ستهجرك؟ هل تشعرين بالقلق من أن تكوني مثلها الآن؟»

توقفت عن الذهاب إلى المعالجة النفسية بعد ذلك بقليل لأنها كانت تسأل أسئلة أكثر من اللازم. ألم يكن عملها أن تجلس وتنصت؟ في الحقيقة، كان الأسوأ من فكرة هجر والديّ كل الأسئلة غير المجابة التي طرحتها، الأسئلة التي تستمر في الطفو حولي. في كل مرة أقترب من إجابة إحداها، تؤكد سلسلة كاملة من الشكوك الأخرى وجودها. أتساءل عن الرعب الذي لا بد أن شعر به علماء الفيزياء عندما فشلت قوانين نيوتن تحت عدسة ميكروسكوب. لقد تمادوا أكثر من اللازم قليلا. لا بد أن كثيرين منهم قد تمنوا لو أمكنهم ألا يروا ما شهدوه وأن يعودوا إلى زمن أبسط. نحن نتبدد بالأسئلة. حتى علامات الاستفهام بدت دائما غريبة بالنسبة لي؛ منجل ممتد من يد كابوس ما.

2002

أصبحت فنانة في اليوم الذي قُبلت فيه في مدرسة الفنون. لا يهم أني لم أحضر. أنهيت مستواي الثاني عشر بدرجات أقل من المقبول، لكن مدرسة ج.ج للفنون في بومباي رأت ميزة في رسوماتي.

حاولت أمي أن تمنعني من الذهاب. طلبت المال من جدتي كي أسدد رسومي.

كان البروفيسور **كارهادي** رساما وسيكون مستشاري. كان غاضبا عندما قلت إني لم أرسم.

«الدورة الدراسية التي انضممت إليها مخصصة للرسم والتصوير.»

قلت: «أفهم هذا، لكني لن أتمكن من الرسم والتصوير. أنا سيئة جدا حين يتعلق الأمر بتعدد المهام.»

لم يعتقد أن هذا سبب مقبول. لم تكن الدورة الدراسية مرنة بهذه الطريقة. بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن يكون الرسم والتصوير هما نفس الشيء. يمكن أن أتعلم حب أحدهما كما أحببت الآخر. يمكن أن يكون التصوير هو المنتج النهائي، لكن سيكون للرسم دائما مكان. كان بمثابة التجهيزات، العظام، الأساس.

قلت: «بالضبط..» هذا هو ما كنت مهتمة به. ألم تكن العظام هي الجزء الجوهري، السرمدي؟ ألم تكن العظام هي ما ستستخرجه الأجيال

القادمة وتتعجب لمرآه؟

قال: «لن تعرفي إلا إذا غصتِ فيه..»

لكني كنت أعرف. عرفت أني لن أعود إلى السطح. أخبرته أني، مثل الدورة الدراسية، غير مرنة.

تركت مكتبه حاملة ملف رسوماتي تحت ذراعي وعرجت على جاليري جهانجير للفنون، حيث كان الطلبة يبيعون أعمالهم على الرصيف. ركعت لأنظر إلى لوحة لشاب. كانت مكتملة، بضربات فنية غليظة. بدا الرجل منتفخا تحت ثقل الألوان الزيتية. شيء فيه بدا غريبا، مثل ممسحة سكبت دما على الورق.

أحسست بثقل حملي، وناولت ملف رسوماتي لمجموعة من الأطفال الجالسين على انحناءة (بيت الإيقاع). ما كنت أريد أن أفعله لا يتطلب معلما.

لم أخبر جدي وجدتي بقراري، لكني ظللت ضيفة تدفع ثمن إقامتها لدى امرأة عجوز كانت تعيش بجوار محطة إطفاء كولابا. خلال النهار، كنت أقرأ عن الفن الحديث والمعاصر، مضيفة وحاذفة من اللوحات في الكتب. نظرت إلى الصور القديمة، الصور التي جمعتها كالي ماتا وغلفتها في ألبوم من أجلي. قطعت الوجوه، الأشياء التي لم أستطع تذكرها، التي لم أرغب في تذكرها، وحولتها إلى فراغات سوداء. لصقت الصور فوق ورق وأعدت رسم الأجزاء الفارغة كما أردتها أن تكون.

في المساءات، كنت أستعير أثواب الساري القطنية الخاصة بصاحبة البيت وأحضر الافتتاحات والحفلات في المعارض الفنية حول المدينة. تحدثت إلى بعض الناس. غالبا كنت أرتشف النبيذ وأتشرب ما كان يملأ المساحات البيضاء.

علمت أن ما فعلته طوال حياتي له اسم. تدخلات. كنت أقوم بتدخلات لمدة عشر سنوات. ميزت بسرعة ما كنت أحبه، ما ظل مثابرا في عقلي. كان التصوير مجرد انطباع. أما الرسم، كما رأيته، فكان الشبكة. الأرض، الجدران، السماء. كل الأشياء الحقيقية ولكن غير المفهومة. كانت المدينة تتغير كل يوم، جسور، ناطحات سحاب، فنادق جديدة. منازل بنغالية برتغالية الطابع وصغيرة سُويت بالأرض كي تفسح الطريق لمراكز التسوق.

أراد الجميع البناء. أنا فقط من كانت لديّ الرغبة في التجرد.

هذا التحليل يبدو مضحكا الآن. الحقيقة أن الرسم كان هو كل ما أعرفه. كان آليا، شيء أفعله في نومي. حتى الآن لا يمكن لإدراكي أن يعي تماما التعقيد الرطب للألوان. أينما نظرت، أرى خطوطا.

نضع أمي في مرسمي مرة أخرى. سترافقها كاشتا، وتنام على الأرض إلى جوار السرير المفرد، مع تعليمات بمراقبتها ليلا ونهارا. أخلي المرسم من أغلب محتوياته وأضعها في صناديق. يتساءل ديليب أين سيذهب الطفل.

أقول: «في حجرتنا..»

«وأمي؟» تخطط أمه للقدوم كي تحضر الولادة. «أين ستقيم؟»

أخبره أن بإمكاننا تحويل واحدة من أرائكنا إلى سرير قابل للطيّ. يبدو منزعجا من الاقتراح، لكنه لا يجادل.

أضع لأمي نظاما غذائيا من دهون مختلفة. قرأت أن المخ الحارق للدهون هو مخ نظيف. أما المخ الحارق للسكر فيكون ملوثا. وضعتها على نظام معززات حيوية مع حقن شرجية بالقهوة من وقت لآخر. أنا صارمة وقاسية – طاغية واقفة على طبقها. تأكل ثمرات الأفوكادو المستوردة في كل وجبة، وأتخلص من كل السكر الموجود في البيت.

في الصباح، نراجع معدلات الكيتون لديها ونسجلها في دفتر. لو أمكن اختزال كل هذا إلى مشكلة متعلقة بالأيض، إلى ميتوكوندريا ضالة، إلى فشل الموت المبرمج للخلايا، عندئذ سنضبط الأمر. معا سنجد الحل.

أضيف القليل من المستخلصات العشبية إلى نظامها اليومي. جذر

أستراجالوس والقليل من البربارين. خلال أقل من ثلاثة أيام، يبدو مخها المقاوم للإنسولين أكثر انتباها. تسألني بمَ أشعر، إن كان الحمل يسبب لي أي مشكلة.

أبكي عندما تقول هذا. لقد أخبرتها بأمر الطفل من قبل، لكنها تصرفت دائما كما لو كانت معلومة جديدة.

أخبرها باعتقادي أننا ينبغي أن نجعلها تصوم. تبتسم.

لقد قدَّرت أن لديها ما يكفي من مخزون الدهون للعيش عليه لمدة مائتي اليوم. ذلك وقت كثير كي يتغلب مخها على اعتماده الفاسد على السكر.

«تقصدين أني لن آكل شيئا؟ لمدة مائتي يوم؟»

أضحك. «لا، ليس كل هذا الوقت. لا تقلقي يا أمي. سنفعل ذلك سويا. أنت معي الآن. سأعتني بك.»

تلك الليلة في الفراش، أُخرج دفتر اسكتشاتي لأول مرة منذ أسابيع. أبدأ في رسم سحابة المخ التي رسمتها في عيادة الطبيب في العام الماضي. سحابة مندمجة في سماء داكنة. في الأسفل، أعيد رسم المشهد الذي قدمته للطبيب. هذه المرة، الرسم محكم. هذه المرة، لن يجد شيئا ناقصا.

أبدأ بأشكال ذات خطوط بسيطة، وأملؤها بالدروع لأميز فريقها وأعداءها: كرات الدم البيضاء في مقابل مركبات الأكسجين التفاعلية. على الأرض توجد الأجساد الميتة، الخلايا التي سيجري إخلاؤها. أما الخلايا المصابة فترفع رايات بيضاء، مشيرة لحالتها الجريحة، ويجري التخلص منها. تنادي المذبحة على آلة الالتهام الذاتي، لتظهر من ثقب في الجو، كمخلوق أسطوري له أطراف عديدة. في الخلفية، بقية الكوكب في حالة

من السلام. تتابع الأعضاء أداء وظائفها، يسيطر التمثيل الغذائي على الوضع بلطف. تستقر جزر لانجرهانس[45] الصغيرة في البحر البعيد.

كلمة Autophagy، من اليونانية، تعني التهام الذات. أستمر في الرسم، أستمر في تمني أن يحدث هذا في جسدها، آملة أن أتمكن من فعل ما لم يفعله أي أحد آخر، أن أجد علاجا من خلال بحثي المتواصل.

تزمجر معدتي. تتحرك الحرارة من صدري لكنها تتوقف قبل أن تصل إلى أطرافي. أرتعد.

في الصباح، أصحو على الشمس التي تعمي الأنظار. الحجرة قائظة.

عندئذ فقط ألاحظ أمي في الحجرة. ألتفت إلى جانب ديليب من الفراش. هناك فراغ مجعد حيث نام. أنا أتعرق وحلقي مشتعل. أشم رائحة البخور. تهدر معدتي، وأتذكر أني لم آكل منذ بعد ظهر الأمس.

أقول: «أين ديليب؟» صوتي أجش.

ترد: «المكتب.» هي في كامل ثيابها، ترتدي حذاءها للسير، كما لو أنها على وشك الخروج. تلتفت عني، ويداها في الصناديق التي تحتوي ما كان يوما مرسمي.

النظام الحريص ينهدم. الأشياء ملقاة على الأرض ماثلة.

زجاجات ملونة.

عملات من فترة ما قبل الاستقلال. قصاصات من الجرائد والمجلات.

45- مجموعات صغيرة من خلايا البنكرياس تظهر على هيئة بقع صغيرة مختلفة في الشكل والوظيفة عما حولها من خلايا البنكرياس ولذلك تم تسميتها بالجزر.

أشعر بموجة من الذعر، تتصاعد لتغدو دوارا عندما أحاول الوقوف.
تسأل: «كيف حصلت على هذه؟»

«ماذا؟» أقول. أرفع عنقي، لكني لا أستطيع رؤية ما في يدها.

«هذه.» تلتفت. إنها صورة فوتوغرافية ثلاثة × خمسة.

أشعر بالدم يتصاعد إلى وجهي. هل هي الحرارة مازالت؟ لا أريد الحديث عن الصورة الآن. ألم أدمرها؟ لا أريد الدخول في هذا الموضوع.

أقول: «لا أعرف.»

يمكنني أن أعرف من وجهها أنها لا تصدقني. لديها نوع من صفاء العقل لم أره فيها منذ زمن. الطعام، أو الصوم، أو ربما الصورة قد لمست ذكرى ما.

أمي مغلفة بذلك النوع من المعرفة بأننا على حافة شيء ما، وألا شيء بعد ذلك سيكون كما هو أبدا.

«كيف حصلت على هذه؟» تكرر. عيناها متسعتان، ويداها قابضتان بقوة على الصورة.

أقول: «لا أذكر. ربما أنا من التقط الصورة.»

تهز رأسها ببطء وتضع الصورة على الفراش. بشرة ريزا بنفس لون غطاء سريري. يتطلع إليّ من الصورة، التي تغضنت حديثا بيد أمي.

«لم تلتقطيها، لأني من التقطها. كانت المرة الوحيدة التي سمح لي فيها بلمس كاميرته. كاميرته الثمينة.» تشير إلى التفصيلة في الخلفية، ملصق الفيلم المبهرج الألوان، إلى القميص القطني الكاروهات الذي ارتداه وهو يضبط وضع سيجارة خلف أذنه.

«إذًا ربما وجدتها. وجدتها في البيت واحتفظت بها.» تجلس على حافة الفراش وتسوي الملاءة.

«كانت مازالت في كاميرته عندما غادر. لم يكن قد حمَّض الفيلم بعد.»

تقلب أمي الصورة. النص المكتوب على ظهرها يقول: «ج. ميهتا وأبناؤه، مومباي.»

تمرر أصابعها على الكلمات وتنظر إليّ. «لقد تم تحميضها في بومباي.»

أشهق وأزفر، لكنها تتحدث قبل أن أتمكن من الكلام.

«عرفت أنك كنت تخبئين شيئا عني. عرفت عندما رأيت معرضك.»



2003

للنبيذ نكهة حمضية.

أعيد ملء كوبي البلاستيكي الشفاف بمزيد من السائل من الزجاجة ذات الغطاء البرغي.

أنثروبوفاجيو. مقال القوميسير المسهب والموضوع في لوح من الإستنسل على الحائط يُعرفه بأكل لحوم البشر؛ الذي كان مفهوما هاما في تاريخ الفن البرازيلي لوقت طويل. يؤدي الدمج والهضم إلى إنتاج شيء جديد. شيء نوعي. الفنان العارض اليوم عاد للتو من فترة إقامة في مدينة بيلو هوريزونتي.

فنان آخر أشاركه سيجارة في الخارج يدعو العمل بالمستنسخ. أشير إلى بعض الأخطاء النحوية في النص. نقهقه ويُخرج سيجارة محشوة وملفوفة بإحكام. أنا مهووسة ببول ثيك[46] حاليا، منجذبة إلى حقيقة أنه بدا وكأنه لم يوجد. كان يظهر قليلا، كملاحظة جانبية أو يد شبح، لكنه لم يظهر قط باعتباره الحدث الرئيسي.

يومئ الفنان الآخر برأسه ويتابع ليحكي لي عن مشرفته في كيب تاون. كانت معلمة سميوطيقا وكان فمها دائما ملونا بلون أحمر كالرمان. كانت تتحدث بحماس عن كيف يبدو جيلنا غريبا ونائيا بالنسبة لها،

46- بول ثيك (1933-1988) رسام ونحات وفنان تقني أمريكي.

جيل مهووس بالتليفزيون والجنس الفموي، وأصرت على أن ممارسة المص ممارسة نوعية ثقافيا وبشكل مؤقت.

وقالت ضاحكة: «هل فكرتم للحظة في أن جداتكم خطر ببالهن أصلا وضع الأعضاء التناسلية لأزواجهن في أفواههن؟»

تضيع بقية قصة الفنان عليّ عندما يظهر وجه أعرفه بالقرب من وجهي. يبتسم الوجه.

«ريزا؟»

«كيف حالك؟ ماذا تفعلين هنا؟» يضمني في عناق طويل. أشم الويسكي والعرق فقط عندما يتحرك مبتعدا.

فيما بعد، أشعر به يراقبني. نحن في شقته المكونة من حجرة نوم واحدة. شربنا المزيد من النبيذ في الافتتاح قبل أن أوافق على مغادرة المكان معه.

هو واقف إلى جوار حوض قذر، مليء بالأطباق، وكومة من الملابس غير المغسولة. يقول إن خادمته لم تأتِ اليوم. لا يأتي على أي ذكر لزوجته. أتساءل إن كان يعني بـ «الخادمة» زوجته لكني لم أسأل لأني أخشى كسر السحر الذي نسجه الكحول.

يثير البيت بأكمله شعورا بالتحلل. يزعجني، لكن يبدو من الطيب أن يزعجني ريزا من جديد، حكة مألوفة.

يسألني إن كنت أريد الخروج. «إلى أين؟»

يقول لمقابلة أصدقائه. أومئ برأسي، وأدرك أن أمي لم تلتقِ قط أيا من أصدقائه. يبدو من الطيب أن أفعل أشياء لم تفعلها هي قط.

ليس في أصدقائه شيء خاص لكني أريد أن أنبهر. هناك **ناميتا**، بحلقة تمر عبر منتصف أنفها. يمكنها لمس الحلقة بلسانها، وهزهزتها إلى الخلف وإلى الأمام. هي أكبر مني، لكن ليس كثيرا. يأتي خليلها، **كاران**، أيضا. لا يترك البيت قط دون موسيقى ومخدرات. يهرش لحيته كثيرا ويزم شفتيه عندما يفكر بعمق.

نذهب إلى حفلة سرية خارج المدينة، في غابة خلف ضواحي بومباي. يستغرق الوصول إليها ساعتين. المواقع دائما مجهولة حتى اللحظة الأخيرة، وننطلق في سيارات مستعارة عبر الليل، باحثين عن علامات يدوية الصنع لترشدنا في الطريق. الكهرباء مشكلة، لكن **كاران** يوصل سماعات الستيريو ببطارية السيارة. يخلطون البودرة ومكعبات السكر في زجاجات الماء قبل أن يمرروها. يحذرني **ريزا** كي آخذ رشفات صغيرة.

الموسيقى ترج الأرض. أقاوم الرغبة في تغطية أذنيّ. أشعر كأني بليدة، كأني غريبة، كأني كل الأشياء التي أطلقت عليّ من قبل.

ناميتا ترقص وحدها على مسافة. الحلي في ثقوب أنفها تلمع وشعرها يتأرجح خلفها. تلوِّح بقصبة مموجة، مكسوة بالضوء، مكسوة بالعسل، لزجة كبدايات العالم. ترقص، داهنة بها الأشجار والأرض مع كل خطوة.

يراقبها الرجلان، مضيقين الدائرة التي صنعتها. يدقان الأرض في سيرهما، كأنهما جنديان في انتظار الأوامر. تجذبهما هما الاثنين أكثر، مختفية بين جسديهما. ومضة باللون الأحمر، وومضة باللون الوردي. أغمض عينيّ نصف إغماضة. لقد فقدت أثرها. لم تعد **ناميتا** أكثر من حيز فارغ، شبح حوَّله الحلم إلى شيء موجود.

لقد رأيت هذا من قبل. كنت هنا من قبل.

تتغير الأغنية أو يبدو أنها تتغير وأشعر بنفق في أذنيّ ينفتح. يغدو

الليل أكثر سطوعا وينتشر الوهج على الأرض من حولي. يتأرجح العشب. بقع ضئيلة من الحياة ترتعش على كل نصل ورقة، على قطرات الندى، على الماء والصمغ. تنمو الزهور وسط الخضرة الخائفة، وسط الحجر. كل برعم شيء يدور. أراقب الزهور وهي تلتف، تدور مثل المراوح، حتى تقفز فجأة إلى السماء مثل النحلات الخشبية عندما كنت طفلة.

القمر مكتمل، بركة زئقبية تموج بالحياة، وتمتد رؤوس صغيرة لتتفرج على الراقصين، متنادية بلغتها الخاصة قبل أن تغطس مباشرة في اللون الرمادي.

تمر أذرع من فوقي، سوداء كأرجل العنكبوت، تجذب قميصي، وتزحف فوق بطني. يهمس ريزا بشيء في أذني، لكن كل ما يمكنني رؤيته هو يداه. يدان سوداوان، نصف بشريتين، نصف حشريتين.

يقول: «اشربي ماء..»

ألتفت لأنظر إلى أنيابه وأذرعه العجفاء. الغابة كثيفة، وسرعان ما تتغير الموسيقى، تصير السماء أكثر عتمة. أرى ثعبانا ينسل بالجوار. يراقب أحدنا الآخر. أريد أن أتكلم لكن الكلمات لا تخرج. لقد فقدت اللغة. يتحرك الثعبان نحوي، في كامل النمو، ملوحا برأسه، مصرا بأسنانه. يمر تحت الأرض، وفوقها، شاقا طريقه بين ساقيّ، وللحظة أتساءل إن كنت ألده. أعثر على قدميّ، أقف، وأتتبعه بين الراقصين. ينسل الثعبان متموجا في حلقات، وهو يزداد طولا. بعد قليل، نقع كلنا في الأسر، مقيدين بالداخل. يستمر الثعبان في الدوران، دورة بعد دورة. يتوقف لينظر إليّ قبل أن يختفي، قبل أن يتحول إلى خندق مليء بسائل لامع.

«أنتارا، اشربي بعض الماء.»

لا أتذكر كيف غادرنا أو أين ذهبنا، لكنني استيقظت راقدة إلى جواره.

مازالت الأصوات على سطح جلدي. نحن وحدنا، لكن الحجرة تبدو مليئة. يشعل شموعا ومصابيح كيروسين، ونتفرج بينما تدخل آلاف المخلوقات من الليل.

تتصادم الحشرات عند النوافذ المكسورة حتى تجد الشقوق. تحيط بالمصابيح، تحتشد حولها، راسمة بطيرانها خرائط من النيون – العثة والخنافس. تنقر هياكلها الشريطية ألواح زجاج النوافذ. الزجاج اختراع قاسٍ. يصلح لسجن بلا قلب.

في الصباح، الأجساد متناثرة حولنا. وجدوا طريقهم إلى الداخل، ملايين من حشرات العثة، وهلكوا في الحجرة الدافئة. الهواء غليظ وثقيل، وقلبي يدق عاليا. ألتقط المخلوقات من شعري ومن بين الملاءات الرطبة. تتمدد من حولي، على ظهورها، وأرجلها مرفوعة في الهواء، قبيحة وميتة في نور النهار. بعضها مدفون في الشموع، محفوظ كالحفريات. كانت حية عندما جمد الشمع، حيث تحول عالمها إلى بياض أبدي.

ينظر ريزا إلى الحشرات. يقول: «لا بد وأنها اختنقت.»

أدرك أنه عارٍ.

أحاول أن أشيح بوجهي لكنه يُقبّلني، وفمه، مثل صنارة صيد السمك، يسحبني من جديد، وأنا أتنفس بالكاد.

نصل إلى افتتاح معرض متعانقي اليدين. يثير هذا نظرات من هؤلاء الذين على معرفة بفضيحته الماضية وبادعاءاتي المستقبلية.

دُعيت لأن أكون مشاركة في هذا المعرض لكني رفضت العرض. يحب القوميسير المسؤول أن يجمع المجهولين الجوعى حوله – وعندما يحققون

نجاحا كبيرا، يطالبهم بمنحه قطعة من أعمالهم مقابل اكتشافه لهم. كما أن لديه سمعة بأنه يسكر ويدعو النساء بالمومسات.

يتوقف ريزا أمام لوحة كبيرة. على قماش الكانفاه ملصقة صفحات من كتب جرى انتزاعها. الإطار مصنوع من أغلفة التجليد. النص غير مقروء لكنه يتريث عنده، مائلا، محاولا أن يقرأ المقاطع. إنها صفحات من كتب لماركيز، مختارات من القصص القصيرة، مترجمة إلى الفرنسية والبرتغالية والهولندية.

لا يعطي المكان للمعرض حقه. بشكل عام، يبدو متراخيا، سيئ التعليق. فقد المشروع حماسه في النهاية، فقد الفنانون الاهتمام – منحوه أعمالا قديمة من التزامات أخرى، وحاولوا أن يجعلوها تتلاءم داخل حدود رباطه القوميسيري.

القوميسير بالفعل في كأسه الثالث من الويسكي. يسب قليلا عندما أهنئه. تثير أنفاسه بعض الخوف في عقلي الباطن.

تذكرت عندما دعاني لأن أكون جزءا من المعرض. تلقيت مظروفا في البريد -خطابا عاجلا من القوميسير، بوابة دخول- مكتوبا بخط يده على قطعة ورق ممزقة من كراسة. كانت مقطعا من رواية (مائة عام من العزلة)، كتاب لم أكن قد سمعت به قط، ناهيك عن أن أكون قد قرأته: رجل يفقد كلماته، ويسعى كي يتذكرها بالطريقة الوحيدة التي يعرفها – يضع بطاقات تحمل أسماء كل شيء يملكه، مغطيا عالمه دون انقطاع بعباءة من اللغة، ليحمي نفسه من خطر الصفحة الفارغة. يستمر في ذلك، حتى يتبين له عقم مسعاه، وأن عمله سيكون بلا جدوى عندما تتبخر من عقله القيمة المحددة لكل حرف في النهاية.

عندما أعود إلى الشقة التي أقيم فيها كضيفة تدفع ثمن إقامتها، تسلمني صاحبة البيت قطعة من الورق كتبت عليها المكالمات الهاتفية التي فاتتني، والأسماء مدونة بالترتيب. وكل حرف يميل إلى الخلف على نحو خطر، كما لو أنه يحدق في السماء، وأتساءل كم استغرقها من الوقت حتى تدرب يدها اليمنى على أن تفعل ما كان ينبغي أن تفعله يدها اليسرى. اسم **كالي ماتا** هو الاسم الوحيد الموجود. لقد اتصلت بي أربع مرات في الأيام القليلة الماضية.

أكرمش قطعة الورق في يدي. وهناك في حجرتي، أبدأ في تمزيقها إلى قطع أصغر وأصغر.

أكره **كالي ماتا**. لا أعرف لماذا، لكني أكرهها.

أكره الأسئلة التي تسألني إياها في الهاتف. إن كنت آكل جيدا. إن كان لديّ ما يكفي من المال. أكره الحديث عن فني، محاولة أن أصيغه كله في كلمات لها، بينما في النهاية هي لا ترد عليّ إلا بمزيد من الأسئلة.

أكره سماع أي شيء عن بونيه. غادرتها حتى لا أضطر إلى سماع شيء عنها مرة أخرى.

أكره أن اسمها يتتبعني في كل مكان، مكتوبا على قصاصات من الورق كل يوم، مرة بعد مرة، أحيانا **كالي ماتا**، أحيانا **العمة إيـڤ**، بينما أمي غائبة أبدا. كان الأمر ليغدو أسهل لو تمكنت من قتلها فقط، في القصة على الأقل – وأخبرت الجميع أن أمي ميتة.

لذا أفعلها. أبدأ في نشر الكذبة، ببطء في البداية حتى تشتعل مثل نار متوحشة. أتلقى التعاطف والتعازي. يحدق ريزا فيّ لوقت طويل عندما يسمعني أقول الخبر لأصدقائه. تقرقر معدتي في الداخل. لقد أعددت رواية أكثر إحكاما من أجله. لكنه لا يسأل أبدا. يكتفي بالعودة للنظر

إلى الكتاب الذي يقرأه. في لمحة عين أخرى ينغمس في ذلك العالم، وأشعر بالارتياح لعدم اكتراثه، لكني أشعر بالحيرة أيضا متسائلة لماذا يسبب لي قليلا من الألم كذلك.

لدى ريزا العديد من بطاقات المكتبة المزورة. فهو يأخذ الكتب ولا يقرأها. بدلا من ذلك، يفتحها بشكل عشوائي ويسوِّد كلمات وجملا. ثم يترك الكتب في أرجاء المدينة، وعلى نواصي الشوارع في أيدي الشحاذين.

أسرق أشياء في كل مرة أغادر فيها شقته. بطاقات المكتبة. الحشرات. صورة وحيدة، ثلاثة × خمسة، مثنية قليلا، لوجهه. الصورة الوحيدة له التي يمكنني أن أجدها في مجموعته بجوار صور الزفاف.

«هل أنت واقعة في حب أي شخص؟»

نتمدد على فراشه بعد الظهر. الصيف قائظ، وأنا أنام وأصحو دون استقرار.

أقول: «لا، وأنت؟»

«كثير من الناس.»

لقد نضجت لدرجة الإعجاب بالشقوق الموجودة في جسده. أحاول أن أتصوره عاشقا، لكني لم أختبر هذا بنفسي قط، والصورة التي أستحضرها محرومة من التفاصيل والألوان.

يتنفس من فمه عندما يغفو، ويتمتم من وقت لآخر. ألف ذراعيّ حول صدره وأدفن وجهي في نحره. يبل لعابه شعري بينما أسقط نائمة.

عندما أصحو، أكون مازلت في تجويف جلده المظلم. ثمة حشرجة في

حلقه. هو صاحٍ، يمكنني أن أعرف من أنفاسه القصيرة. مازالت الشمس عالية في السماء ومتوهجة عبر النوافذ، محيلة جفوني من الداخل إلى مشكالات[47].

الجو حار. أجاهد كي أملأ رئتيّ.

أحسب المسافة بيننا بأصابعي. عبر قميصه، أرى خصلا من الشعر، وكرشا صغيرا من الويسكي الذي يشربه طوال اليوم. يراقبني وأنا أقترب ببطء لأسد الفجوة. لا يوجد أي إجبار بيننا. لا شيء يحدث كي يملأ الصمت. أعرف أني في مكان ما بين الرغبة والشك.

أرفع ساقي وأضعها حول فخذيه.

يمسح شيئا من داخل عيني ويُقبلني. لعابه دائما نحاسي الطعم. أهرش التجاعيد الداكنة المحيطة بكوعيه. بشرته خشنة مثل الجلد المدبوغ.

ننام أنا وريزا معا منذ عدة أشهر الآن. لا نتحدث أبدا عن الموضوع، لكنه يحدث بانتظام. لا يهتم ريزا كثيرا بالمداعبة. يؤلمني دائما عندما يدفع نفسه بداخلي. نتبادل القليل من القبلات لنغطي على الصوت الناعب في حلقي.

تذكرت دهشتي عندما تركنا ريزا، دهشتي من قدر العمق الذي تشربناه به، وبعد ذلك كيف تبخر تماما. هل كان موجودا أصلا؟ هل تخيلنا وجوده؟ أكان من الممكن لأي شخص أن يكون جزءا من كل لحظة ومع ذلك لا يترك خلفه أي أثر؟

بحثت عن آثار أقدام، لكني لم أجد شيئا. هل يصدق أحد أننا لم يكن

47- المشكال أنبوب مرايا به خرز ملون، وحصى، وغير ذلك من الأشياء الملونة الصغيرة. ينظر المشاهد من أحد الأطراف ويدخل الضوء من الطرف الآخر، منعكسا من على المرايا.

لدينا صورة فوتوغرافية واحدة؟ لم نكن أنا وأمي من النوع الذي ينغمس في التقاط الصور، لكن كانت هناك صور لنا. أدركت، عندئذ، أنه كان دائما خلف الكاميرا، يقتنص ما يراه بعينيه، لكننا لم نقتنصه قط.

عندما يختفي مرة ثانية، في بومباي، بعد أربعة أعوام من لقائنا بالصدفة في الجاليري، لا أشعر بالدهشة.

ليست إلا حمقاء من كانت لتشعر بالدهشة.

الحزن الثقيل الذي أحمله لفترة صغيرة يظل حزنا خاصا.

أعود إلى بونيه دون الدرجة العلمية التي غادرتها من أجلها، صانعة نوعا غريبا من الفن يقلق أسرتي. أقضي عامي الأول بعد العودة وأنا أعمل على منحوتة من قشور المانجو المجففة المحفوظة في غاز الفورمالديهايد، والتي أستخدمها كأساس لطبع أوراق النقد فئة المائة روبية. وثمة فيديو لي وأنا أقطع وآكل كل المانجو في جلسة واحدة مسجل ليصاحب العمل. يفشل المشروع بسبب أخطاء في خلط المذيبات الكيميائية. أصاب بطفح جلدي على ذراعيّ يستغرق شهرين كي يُشفى تماما.

عندما أنتهي، تعقد أمي ذراعيها حول جسدها وكأنها تغطي جرحا. أشعر أني أفضل بطريقة ما، أني أخف. تتثاءب معدتي وتقرقر. «هل هذا كل شيء؟» تقول. «أحذرك، أريد أن أعرف كل شيء، وإلا سأخبر ديليب أي نوع من الأشخاص أنت وأي نوع من الفن تصنعين. كنت أعرف دائما أن وجودك سيدمر حياتي.»

داخل صدري يمكنني الشعور بمنبه يصاب بالتلف، قلبي يرتعد في قفصه. لكن الحركة تظل محبوسة هناك – أما في كل جزء آخر فأنا هامدة متجمدة. أنفاس أمي متسارعة. حبات عرق تظهر عند خط شعرها وتندفع هابطة على جانب وجهها. الحجرة دافئة على نحو لا يطاق.

تقول: «قولي شيئا، أيتها العاهرة. هل أنت صماء بكماء؟» يتلعثم صوتها حتى ينحبس. وقبل أن أتمكن من إبداء أي رد فعل، تبكي مدارية وجهها في كفيها.

أنظر إلى أمي – كيف دخلت؟ ألا أغلق الباب عادةً بالمفتاح؟ أتمنى لو أغلقته، أو لو أغلقه ديليب عليّ. أتمنى لو لم أكن جامعة للأغراض الغريبة، من الأشياء والناس.

لماذا دعوتها إلى هنا بينما كل ما أريد فعله هو طردها؟ لماذا لم أخبر ديليب بكل شيء عندما واتتني الفرصة؟ لماذا لم أدمر الصورة؟ ظننت أني فعلت ذلك – كنت متأكدة أني قطعتها بالفعل. هل تطلعت إليها ولففتها من جديد في ورق الزبد؟ هل كانت فكرة مفارقتها إلى الأبد

أصعب من اللازم؟

إذًا ماذا لو عرف؟ نحن على وشك أن ننجب طفلا معا. أنا في أمان. لا بد أني في أمان. الأمومة هي آأمن مكان عرفته على الإطلاق. أسرتي الصغيرة هي حصني.

لكن العلاقات هشة. أفكر في ديليب، جالسا قبالتي على المائدة كل ليلة، يراقبني وأنا آكل اللحم في مرآة، محبطا.

ديليب، الذي يعرف أني أحدق كل يوم في وجه رجل آخر، رجل أحببته، رغم أنه أحب أمي أولاً. وليس لديه خيار.

يمكنها محاولة أن تكون متسامحة قليلا. متسامحة قليلا مع الابنة التي عانت على يديها ومع ذلك ظلت هناك من أجلها. لقد أخبرتها، أليس هذا كافيا؟. لقد اعترفت بكل شيء وشاركتها ما لم أشاركه قط مع أي شخص، وهي مازالت تهددني. تهدد زواجي في بيتي. بينما أجلس في فراش الزوجية. في حضرة طفلي الذي لم يولد بعد.

أطرق ناظرة إلى يديّ. إنهما ترتعشان.

يبدأ جهاز حفّار عمله في الخارج ويتصاعد الصوت داخل الحجرة مثل سرب غاضب من النحل. أشعر برغبة في إغلاق النافذة أو الهروب من خلالها. أسترخي داخل اللحظة ويبدأ كل شيء في التباطؤ، حتى الصوت. لو ألقيت نفسي من النافذة، سأخسر كل شيء. نفسي، طفلي. وأمي، مازالت تبكي. ماذا لو دفعتها خارجا؟

أفتح فمي وأمتص الهواء. أنا آمنة. «كيف استطعتِ؟» تهمس، متنهدة.

أقول: «لا بأس.» أقف ببطء وأفرد جسدي. لقد تزايد حجم الدم في جسدي، والحركات المفاجئة تجعلني أرى النجوم. لا بد أن أكون آمنة.

ليس لديّ خيار.

تبدو أمي فزعة وتقف أيضا. «لا بأس؟» تشهق وتنشج. «لا بأس، سأخبرك بأي شيء آخر تريدين أن تعرفيه.» ألتقط الهاتف من المنضدة وأطلب رقم السائق. «لكن أولا، علينا أن نتناول الإفطار. أنا حامل، أتذكرين؟»

تنظر إلى بطني وتومئ برأسها، وتقودني خارجا إلى حجرة المعيشة.

أعد المائدة بالبسكويت والخبز والمربى. أرسل الخادمة لتطلب بعض السكر من الجيران. وخلال عشرين دقيقة، يدق السائق جرس الباب. ويناول إيلا علبة حمراء مألوفة.

أقول: «اعطيها لي...» تناولني إياها في طاعة.

أقص الشريط وأنزع الغلاف. أسفل فرخ من ورق الزبد تستقر دستتان من بسكويت (مازورين). أدفع بالعلبة في اتجاه أمي. تلقي نظرة بداخلها. ثم تلتقط اثنتين ملتصقتين معا. تدفع بهما إلى داخل فمها، وتتنهد.

انحدارها إلى الهاوية سريع. أضع السكر بالملعقة في فنجان شايها بعد الظهر وأقلب. لدى ديليب اجتماع على الهاتف مع مكتب الولايات المتحدة ويأتي إلى البيت بعد العشاء. لا تلاحظه أمي وهو يدخل عبر الباب. تبتسم، محدقة في الفضاء الخالي أمامها.

الغفير يسقي النباتات في الأسفل. الأوراق المتحللة تطلق عفصها[48]؛ والبتلات داكنة كالشاي.

أتشبث بحافة الشرفة. أحشائي تتمزق.

لقد أعددت حقيبتي بالفعل. **ديليب** يصيح من الباب. **كاشتا** تركع بجانبي، محاولة بلطف أن تدخل شبشبي في قدميّ، لكن أصابعي متورمة ولا يناسبها الدخول في الحلقات الجلدية.

تبتسم أمي لي، سمكتي الذهبية السعيدة. تقف إلى جوار النافذة وتخطو قليلا إلى الخلف وإلى الأمام. تخطر لي فكرة عابرة بأنها لن تكون آمنة وحدها. أتصل بجدتي وأطلب منها أن تأتي.

سائقنا لا يظهر في أي مكان. يوقف **ديليب** توكتوك. سائق التوكتوك لديه أخاديد داكنة حول عينيه ووشوم تسم ذراعيه. يرفع يده بالتحية. يلتفت الغفير ويتناثر الماء من خرطومه، مصيبا طرف ثيابي. يتقاطر الماء البارد على الجلد الدافئ المشدود لكاحليّ.

على حِجري، يمكنني أن أرى ذلك التل الذي يشكل بطني وهو يتحرك. إنه بالفعل لا ينتمي لي، هذا المخلوق. لديه بالفعل عقله الخاص. أحاول تخيل نفسي دون التل. لا أستطيع تذكر هذه الإنسانة. أتساءل كيف سيكون شكل جسدي الآن. هل سيكون هناك ثقب في المركز؟ هل سأكون

48- محتويات فجوية ذات خواص فينولية، توجد ذائبة أو مترسبة في خلايا النسيج الضام أو الحشوي لعديد من الأنواع النباتية.

كعكة محلاة سمينة؟ تجعلني الفكرة أشعر بالغثيان. أو ربما هذا هو مقابل الألم. فجأة، لا أريد أن أتركه. ينبغي أن يظل معي، بداخلي، إلى الأبد. أراقب التل للحظة، قبل أن أدير وجهي خارج التوكتوك وأتقيأ.

*

فيما بعد، يخبرونني أنها بنت. بالأحرى، أسمعهم يقولونها لبعضهم البعض. الطبيب للممرضات، والممرضات لديليب.

يتهامسون: «بنت.»

يتحدثون إلى بعضهم البعض وكأني لست موجودة. بنغمات منخفضة، حتى لا تزعجني. ثم أدرك أن الطفلة في الحجرة. يخطر لي أنهم يتهامسون من أجلها الآن. لا يمكنني أن أحدد من وجه ديليب إن كان سعيدا أم منزعجا.

يراقبون وجهي وأنا أحمل الطفلة لأول مرة. للطفلة تلك الرائحة الحلوة للسوائل المحيطة بالجنين على وجهها. تبدو هادئة – لقد مرت عبر شيء مظلم وجاءت إلى النور. نور من الهالوجين، والفراشات الدقيقة تصطدم بالمصابيح.

لا أشعر بالكثير وأنا أحملها، لكن عندما يأخذونها أعرف أن هناك شيئا ناقصا.

كلهم ينتظرون أن أقول شيئا. أعرف أني ينبغي أن أعبر عن الفرحة، وأني إن لم أفعل سيعتقدون أني محبطة لحصولي على ابنة. أني امرأة متعصبة. من حثالة الأرض.

أريد أن أؤكد لهم أني لست محبطة، لكني لا أستطيع إظهار البهجة أيضا. ربما أكون متعبة أكثر من اللازم. ربما هي الرغبة المستمرة في

إعادة حشو الصرة الصغيرة بداخلي، مثل اللحم في جلد السجق.

أنا جائعة.

أحدق في وجه البنت الصغير لأني لا أعرف أين أنظر. رأسها مستدير. لا تشبه أحدا، لكن عندما تغلق عينيها يمكن أن تكون قطة نائمة. لا أبالي كثيرا بالقطط. أو بالناس الذين يشبهون الحيوانات.

أحاول أن أبتسم، لكن كل ما أستطيع تدبره هو نظرات الارتياح الفارغة. الارتياح لأن الألم قد توقف. وكل شيء يأتي الآن ما هو إلا تابع من توابع الزلزال.

تعاني الطفلة من مشكلة في القبض على حلمتيّ. لم يذكر أحد أن هذه يمكن أن تكون مشكلة. أبدأ في الاعتقاد بأني المرأة الوحيدة في العالم التي لديها حلمتان دون المستوى. تحاول إحدى الممرضات المساعدة. تدس بعض المناديل الورقية في جيبها وتهب للعمل عليّ. هي ممتلئة الجسم ذات بشرة داكنة وترتدي ثوبا أبيض ذا أزرار زرقاء. شعرها مسجون في ضفيرة لكن الخصلات المجعدة تتمرد. تتعامل مع الوزن الثقيل لثدييّ.

لا يمكنني أن أقرر ما هو أصعب، المخاض أم الرضاعة. بالطبع، ألم التقلصات لا شبيه له على الأرض – لكنه ينتهي، في النهاية. والآن، تمتد أمامي ساعات الرضاعة.

هذا هو اليوم الأول فقط.

ثدياي ضِعف ما كانا عليه من قبل. ومهبلي مسرح جريمة.

هل حدث هذا بين عشية وضحاها، أم كنت دوما مشوهة بعض الشيء؟ تظهر خطوط أشبه بخيوط الفضة. أم ترى كانت دوما موجودة؟ ربما لم

أستطع فقط أن أراها. تزداد الحلمتان دكنة وتصبحان كبيرتين كصحون الفناجين. يتشقق الجلد وينزف. في الليل، أضع مطهرات عليهما لأتجنب الحك.

في اليوم التالي، تنام الطفلة في مهد بالقرب من سريري. شعرها أسود، وبشرتها صفراء بسبب إصابتها بحالة بسيطة من الصفراء. أتساءل إن كانت مريضة، لكني لا أملك شجاعة أن أسأل. ماذا لو أن الإجابة نعم؟ سأكون الملومة. عندما تتثاءب الطفلة، ينفتح فمها واسعا وأرى حافة لثتها الوردية.

تأتي بيرڤـي بهدايا ذلك اليوم. تجلب لعبا للأولاد والبنات. تقول إنها أرادت أن تكون مستعدة لأي ناتج. وملابس أيضا، في ورق لف معدني، تتراوح المقاسات على البطاقات من ستة شهور إلى سنة.

تقول بيرڤـي: «ستنمو الطفلة فيها..»

يطلق ديليب مزحة حول إن كانت ستعيش كل هذه الفترة. لا يضحك أحد. في الحقيقة، أشعر بالإهانة. كنت قد نسيت أمر زوجي حتى الآن. هو الشخص الوحيد الذي ظل سالما عبر كل هذا. أنا والطفلة مجروحتان ومكدومتان. يبدو متعجرفا، فخورا بنفسه أو بعائلته. لديّ الرغبة في سؤاله ماذا فعل لأيٍّ منا.

تشوه تقطيبة جبين الطفلة. تعكس عبوسي. على الأقل أعتقد أني عابسة. ألمس جبهتي. نعم، هناك تغضنات. أتساءل إن كانت قد شعرت بضيقي. أم كانت هي من عبست أولا؟

أتساءل إن كانت تحلم، وماذا تحلم به. في نومها، تمط شفتيها كامرأة

عجوز. تبدو شبيهة بعض الشيء بأمي، بجدتي. تشبه بداية الحياة نهايتها على نحو وثيق جدا. أرى ذلك هناك، في ذلك الوجه الحكيم، خطة للعيش حتى عمر طويل مديد.

تصل حماتي في اليوم التالي. لقد اتصلت بالفعل بالمُنجِّم مخبرة إياه بتاريخ ووقت الولادة. تتجلى حروف، حروف ستكون ميمونة عند اختيار اسم لها.

تقول: «الحروف هي (أ) و(ڤـا)، مثلما كانت حروفك يا **أنتارا**.»

أهز رأسي. لم تكن هذه حروفي. أسمتني أمي لأكون خصمها. وينبغي أن تكون لابنتي حروف مختلفة عن أمها.

تضحك أمي. لقد نسيت أمرها وهي واقفة خلف كتفي. تقول: «**أنتارا**، سأسمي طفلتي **أنتارا**.»

الجميع صامتون. ألتفت وأبتسم لها. «أنا هنا يا أمي.» أحدق في وجهها. وجهها مشرق. أتساءل أين هي الآن، ومتى ستقرر العودة إلينا، وتسكن الجسد الذي لا تقيم فيه إلا قليلا.

«هناك الكثير من الأسماء الجيدة..» تتابع حماتي، وكأن لا شيء غير عادي هناك. «أنجالا، أمبيكا، أنيشا.»

«لا. ولا واحد من هؤلاء.»

«لا يمكننا فقط أن ندعوها بالطفلة إلى الأبد.»

الطفلة. الطفلة اسم جيد بما يكفي. اسم سهل، بلا معنى، يخص كل طفلة في العالم. أتمنى لو كانت **كالي ماتا** هنا. كانت لتعرف بالضبط ماذا ندعوها. لقد أسمت كثيرا من شيوخ السانياسا طوال تلك الأعوام، مبتكرة شيئا من اللغة السنسكرتية، مكونة سلسلة من الأصوات معا ستدعوهم

إلى مصائرهم.

أتمنى لو كانت **كالي ماتا** هنا. كانت لتحب هذه الطفلة. كانت لتعرف ماذا يجب فعله بالضبط. مع الطفلة. معي. مع أمي.

تدخل الممرضة ذات الأزرار الزرقاء إلى حجرتي.

تقول: «ينبغي أن تستريحي لبعض الوقت.» جانب أنفها يبدو محمرا. لا بد أنها مصابة بالبرد. لا أريدها أن تلمسني. وبالقطع لا أريدها أن تلمس الطفلة.

أحاول أن أغلق عينيّ لكنني لا أستطيع أن أشيح بناظري بعيدا عن النافذة. السماء نار شاحبة. ليس الوقت متأخرا إلى هذا الحد، مازال بالإمكان العثور على بعض الألوان. يشق النور طريقه إلى الداخل. على البُعد، هناك الشوارع الصاخبة وأعمدة الدخان المتوهجة.



ماتت كالي ماتا في شقتها وظلت أربعة أيام قبل أن يكتشفها أحدهم. كانت على مشارف السبعين. الخادم الذي كان مفترضا به أن يكنس بيتها يوميا لم يذهب. رفضنا أن نعطيه راتب الشهر الأخير. بعد موت بابا، لم يعد لكالي ماتا الكثير لتفعله في الأشرم، لكني سمعت أنهم دفنوا ثيابها السوداء أسفل شجرة التين البنغالية العجوز قرب قاعة التأمل.

منذ عام، قمنا أنا وديليب أخيرا برحلة إلى بوشكار لننثر رماد كالي ماتا. عندما نظرت في الصندوق، ذهلت من أن امرأة ضخمة هكذا يمكن أن يحتويها ذلك الحيز الصغير. بدا الرماد نظيفا وانتابتني رغبة في أن أضع بعضه على جلدي.

هز ديليب رأسه. كيف يمكن لي حتى أن أفكر في هذا؟ لم أعرف. لم أستطع أن أشرح له كم كنت أريد أن تصبح جزءا مني.

كانت مدينة بوشكار باردة ذلك الشتاء، وتشاركتُ في غليون شيلام[49] مع متسول عجوز يجوب الأزقة قرب معبد براهما.

لم يوافق ديليب. «هذا مقرف. هل رأيتِ أسنانه؟» كان المعبد برتقاليا مثل الشمس الغاربة، ومع خفوت ضوء النهار بدا داميًا. شعرت بالخدر وتتبعت بقرة بيضاء وحيدة كانت تخطر برقة. لم تعرف قط ثقل النير وكانت تجوب الشوارع في حرية. عبر الممرات الضيقة للمدينة القديمة،

49- أنبوب تدخين مخروطي الشكل كان يُصنع عادةً من الطين، وقد استخدم لأول مرة في الهند في القرن الثامن عشر.

حيث كانت الأبواب مغلقة كالمتاريس وبيوت الهافيلي[50] مسكونة بالقرود والناس، تفرقت الحشود لتسمح لي بالمرور.. أنا والبقرة.

أكان هذا حقيقيا، أم كان مسرحا معدا لنا فقط؟

كان غليون الشيلام قويا. لا بد أن كالي ماتا قد سارت في هذا الطريق، عبر نفس الأزقة، أرملة شابة، أم بلا أطفال. بدت جدران المدينة زرقاء في منتصف النهار، وانعكس اللون من على البقرة، جاعلا إياها قزحية الألوان، في مكان ما بين السماء والماء. حاولت أن ألتقط صورا لها، لكني لم أستطع اقتناص اللون. جلست البقرة عند حافة مجموعة درجات تؤدي إلى النهر وتتبعناها إلى هناك، جالسين على مبعدة بضع خطوات. أردت المزيد من الشيلام لكني قنعت بالهواء المدخن.

نقر عازف على آلة السنطور. كانت زوجته ترتدي فستان جاجرا شولي التقليدي، ملطخا عند حاشيته، وصديريا مغلق الأزرار. غطت رأسها بطرف وشاحها الدوباتا وغنت نغمات نمطية مصاحبة له. استيقظ طفلهما النائم، ناهضا من عربة أبيه اليدوية الخشبية. رمق الطفل بقرتي المنيعة والتفت إلى أمه. جلست الأم القرفصاء وهي تغني، ومؤخرتها تحوم مقتربة من الأرض. رفع الولد قميصها وكشف ثدييها الداكنين. استطعت أن أرى حلمتيها. كانتا تبدوان ككدمتين. وقف أمامها ورضع، وجذبته إليها، وصوتها يتعثر بينما تحتضن رأسه.

التفت الولد ونظر إلينا، مبتسما ليُظهر أسنانه الحادة. ثم التفت مرة أخرى إلى ثدي أمه وعضها. صرخت من الألم لكنها استمرت في الغناء، دافعة الولد بعيدا وصافعة إياه على خده. لستُ وجهي. عاد الولد إلى مخبئه.

50-هافيلي هو منزل مستقل تقليدي أو قصر في شبه القارة الهندية، وعادةً ما يكون ذا أهمية تاريخية ومعمارية.

تعبت من هذه الطفلة.

متطلباتها كثيرة للغاية، وجائعة دائما للمزيد.

لقد أصبحتُ خط تجميع. كل جزء شيء عرضي، لا يكتسب أهمية إلا إذا استطاع أداء وظيفته. يقطر اللبن عندما تبكي ابنتي، ملطخا ثيابي. في المرآة، أرى بطني، داكنة وذابلة كبلحة. أحاول أن أغطيها بيديّ عندما يدخل ديليب الحجرة.

لا أستطيع تخيل ما يفكر فيه عندما ينظر إليّ، وأحاول ألا أكون وحيدة معه أبدا في أي مكان. هو سعيد سعادة غامرة بالطفلة، ولا يستطيع أن يتحمل صوت صرخاتها.

لا يوجد أبدا ما يكفي من الوقت للنوم. أتمنى لو كنت قد استرحت طوال سنين حياتي. أتمنى لو كنت قد فعلت الكثير من الأشياء. بدلا من ذلك، فعلت كل الأشياء التي أفعلها الآن. أجلس في البيت. أحدق في الجدران.

لم أكن قط مدققة في مسألة السلوكيات، لكن هذه الطفلة لا تلتزم بالرسميات. إنها عاهرة صغيرة وقحة فعلا. ليس لديها أي فترات صمت مهذبة.

أتساءل كم يستغرق الأطفال من الوقت حتى يكبروا، وفي عقلي أضع مؤشرات المراحل المفصلية، التي مازالت بعيدة جدا. عندما ستسير الطفلة، عندما ستأكل الطفلة وحدها، وتستحم بنفسها. عندما سيكون

للطفلة حياتها الخاصة، وتنطلق إلى العالم.

هناك أيام أخرى أحس فيها أني لن أدعها ترحل أبدا.

تبدو الطفلة صغيرة جدا أحيانا. كان ديليب على حق – من العجيب أننا لم نقتلها بعد. هي موجودة من يوم إلى آخر؛ حياتها ذات سطوة لكنها هشة. ظننت دائما أن الأطفال يجيئون إلى عالم آبائهم، لكن ربما العكس هو الصحيح. يمكنني أن أرى نفسي في ابنتي. يبدو كما لو أني، من خلال هذه الولادة، قد اكتسبت توأما.

أحيانا أغتاظ عندما يساعدني الآخرون – عندما تُحمِّي كاشتا أو حماتي الطفلة، أو إذا هدهدها ديليب عندما تبكي. أكره فكرة أنه لا أحد يترك أمي تحملها، أن لحمي ودمي ممنوع من العناية بها. أصر أن يتركوا أمي تعتني بها. وأقابل كل الآراء المعاكسة بغضبي.

عندما تكاد تنزلق من ذراعيّ أمي، أستسلم. ترمق حماتي ديليب بنظرة مذعورة.

لو تركت عقلي يعود مسافة كافية، أشعر بالغيظ لأنهم قطعوا الحبل السري دون إذني. لا أحد يخبرك بالقصة كاملة، لا أحد يبلغك بحقوقك كأم. كنت لأحتفظ بالحبل السري لوقت أطول. لقد قرأت أن هناك فوائد صحية للطفل في الحفاظ على الاتصال لأطول وقت ممكن.

تخدش الطفلة وجهها، وأستجمع شجاعتي كي أقلم أظافرها. ترتعش يداي في المرة الأولى التي أمسك فيها بالمقص الصغير الملتوي. أتفصد عرقا. تنام الطفلة. في النهاية، أجمع قلامات الأظافر. كومة من الشظايا البيضاء الصغيرة تستقر على راحة يدي. أحتفظ بها قرب جانب سريري

حتى تلقي بها حماتي بعيدا.

تقول: «ادخار هذه الزبالة سيجعلك أكثر جنونا مما أنت عليه..»

تلك الليلة، أفكر في طرق لذبح أم ديليب. بعد أسبوع، أجمع الدفعة التالية من قلامات الأظافر وألفها في منديل وأضعها في دولابي.

هذا هو الجنون. أشعر به – أخطو نحوه يوميا. لكنه جنون ضروري، لعل الخلق لم يكونوا ليتكاثروا قط دونه.

تمر الأسابيع.

في النهار، لا يمكن إخفاء شيء. لا الأخطار ولا المخاوف. لا رائحة اللبن المتعفن، ولا العروق الخضراء أسفل عينيّ. يمكنني أن أرى شعري ينحل في الضوء الباكر. بقع من قشر الشعر تتجمع بامتداد مفرقي. تمر أيام كاملة قبل أن أتمكن من غسل وجهي. أمر بلساني على أسناني وأتلمس الغشاء البكتيري الرقيق.

يوقظني ذات صباح صوت خبطة مدوية.

لقد سقطت الطفلة من فوق الفراش. وهي تصرخ بعلو صوتها.

يندفع ديليب داخلا. يجدني أنا والطفلة نبكي. أقول: «لقد أسقطتها، لقد وقعت.»

يومئ برأسه. تتحرك عيناه فوق الأرضية ليجد البلاطة المذنبة. أسمع نفسي أقول: «لا أعرف إن كان يمكنني فعل هذا.» أهتز إلى الخلف وإلى الأمام. أمسح أنفي بكم الطفلة، محتضنة إياها بقوة.

أقول في عقلي: «لا أعرف إن كان يمكنني فعل هذا.» أدرك من وجه ديليب أني قد قلت هذا بصوت عال.

«لا بأس، لا بأس. ششششش.» حماتي في الحجرة. لم أرها وهي تدخل. تأخذ الطفلة في ذراعيها المتينين. تستقر الطفلة في لفافة من الدهن.

تقول حماتي: «أتعرفين؟ لم يكن لديّ خادمة عندما كنت في سنك، وكان عليّ أن أفعل كل شيء بنفسي في البيت كله. وحيدة تماما، في الولايات المتحدة. أقطع الخضروات، أطهو كل الطعام، أقوم بالغسيل – أنت تعرفين أن الأطفال يتسببون في الكثير من الغسيل. ولا تنسي، لديّ زوج له متطلبات. طعام ساخن على المائدة، ثلاث مرات في اليوم. لكني استطعت، أليس كذلك؟ انظري إلى ديليب، هو مازال حيا، أليس كذلك؟ لم أذهب هنا وهناك وأتركه يسقط من فوق السرير. وكان موقفي سهلا. اثنان فقط. ما بالك بالناس الذين لديهم ستة أطفال؟ هل يمكن أن تتخيلي؟»

تستمر في الحديث حول كيف كانت الأشياء صعبة. هذه القصص مُررت من الأمهات إلى البنات منذ كان للنساء أفواه وقصص يمكن حكيها. وهي تضم رسالة أخلاقية ما، طقوس مرور ما. لكنها تنقل أيضا الشعور الذي تعرفه كل الأمهات قبل أن يجيء أوانهن. الشعور بالذنب.

تحاول حماتي أن تتحكم فيما آكل. يجعلني هذا أكرهها أكثر. تضيف السمن إلى أرزي وتعطيني صبغات «لإزالة الغازات» من لبن صدري. أشعر أنها تجعلني أكثر امتلاءا بالغازات. أطلق الريح طوال الليل. وديليب يتظاهر بأنه لا يلاحظ.

أتخيل أنها حيلة دبرتها لتأخذ زوجي وطفلتي بعيدا عني. أريدها أن ترحل، إلى أن يأتي صباح وأجد حفاضة الطفلة البيضاء ملطخة بالدم الأحمر. أصرخ، موقظة البيت كله.

تقول حماتي: «أكلتِ جذور البنجر ليلة الأمس، أليس كذلك؟ قلت لك ألا تفعلين. ماذا تتوقعين من الطفلة المسكينة أن تفعل؟»

بعد ذلك، لا آكل إلا ما تضعه حماتي في طبقي. كل صباح، أبتلع عجينة

سميكة من بذور الحلبة مع إفطاري. تغدو رائحة عرقي أكثر حدة وأضطر إلى غسل إبطيّ في الحوض طوال اليوم.

تأتي بيرڤــي في بعض الأيام، دون سابق إنذار، محضرة الحلوى والهدايا. تمسك بالطفلة حتى يصيبها الملل، ثم تفرد جسدها على الفراش. تشكو بيرڤــي من الإرهاق، من نوع من الحنين إلى البيت، رغم أنها تعرف أنها في البيت.

تهز حماتي رأسها. «بيت زوجك لن يكون أبدا مثل بيت أمك.»

تدير الطفلة رأسها بعيدا عن صدري لتنظر إلى بيرڤــي.

تبتسم، مظهرة لثتها التي بلا أسنان.

أقول: «إنها تحبك. ينبغي أن تأتي بطفل قريبا.»

«ربما. حاليا، هذه الطفلة كافية لنا نحن الاثنتين.»

تنقلب بيرڤــي على جانبها وتستسلم لاسترخاء جسدها الطبيعي، محنية ظهرها حتى يختفي صدرها. أحيانا تعقد ساقيها النحيلتين حول بعضهما البعض مرتين. لا يحب ديليب هذا. يجده مخيفا. أتساءل إن كان زوج بيرڤــي يعرف بأمر إبهاميها المزدوجي المفاصل، أو الطريقة التي يمكنها بها طرقعة ركبتيها بعد الجلوس لفترة أطول من اللازم.

تقول بيرڤــي: «إنها تشبهك.»

أنظر إلى الطفلة. يتقاطر لعاب حليبي أبيض من جانب فمها. يتجمع حول عنقها، ليبل ياقة فانلتها الداخلية. أعود بناظري إلى صديقتي وأعرف ما تفكر فيه. لا شيء يطابق الآخر. تمد الطفلة يدها مرة أخرى

نحو ثديي. بيرڤــي تتفرج. أشعر أني مكشوفة. فجأة لا أحب وجود بيرڤــي هنا، لا أريدها في البيت. تُذكرني بأشياء أكثر من اللازم فعلناها معا. لا أريدها بالقرب من ابنتي.

في الليل، نأكل في صمت حتى تتناهى إلى أسماعنا صرخات آتية من حجرة نومي.

الطفلة مستيقظة، تحاول الهروب من القماط الذي حبستها فيه. طعامي لم آكل إلا نصفه. أرفعها بيدي النظيفة. يدي الأخرى ملطخة، ومبللة باللعاب. هذه الألعاب البهلوانية تبدو عادية الآن.

تقول حماتي: «هل آخذها لبعض الوقت؟» أنا على وشك أن أومئ برأسي، لكن أمي تقف.

تقول: دعوني أمسك أنتارا الصغيرة.»

أقول: «لا يا أمي. تناولي طعامك. لست جائعة.»

في الحجرة، تقرقر معدتي، لكنني أتجاهلها وأُخرج ثديي. ترضع الصغيرة، وحلقها يصعد ويهبط. لقد جف الطعام بالفعل على أصابعي. أصابعي المقلمة والمصفرة.

عندما أنظر إلى النافذة، يمكنني تقريبا أن أشعر بنفسي وأنا أخرج منها، أنطلق، أستنشق الهواء خارج هذه الحجرة الساكنة، فقط خارج الحائط، أقفز هابطة، أتعثر قليلا، ربما حتى أسقط بقية الطريق، أنفض التراب والحشرات الميتة عن راحتيّ وركبتيّ وأجري إلى نهاية الطريق لأجد سائق توكتوك يدخن سيجارة ملفوفة وربما يقبل بأن يأخذني إلى بيت بيرڤــي مقابل نصف الأجرة المعتادة.

أو... لا.

لماذا أذهب إلى بيرفــي؟

يمكنني الذهاب إلى أي مكان، لا شيء يمنعني. ربما أعود إلى محطة القطار في وقت متأخر من الليل، وأقنع بائع الشاي بأن يعطيني كوبا مقابل نصف الأجرة المعتادة، ربما شيء مجاني لفتاة وحيدة، وهناك يمكنني الانتظار. هناك، يمكنني أن أتحرر من كل هذا. من الأيادي القذرة، من نفس الطعام كل يوم، من أمي التي تعتقد أني ابنتي، من حماتي التي تستولي ببطء على هذا البيت. حتى من ديليب. لا يمكنني أن أتذكر آخر مرة أجرينا فيها حوارا حقيقيا.

أفتح النافذة ويدخل الهواء الدافئ، ليلمس وجهي. أحس به مبتلا، الهواء. أتمنى لو يتوقف. أتمنى لو يسكن من جديد.

رأس الطفلة مغطى بشعر أسود. وثمة زغب خفيف أسود يغطي كتفيها. تمص شفتيها في نومها.

النافذة مفتوحة، ويمكن لجسد صغير أن يسقط بسرعة، دون صوت. وقبل الصباح، يمكن أن يرحل. أليس هذا هو السبب في أن النافذة مازالت مفتوحة؟ وإذا لم يكن الآن، إذا لم يحدث الأمر بهدوء في ظلمة الليل، فمتى إذًا؟

ينبغي أن أغلق النافذة. ستمرض الفتاة. الهواء بالداخل سميك وساكن، لكن في الخارج تهب الرطوبة رائحة غادية. هذا ليس هو النوع المناسب من الليل لطفلة أو لأم. هذه الليلة لكل أحد آخر.

النافذة مازالت مفتوحة. مرة أخرى، تبدأ في البكاء. أتمنى لو توقفت. لقد سمعت صرخات أطفال من قبل، لكن صرخاتها أسوأ. فهي أعلى

صوتا، ومُلحة جدا. يبدو أنه لا يمكنني أبدا أن أوقفها. تستطيع ذلك حماتي. ربما يمكنها أن تأخذ الطفلة وتعود بها إلى الولايات المتحدة، وتربيها بنفس الطريقة التي ربت بها ديليب. يمكن لديليب أن يذهب أيضا. يمكنني البقاء هنا وحدي، مع أمي، مع جدتي. يمكنني البقاء هنا وحدي والاستمتاع ببعض الهدوء.

كيف تبدو طفلة ميتة؟ ليس هناك اختلاف كبير بينها وبين الدمية. كانت كالي ماتا لتعرف الإجابة. لقد رأت طفلتها حية وبعد ذلك ميتة.

الطفلة تبكي. يتقلص ذراعاي لدى سماع الصوت. وتتبعهما يداي. تولول وأتطلع خارج النافذة من جديد. أربت على ظهر الطفلة بيدين ثقيلتين، وأنظر إلى أسفل نحو المواسير الطويلة التي تنحدر إلى داخل الأرض، نحو قمم الشرفات، نحو الملابس المعلقة والطيور الصامتة. الغفير هناك بالأسفل، مختفٍ في الظلال، نائم في نوبة عمله.

لا بد أن الجو هادئ هناك بالأسفل. ليس بعيدا جدا، لكنه أهدأ بكثير.

في الصباح، تفتح حماتي الباب دون أن تطرقه وتشهق.

الطفلة تنام على كومة من البطاطين على الأرض. الفراش مجرد من كل شيء إلا من حشية واحدة. أنا جالسة على حافة الفراش، ومازلت أنظر خارج النافذة.

أدعك وجهي. يمكنني الشعور بالحمرة تنتشر عبر مقلتيّ عينيّ. تسأل: «ماذا حدث؟» نظارتها الملطخة تقف حاجزا أمام عينيها، وبؤبؤا عينيها يصعدان ويهبطان مثل سمكتين تتمايلان في الماء. لقد رأت ابنها نائما على الأريكة، مطرودا من حجرة نومه، ممنوعا من الوصول إلى سريره

ماركة (كاليفورنيا كينج). هي غاضبة، غير موافقة على الطريقة التي دبرت بها ظروف النوم لطفليها ليلة الأمس.

«لم تستطع النوم على السرير. كانت أكثر سعادة على الأرض.»

«هل نمتِ على الإطلاق؟»

«لا، ليس بالفعل. كنت بحاجة للتفكير.»

«فيمَ؟»

«الأسماء. كنت أفكر في أسماء لها.»

تأتي لتقف أقرب إلى السرير. للحظة تشعر باستياء أقل قليلا نحوي. فمها يكاد يرتعش.

«لقد قررت أنه ينبغي لكما أن تختارا. أنت وديليب.»

يتفتح وجهها كله. لا يمكنها أن تكبح سعادتها. «هل تعنين هذا؟»

«ولماذا أقولها لو لم أعنِها؟»

تقول، متمالكة نفسها «هل هذا ما تريدينه فعلا؟»

«بالطبع.» النافذة مغلقة الآن. لا أعرف متى قررت في النهاية أن أفعل ذلك. الضوء يصنع خطوطا من ألوان الباستيل في الزجاج المخدوش. هل أستحق أن أسميها بعد الليلة الماضية؟

لأمي اسم جميل. تارا. ويعني النجمة، اسم آخر للإلهة دورجا. مثل كالي ماتا.

أسمتني أنتارا، وتعني المودة، ليس لأنها أحبت الاسم لكن لأنها كرهت نفسها. أرادت أن تكون حياة طفلتها مختلفة عن حياتها بقدر الإمكان.

كان اسم **أنتارا** في الحقيقة يعني نقيض-تارا... ستكون **أنتارا** عكس أمها. لكن في عملية فصلنا، اصطدمت إحدانا بالأخرى.

ربما كنا لنغدو أفضل حالا لو لم تتم تسميتي لأكون نقيضا لها. كيف أمنع نفسي من صنع نفس الخطأ؟ كيف أحمي هذه الفتاة الصغيرة من نفس العبء؟ ربما هذا مستحيل. ربما هذا تفكير متفائل تماما.

الطفلة نائمة أخيرا. تزفر بعمق، بثقل. يندفع الهواء داخلا وخارجا من رئتيها، ليمدد جوفها. أضع يدي قرب أنفها. للحظة، ابنتي تنفث نارا، وأقرر أن أناديها **كالي** عندما لا يكون أحد في الجوار.

إذا كان إطعام الآخرين شكلا من الحب، فإن تناول الطعام نوع من الخضوع. الوجبات حوارات، وما لا نقوله يتبقى في الطعام. في الدراسات العلمية، تبدأ الفئران الخاضعة لنظام غذائي محدود السعرات الحرارية في أكل بعضها البعض.

في محيط المختبر، عندما تطوّق الفئران بنسيج مقاوم للهب داخل قدم مربع، تسقط ميتة في غضون أسبوع.

هناك بعض المتغيرات الأخرى التي يجب وضعها في الاعتبار، لكن الرسالة واضحة. أفتح النوافذ على مصاريعها وأملأ الموائد بالطعام.

أنا وديليب لا ننفرد ببعضنا البعض أبدا. لا نتحدث كثيرا، والحقوق الزوجية شيء من الماضي. نريد فقط أن نبقى واقفين على أقدامنا.

في الليالي التي أنام فيها، أحلم أحلاما شديدة الوضوح بأن الصباحات جافة مثل كرات القطن، لحظة استيقاظ ضبابية مع نغمة شجية قادمة من المسجد في نهاية الشارع.

حماتي مبالغة في التملق، تدعوني بالجميلة، وبملاكها الغالي. لا بد أنها قرأت أن الطريقة المثلى للانتصار على فتاة، الفتاة التي سرقت ابنك، هي أن تجعليها تصدق أنها قد تجاوزت مكانه في قلبك. اقتليها باللطف.

أحلم بقتلهم جميعا أحيانا. لست أنا، لكن نسخة مني، أنا مذكر، أنا

بعضلات. وتُترك أجسادهم لتتعفن. ينزفون ألوانا مختلفة، وأنيكا سعيدة بأنهم موتى وتعرف أنهم جميلون بهذا الشكل. نحرقهم سويا ولا نتأثر بسخام أو حجر صوان.

أنيكا. أسموا ابنتي أنيكا. إنه صوت يصدر عن الطيور المتزاوجة. اسمها غير مكتمل، عصر جديد، بلا مبرر. عندما سألتهم ماذا يعني الاسم، لم يستطيعوا أن يجيبوني، لكن حماتي قالت إن الناس يمكنهم أن ينادوها باسم آني اختصارا عندما تذهب للدراسة في الخارج. تقول جدتي إنه اسم للإلهة دورجا، وهو ما يرضيني قليلا، لكني أشعر بالغضب من جديد عندما أبحث عن الاسم وتكون أول نتيجة تظهر لي هي السيرة الذاتية لنجمة بورنو أمريكية.

يتساءل ديليب مرتبكا من أسئلتي: «إذا كنت لا تريدينني أن أختار، فلماذا تخليت عن سلطتك؟»

كل ما أعرفه أن نوعا ما من الجنون ينتابك عندما تنحبس بين الجدران مع نساء كثيرات هكذا. جنون ما ينتصب عندما تكون الطريقة التي تعرف بها الوقت هي معدلات الماء في مزهرية ورد.

أحتضن أنيكا بقوة كل يوم وأضبط هذا النشاط بعداد وقت حتى تتذكر وفرة الحب والعاطفة الجسدية التي تلقتها وهي طفلة. أثر ما من الشعور، بالانضغاط، تقييد تدفق الدم، دفء جسد آخر، قد يبقى معها. يحب الأطفال الرضع أن يُقيَّدوا، أن يشعروا بالحماية والتطويق – أي شيء يذكرهم بالرحم. بعد يوم من هذا، لا يحب الطفل الاهتمام. تعلن هذا. فهي لا تفهم كم هي محظوظة، وتحتج.

أبدأ في التساؤل إن كانت محظوظة – وإن كنت مخطئة. ألا تريد أن

يدثرها جسدي؟ هل الإحساس بتلقي القبلة أقل متعة من الإحساس بمنحها؟ لقد قرأت أن الصغار يجدون الكبار مرعبين وقبيحين، أن جلدنا الخشن وأجسادنا الكبيرة منفرة بالنسبة لهم. يمكنني تقريبا أن أتذكر شعوري بهذه الأحاسيس وأنا طفلة – أنه حتى أجمل الكبار كانوا يبدون قذرين وبائسين. ربما، فيما بعد في الحياة، ستهرب من هذا البيت. ربما ستهرب مني. ربما تخلق أمهاتنا دائما نقصا فينا، ويستمر أطفالنا في تحقيق النبوءة.

*

تراقبني أمي ولا يمكنني تحديد التعبير الذي في عينيها. أحيانا أعتقد أنها واعية بما يجري، أنها تحاول أن توصل شيئا لي. لم تذكر أي شيء لديليب، لم تقل أي شيء عن علاقتي بريزا.

مازال ديليب يصدق أن الصورة عبارة عن شيء وجدته لكنه لم يكن ملكي قط، شيء سخيف ولا علاقة له بي. كثير جدا من الفن الذي رآه سخيف، فلماذا ينبغي أن يبحث عن معنى لأي شيء فيه؟ لم يكن ليتخيل أبدا أن هذا الرجل الذي كان حبيب أمي سيصبح بعد ذلك حبيبي.

لن يتخيل أبدا أني أبقيت هذا سرا عن الجميع. بالنسبة لديليب، ريزا اسم لم ينطقه أحد أصلا إلا أمي – هلوسات امرأة مختلة العقل، معروفة جيدا بماضيها الداعر.

أغذي أمي بالسكر كل يوم، وهي تستهلكه كمدمنة. تغدو أقرب لأن تكون أريكة جديدة كل يوم. لا أحد يلاحظ أن هذا هو السبب – لا أحد يرى ارتباطا. هم لا يؤمنون بالعلم إلا إن جاء من فم طبيب وفي شكل قرص دواء. لا يذهبون إلى الدراسات، إلى المصدر. الجرذان. الجرذان والفئران هي المفتاح لفهم من نكون كبشر. ما يحدث لجرذ في عشرة أيام

قد يحدث لنا في عشرة شهور أو عشر سنين، لكنه سيحدث.

الناس الذين أعيش معهم لا يفكرون في النظام الغذائي، في الإنسولين، في البكتيريا المعوية، والنظام الشمسي الكامل الذي تحتويه ذرة واحدة في أجسادنا. يؤمن ديليب وأمه أني أعتني بأمي، أدللها لأنها ليست بخير، والحلويات والكعك الدسم سيجعلها تشعر شعورا طيبا.

الفرق بين القتل العمد والقتل غير العمد هو النية. أم أنه سبق الإصرار؟ لكن لا يمكن إثبات النية إذا كنت تقطن في مخ الآخر. سيكون الدافع أيضا عصيا على الفهم. من سيجادل مع حقيقة أن أمي هي ولية أمري الوحيدة الحقيقية، وكطفلة محبة أريد أن أمنحها السعادة بينما مازال هذا بإمكاني؟

من الواضح لي أن أمي طفلة – عاطفيا، هي لم تتطور قط عن كونها مراهقة. وهي مازالت تحت رحمة الهرمونات. ومازالت تفكر بناء على الحرية والشغف.

والحب.

هي مهووسة بالحب، وفكرة الحب الذي كان بينها وبين ريزا. هل أحبها أصلا؟ هل قالها لها أبدا؟

تركها ذات يوم دون أن يفكر كيف سيكون إحساسها. هل هذا هو الرجل الذي ينبغي أن تتوق إليه حتى وقت متأخر من خمسينيات عمرها؟ ألا يوجد لديها أي شيء أفضل من أن تهدد ابنتها الوحيدة بسبب رجل لم يكن لديه اهتمام دائم بأي منهما؟

أحيانا، عندما يكون عددنا في البيت أكثر من اللازم، أتمنى لو أنها ماتت، على الأقل لبرهة صغيرة، وتعود بعد ذلك في أي شكل أراه مناسبا.

ربما كلب يتبعني في كل مكان.

حتى عندما تدخل هذه الأفكار رأسي، لا يمكنني أن أصدق أني أفكر فيها. أحبها، أمي. أحبها حتى الموت. لا أعرف أين سأكون بدونها. لا أعرف من سأكون. فقط لو تتوقف عن أن تكون هذه القحبة الفظيعة، كنت لأعيدها إلى المسار.

وهذا لن يقتلها في الحقيقة، إنه يهدئها. الحياة بدون سكر تجعلها حادة وغريبة الأطوار، وفي الحقيقة، غير سعيدة – كما كانت عندما دخلت حجرتي وفتشت أشيائي.

على الأقل أنا لا أعتقد أن هذا يمكن أن يقتلها.

لا أريدها أن تموت. أحيانا أعتقد أني، عندما ترحل، سأطفو ضائعة في البعيد هكذا. أحيانا في أثناء الفوضى، أنسى أنها موجودة. ننسى جميعا. ننسى أن نتحدث إليها أو نعترف بوجودها.

يشاهدني الباقون وأنا أعطيها حبة زرقاء في الوقت المحدد، دون أي فهم لكون هذه الحبوب غير ذات نفع. أترك ورقة الوصفة الطبية خارجا كدليل على عنايتي الطيبة. هل يمكن أن يكون الأمر بهذه البساطة – أن أملأها بالبسكويت والخبز كل يوم وأسممها على مرأى من الجميع؟ أفكر أحيانا أني أفعل هذا فقط لأرى إن كان يمكنني الإفلات به.

أبدأ في إعطائها حبة منومة يقترحها طبيبها للمساعدة في مواجهة الأرق. يبدو أنها تفلح لبضعة أيام، إلى أن تبدأ في الاستيقاظ في منتصف الليل، دائخة ومترنحة، لتستخدم المرحاض. أقول للطبيب إن هذا يقلقني. ماذا لو سقطت؟ ماذا لو كسرت فخذها بينما بقيتنا نائمون؟ ينصحني بأن أجرب جرعة زائدة وأرى كيف تتعامل معها. أعطي أمي حبتين وقت النوم، وتنام طوال الليل، أحيانا حتى وقت متأخر من اليوم التالي.

يتصل أبي. ترد حماتي ولا تعرف من يكون. تغلق الهاتف في وجهه في المرة الأولى. يتصل مرة أخرى ويوضح علاقته بي. حماتي محرجة وهي تخبرني من على الهاتف. يجلو أبي حلقه عندما أقول آلو. أنا سعيدة لأن كليهما محرج، لكني أحاول ألا أظهر هذا.

يقول أبي إنه سمع بالطفلة ويود رؤيتها.

أتوقف قليلا أمام اختياره للكلمات قبل أن أخبره أني لا أخرج بها من البيت كثيرا، إلا من أجل التطعيمات وعندما أضطر إلى اصطحاب أمي إلى الطبيب. يقول إن هذه ليست مشكلة، وإنه سيكون سعيدا بالقدوم ورؤيتنا.

يسأل: «كيف حال أمك؟»

«ليست بخير.»

يصمت، وأتخيل أنه يومئ برأسه. «طيب، ينبغي أن آتي لأراها أيضا.»

أخبر أمي أن أبي سيأتي في نهاية الأسبوع ليرانا.

يبتسم ديليب لهذا الخبر. «أنا متطلع إلى لقائه.»

تومئ أمي برأسها، وتنظر إلى حماتي. تقول: «زوجي. زوجي وحماتي عسيران جدا. الحموات دائما مشكلة. لا تتزوجي إن أمكنك تجنب هذا.»

«هو لم يعد زوجك. وأمه ميتة.»

تومئ برأسها، يبدو أنها تفكر في هذه المعلومة، قبل أن يعود انتباهها إلى طبقها.

يقول ديليب: «لا يبدو أنك مهتمة بمساعدتها..» نحن في حجرة نومنا. وأنا أقضم النسيج القابل للإزالة من حمالة صدري الجديدة. يبدو

صدري كما لو كان موضوعا في سرج. تدفعه أنيكا بأنفها، متشممة إياه بحثا عن اللبن، قبل أن تجد الحلمة.

أخضع أفكاري حول ديليب الآن للرقابة. كيف أفسر أننا جميعا لاجئون في هذا المكان، نعيد رسم الحدود باستمرار؟ لا يوجد شيء أكيد. بالأمس، عندما اتصلت بجدتي لأتحدث معها عن استئجار ممرضة، انفجرت باكية. «لا أريد أن أعرف..» كان هذا ردها الوحيد. كررت هذه العبارة مرة بعد مرة. لقد انقلب الترتيب الطبيعي. جدتي امرأة عجوز الآن، ومن المفترض أن تشيخ قبل ابنتها. لكن أمي هي التي شاخت. ونحن نفقدها شيئا فشيئا كل يوم.

أشعر بلمسة من الذنب عندما أفكر في هذا، لكني أنحي هذا جانبا الآن. فالتوتر يكبح تدفق لبن صدري.

في الصباح التالي، يحضر ديليب قلما جافا وكراسة لأمي. أراقبه وهو يجلسها إلى مائدة السفرة.

يقول: «اكتبي.»

تتطلع إليه: «ماذا؟»

«أي شيء.» صوته لطيف وصبور. «إذا كان الشيء مكتوبا، سيكون دائما معك.»

تأخذ القلم وتنظر إليه، ثم تحدق في الصفحات الصفراء المسطرة باللون الأزرق الغامق. تمر بأصابعها على الصفحة الأولى، وتفر الكراسة وتقهقه لنفسها، مندهشة من عدد الصفحات الموجود.

«اكتبي عن يومك الأول في المدرسة. هل يمكنك أن تتذكري هذا؟»

تؤرجح أمي رأسها إلى الخلف وإلى الأمام وتنظر إليه بابتسامة واسعة.

يربت على ذراعها.

«ماذا تفعل؟» أسأله عندما يأتي ليجلس بجواري على الأريكة.

«ينبغي أن نجعلها تتذكر. هي تحتاج للتدريب.»

«لقد كنت أفعل هذا. كانت هناك قصص من الماضي في جميع أنحاء شقتها ولم يفلح هذا على الإطلاق.»

«لسنا بحاجة لتدريب ذاكرتك يا أنتارا. نحن بحاجة لتدريب ذاكرتها.» لقد ارتفع صوته أعلى من أي مرة سمعته فيها. يتقلص ذراعاي. تبكي الطفلة.

تقول أمي: «كنتِ تجعلينني أشعر شعورا سيئا جدا.»

«أنا؟»

«نعم. في الأشرم. كنت تتحدثين عن أبيك طوال الوقت. كنت تبكين من أجله نهارا وليلا، لا تأكلي، لا تشربي. بابا، بابا، بابا. كان الوحيد الذي أردتيه. حتى عندما ولدتِ. كنت تقولين بابا قبل وقت طويل من قولك ماما. كنت تنتظرين عودته من المكتب مثل كلب صغير.»

أشعر بجبهتي تتغضن. عيناها لامعتان وتبدو متيقنة. «لا أذكر فعل هذا.»

«نعم..» تقول. وتومئ برأسها في جنون وتضحك: «كنت تجعلينني أشعر وكأني قطعة من الخراء.»

يعانقني أبي بوضع ذراعه حول كتفي وخبط جانب جسدي بجانب جسده. يأخذ الطفلة من ذراعيّ دون سؤال، دون أن يغسل العالم الخارجي عن يديه. مفاصل أصابعه داكنة ومشعرة في مقابل وجهها الشاحب. تُظهر لي المرايا في حجرة معيشتنا مؤخرة رأس أبي. كان قد مشط الشعرات الرفيعة إلى أسفل ليغطي على ندرتها. تقف الزوجة الجديدة وراءه، مراقبة، محتضنة ابنها بذراع واحد. على وجهها ابتسامة مشدودة أكثر من اللازم.

تعرض حماتي على الزوجة الجديدة فنجانا من الشاي. ينغمسان في الحوار، وأتساءل إن كانت الاثنتان ممتنتين لظهور دخيلة أخرى، ربما تحظى بود أقل. أهز رأسي قليلا لأخرج من ذهولي وأعطي الأوامر للخادمات كي يُحضرن بعض الطعام. مخي مازال مشوشا منذ الولادة.

تنطلق حماتي في كل مكان بكفاءة. لقد أصبحت سيدة البيت.

لقد اقترحت في مناسبات عديدة أن يبدأ ديليب التقديم إلى مناصب في أمريكا. تقول: «مكان ما أقرب إلى البيت.» يثيران هذا الموضوع عندما يعتقدان أني نائمة أو خارج نطاق السمع. لا يعرفان أني أملك أذنيّ بومة الآن، أن مجالي السمعي يمكنه التقاط حركة تنفس ابنتي عبر المدينة. هذا ما يعنيه أن تكوني أمًا. مخالبي مستعدة. أنا دائما في حالة صيد.

أستريح على الأريكة بينما مازال جميع الآخرين واقفين. تتمدد مؤخرتي على المسند الجلدي. أرمق نفسي بنظرة سريعة في المرآة قبل أن أشيح

بناظري بعيدا. التورم في صدغيّ مازال ظاهرا. الجلد داكن حول عنقي. خطوط من فروة الرأس تظهر عبر شعري الناحل.

يجلس ابن أبي في مواجهتي. يبتسم أحدنا للآخر دون أن تظهر أسناننا. في المرآة، أرى أن شعره طويل ومجعد وقد ربطه في عقصة ذيل حصان. يُذكرني بما اعتاد شعري أن يكونه.

يسأل: «أمازلتِ ترسمين؟»

لا أصحح له. «لقد توقفت حاليا.»

تضحك الزوجة الجديدة وتغوص إلى جوار ابنها. معا، يستوعبهما مقعد واحد. «مع الأطفال، هناك وقت أقل للهوايات.» تتراجع لثتها بينما تتسع ابتسامتها. لا أصحح لها أيضا. تلمس شعر ابنها، وكأنها تعرف أني كنت أنظر إليه. تقول: «الأطفال اليوم لديهم أسلوبهم الخاص.»

يصب **ديليب** لأبي كأسا من السكوتش عمره ثمانية عشر عاما أحضره معه من رحلة عمل. يعيد أبي **أنيكا** لي ويضع أنفه في الكأس. **ديليب** مبتهج. أبي على راحته.

تُحضر حماتي صينية شاي من المطبخ ويتخذ الهواء رائحة زيت ساخن. طشيش السمبوسك والباكورا يتناهى من الداخل.

يرن جرس الباب ونقفز جميعا. تتلوى الطفلة في أحضاني، وتدعك وجهها في قميصي القطني. يمكنها أن تشم اللبن الذي جف هناك، وقيئها أيضا، الروائح التي لا تستطيع حتى منظفات الغسيل أن تمحوها. رائحتي الآن تشبه اللبن دائما. تشبه اللبن، والخراء، والقيء. لا يمكنني أبدا محوها بالاستحمام.

تدخل جدتي لكنها تتريث قرب الباب. تنظر إلى أقدام الجميع وتنحني

لتخلع حذاءها. به مشابك في مؤخرته وتنحني لتفكها، وثقلها يتمايل من جانب إلى آخر، ويختل توازنها. تمد يدها لديليب ليأخذها بينما تناضل مع آخر شريط.

يقول ديليب متأخرا. «آه يا جدتي. لا بأس، ليس عليكِ أن تخلعيه.»

تربت على وجهه، ثم تنظر إلى أبي، وتحديقتها تمشط أسفل كاحليه قبل أن تشيح بناظريها. هناك شيء مَلَكي في ازدرائها لقدميّ أبي، اللتين مازالتا في الحذاء. تومئ برأسها إلى أخي غير الشقيق والزوجة الجديدة، وتضم يديها رافعة إياهما كتحية لحماتي. ثم تطلق الطاقة الكاملة لمحبتها وابتساماتها عليّ أنا وأنيكا. وبينما تأتي نحوي، أدرك أني أشبهها أكثر مما أشبه أمي. لقد تمدد كاحلاي ورسغاي ولم يعودوا إلى ما كانوا عليه من قبل. لقد شخت قبل أواني.

يوضع الطعام المقلي على المائدة. تُمرَّر الأطباق ومناديل المائدة. كتل صغيرة من التشاتني[51] -بالخضروات، بالثوم، بجوز الهند، بالتمر هندي- تلون حافة كل طبق.

تفتح جدتي علبة حلويات جلبتها من المتجر. تمد يدها لتتذوق قبل أن تقدمها للجميع. تدور عيناها ببهجة مليئة بالسمن. تمرر العلبة إلى حماتي.

هناك أشخاص أكثر من اللازم في الحجرة. أطلب من إيلا أن تفتح النوافذ.

«من الطيب أن نلتقيك..» تقول حماتي لأبي. تمد له العلبة ويكسر قطعة حلوى لها شكل شبه منحرف بيد واحدة. «لم نعرف أن أنتارا لها

51- صلصة وهي عبارة عن طبق من خليط الخضر والتوابل حار يستخدم كعنصر مرافق للطبق الرئيسي.

أب في البداية، لذا نحن سعداء بمعرفتك.»

الحجرة صامتة. يتحاشى ديليب عينيّ وعينيّ أمه. تبدو الزوجة الجديدة مرتبكة للحظة لكنها تتمالك نفسها من جديد عندما تقدِّم لها العلبة. تأخذ بقية المثلث الذي شوهه زوجها وتقدمها لابنها. في فمه قطعة من الباكورا لذا يشيح بوجهه بعيدا. تُبقي يدها هناك، منتظر إياه كي يقبل تذوق الحلوى.

الكل مبتسمون وهادئون. تصدر الصغيرة صوتا ويتنهد كل الكبار ويضحكون وينظرون إليّ، مستريحين لأنها استيقظت. يبدأون الحديث بهدوء فيما بينهم، ديليب وأبي لحماتي، والزوجة الجديدة لابنها.

التجمع ناجح تقريبا. كلهم يستمتعون بوقتهم. أو هم يتظاهرون بذلك. كلهم لديهم أسباب للتظاهر. الزوجة الجديدة وابنها يتظاهران من أجل أبي. أبي يتظاهر من أجل نفسه، وربما حتى من أجل أنيكا ومن أجلي. ديليب لديه نفس الاهتمامات، وأمه تتظاهر من أجله. جدتي لن تتظاهر. لقد تركت الحجرة، ربما لتتفقد ابنتها. هي ليست مهتمة بأن تكون مهذبة أمام أي أحد.

لم أكن مضطرة للتظاهر، على الأقل ليس بعد. أنا ساكنة، غير مرئية تقريبا في الحجرة. والسبب الوحيد الذي يجعلهم ينظرون إليّ هو أن يلقوا نظرة على الصغيرة.

أشعر وكأني لست هنا.

يقول ديليب شيئا ويضحك أبي ضحكة مكتومة، يتحرك كتفاه صعودا ونزولا. أتساءل لكم من الوقت يمكنهم الاستمرار في هذا الفاصل التمثيلي. كم من الوقت يلزمهم كي يشعروا بالتعب، كي تسقط الأقنعة بحيث يمكن للجوهر الحقيقي لمشاعرهم أن يستبين؟ رغم أنهم لو كرروا الأمر

لوقت طويل بما يكفي، لو استبطنوا ذلك الفاصل التمثيلي – هل سيكون فاصلا تمثيليا بعد ذلك؟ هل يمكن لأداء السعادة، بل والحب، أن يتحول إلى خبرة حقيقية إذا أصبح المرء متمكنا منه إلى حد كاف؟ متى يصبح الأداء واقعا؟

يرن جرس الباب مرة أخرى. لسنا في انتظار أحد آخر. ينفغر فمي قليلا بينما تدخل بيرقـي وزوجها. يحمل كيسا مليئا باللعب. من القليل الذي يمكنني أن أراه خارجا من الكيس، هي لعب كبيرة للغاية، وخطيرة للغاية على أنيكا.

يتوقف زوج بيرقـي عندما يرى أبي ويتعانقان. يعرف أحدهما الآخر من النادي، هذا ما يقوله أبي. تجلس بيرقـي إلى جوار زوجة أبي الجديدة. هما في نفس فريق البريدج، هكذا توضح بيرقـي الأمر.

يأتي ديليب إلى حيث أجلس على الأريكة. يأخذ أنيكا من بين ذراعيّ.

: «أرادوا أن يأتوا ويروا الصغيرة..» يقول ديليب، قارئا تعبير وجهي.

يسترعي صوت جدتي انتباهنا. ترتفق ذراع أمي وتسير بها إلى داخل الحجرة. تبتسم جدتي ابتسامة عريضة لأمي، التي تنظر حولها إلى الجمع. المنظر متنافر. من هي الأم العجوز ومن هي الابنة التي في منتصف العمر؟

تلسع الدموع عينيّ وأضطر إلى الالتفات بعيدا وكتمها، كأنها عطسة. كيف وصلنا إلى هذا المكان؟

عبر صوانٍ من بسكويت (مازورين).

تهرول بيرقـي متقدمة لتعانق أمي. ترفع أمي يديها وتجري بهما أسفل ظهر بيرقـي، متوقفة عند النتوء الذي يعلو وسط بنطالها الجينز.

يميل زوج بيرفـي نحو ديليب: «السبب في رغبة الأطفال أن يلمسوا مؤخراتهم وخصياتهم طوال اليوم هو الطفيليات، هل كنت تعلم هذا؟ الطفيليات هي ما تتحكم في العقل بالفعل.»

يقذف ديليب الصغيرة لأعلى ويلتقطها، قبل أن يلتفت إلى أمي.

يسألها: «كيف حالك اليوم يا ماما؟ هل كتبتِ يومياتك؟»

تبتسم أمي ابتسامة مبهمة وتسمح لنفسها بالجلوس في مقعد بجوار الزوجة الجديدة وابنها. تومئ برأسها إليهما قبل أن تمد يدها داخل علبة الحلويات.

وصول بيرفـي وزوجها، وربما حتى أمي، أذاب الجليد بطريقة ما. امرأة مزدوجة التوجه الجنسي، ورجل سلطوي، وامرأة مختلة العقل يدخلون مشربا. أحد عشر شخصا في الحجرة، لكن الانعكاسات تجعلنا أقرب لأن نكون سبعين – بعض الجماعة مختفون خلف الأثاث، مثل ابن أبي، الذي هو مجرد رأس آخر على جسد أمه. لا ينبغي أن تُحسب صغيرتي أنيكا على الإطلاق، فهي ليست أكثر من صرة من القطن الأبيض بين ذراعيّ أبيها. لكني أحسبها. عيناي تتبعها بينما يجري تمريرها حول الحجرة. هناك أجساد أكثر من اللازم. يبدو الفضاء مضغوطا. ألتفت لأنظر إلى النوافذ. مفتوحة لكن الهواء يبدو دافئا. لديّ مشكلة في التنفس. أشعر بثقل في جبهتي. لا بد أن معدلات ثاني أكسيد الكربون ترتفع. يضحك أبي ويسعل من شيء تخبره بي حماتي. إنه يتنفس بجشع، ممتصا الهواء. أتمنى لو كان قد غسل يديه قبل أن يلمس أنيكا. منخرا بيرفـي يتسعان وهي تميل إلى الأمام لتحيي جدتي. أراقبها وهي تسحب الأكسجين الباقي داخل هذين التجويفين الهائلين.

يصب ديليب المزيد من الويسكي للرجال، ويسأل النساء إن كن يرغبن

في بعض النبيذ. يتظاهرن بالخجل في البداية، متخوفات من السؤال، ناظرات إلى الآخرين في الحجرة.

تقول جدتي: «لا مانع لديّ..» لتكسر الصمت. يبتسم الآخرون ويومئون لها.

تقول حماتي: «لا مانع لديّ في مصاحبة خالتي..» يؤتى بعدد من كؤوس النبيذ طويلة الساق من المطبخ. يبدأ ديليب في انتزاع سدادة زجاجة نبيذ أحمر عندما تشكو جدتي من أنها لا تحب إلا النبيذ الأبيض. وعندما يعرض أن يفتح واحدة من كل نوع، يتلقى ابتسامات خجولة من أمه والزوجة الجديدة.

الكل يحمل شرابا في يده ما عدا أمي وأنا. حتى الابن يأخذ رشفة من كأس أبي. لم أقل كلمة واحدة تقريبا لأبي منذ وصوله. يحمل كأسه المليء بالسكوتش بالقرب من طفلتي ويؤمِّن على ما يقوله زوج بيرقـي.

يقول أبي وهو يحك طرف أنفه: «في المرة القادمة التي تكون فيها في الصين، دعني أعرف؛ صديقي العزيز كوشال مستقر هناك مع أسرته.»

أقول: «صديقك العزيز كوشال بغيض.»

يحل الصمت على الحجرة بسرعة شديدة وأشعر بطنين في أذنيّ. ترتعش يد الزوجة الجديدة وهي تربت على ظهر ابنها.

ينظر أبي إليّ وتطرف عينه. تستقيم انحناءة فمه لتغدو خطا. وتختفي شفتاه. يقول: «ما هذا؟»

أتكئ بظهري على الأريكة. لا أعرف ماذا أقول غير ذلك. لم يكن لديّ أي شيء مخطط.

يستمر الصمت لوقت أطول قليلا. أبدأ في عدّ الثواني. قبل أن أصل إلى

السابعة، تنادي حماتي على إيلا كي تحضر المزيد من تشاتني جوز الهند إلى الصالة.

نلتفت جميعا ناظرين إليها ويبدأ الجميع في الكلام في نفس الوقت. فقط ديليب يظل ساكنا وهادئا. يعبس بينما ينقل أنيكا إلى ذراعه الآخر. أمي صامتة أيضا. تنظر إليّ. أرى لمعة سكرية في مقلتيها.

كيف يمكنهم جميعا أن يجلسوا هنا، آكلين شاربين، بينما قمت أنا للتو بهذا الإعلان؟ أقفز واقفة، شاعرة بألم في ركبتيّ وأتحرك بظهري نحو النافذة.

ربما يعتقدون أني مختلة، مثل أمي. أنه لا يمكن الثقة بي.

لماذا قلت هذه الجملة؟ ماذا كنت أتوقع؟ بعض الارتياح؟ من في هذه الحجرة يمكنه أن يمنحني إياه؟ أُطرق ناظرة إلى الأرض وأندهش من المسافة. لقد فكرت في إلقاء أنيكا إلى هناك بالأسفل. الفكرة مقيتة لي الآن. ربما كان ينبغي أن أفعل هذا بنفسي.

ألتفت إليهم من جديد وأرى انعكاسات ضيوفي. ألاحظ وجوههم الجانبية. إنها شيء لم أدرسه من قبل. لدى جدتي انعقاف في أنفها لا تملكه أمي ولا أنا. لأبي وزوج بيرفي وجهان متشابهان على نحو ملحوظ من هذه الزاوية.

تتحرك عينا أمي في أرجاء الحجرة من وقت إلى آخر لكنهما تعودان سريعا إلى الأرض. أتساءل إن كانت تستوعب كل ما تراه أمامها. لا بد أن الحوارات تتحرك بسرعة أكبر من اللازم. هل تعي النغمة التي يتحدث الناس بها؟ هل تستطيع أن تلتقط كل الكلمات؟

أتساءل إن كانت تميز أبي. لم تقل كلمة واحدة له. هل تعرف أن هذه

المرأة الغائمة زوجته، وأن هذا الصبي هو ابنهما الغليظ؟ أريد أن أخبرها، لكن لا جدوى من ذلك.

أجلس بجوار مقعد أمي وأضع يدي على كتفها. تجفل قليلا، لكنها لا تنظر إليّ من جديد. ربما لا تشعر فعلا بها لأنها لا تعرف أين هي. أو ربما تعرف أنها أنا، تعرف هكذا من ثقل يدي.

تقول أمي: «أنتارا..»

أجيبها: «نعم يا أماه..» أحرك يدي على كتفها.

«أنتارا.»

«نعم، أنا هنا.» أنحني بجوار مقعدها.

«أنتارا» ترفع يدها وتشير إلى ديليب. «أريد أنتارا.»

يبتسم ديليب إليها. «ماما، هذه أنيكا. أنتارا إلى جوارك.»

«أنتارا.» تقف وتتحرك عبر الحجرة. يتراجع زوج بيرڤي وأبي. تصفق أمي وتبتسم. تتطلع إلى ديليب للحظة، قبل أن تعود بنظرتها إلى الطفلة.

تنظر بيرڤي إليّ وتلمس صدرها. حلو جدا، ترسم هاتين الكلمتين بشفتيها.

تقول أمي: «أعطني أنتارا..» يعطيها ديليب الصغيرة ويحوم بالقرب منها. ترفع أمي الصرة إلى وجهها وتُقبلها. تنظر إلى أبي وتبتسم. «أنتارا..» تكرر. «هذه طفلتي.»

يبتسم أبي ويومئ إليها. يقول: «نعم، هذا جيد جدا. لديك طفلة جميلة.»

تخرج حماتي من المطبخ. في يدها زجاجة. تختبر السائل على الجزء الحساس من رسغها. تسأل: «ألا ينبغي أن أطعم **أنتارا** الآن؟» وتلتفت لتغمز لي.

تمد حماتي يدها لتأخذ **أنيكا** من أمي، وتصرخ أمي وهي تتشبث بالطفلة وتضمها إلى صدرها. «لا، إنها طفلتي. **أنتارا** طفلتي.»

ترفع حماتي يديها، وهي مازالت تحمل الزجاجة. تندفع جدتي إلى جانب أمي وتُقبِّل جبينها. تسمح أمي لنفسها بتلقي العزاء. تستند إلى **ديليب**.

تقول أمي: «**أنتارا** طفلتنا.» تتطلع إلى **ديليب** وتبتسم. «زوجي وطفلتي.»

تضع الزوجة الجديدة يدها على فمها. هي واقفة خلف زوجها، ممسكة بيد ابنها. في عينيها يختلط الافتتان بالاستياء.

تبدأ **أنيكا** في التململ. تبكي قليلا وتهدهدها أمي.

تقول حماتي: «لا بأس يا **تارا**. لماذا لا تطعمي **أنتارا**؟»

تأخذ أمي الزجاجة وتضعها على شفتيّ **أنيكا**. تبدأ الطفلة في المص وتهدأ على الفور. تستريح أمي مستندة على **ديليب** وتبتسم إلى جدتي بجوارها. أحاول أن أتخيل أين هي في عقلها، أين تتخيل وجود هذا المكان. هل هذا تلفيق خيالها؟ أم أنها ذكرى سعيدة من الماضي تريد أن تعيشها من جديد؟

تمسح وجهها في كتف **ديليب**. يبتسم، ولا تبدو عليه الممانعة. تسأله: «هل تحب **أنتارا**؟»

يضحك **ديليب**: «نعم. أحب **أنتارا**.»

تبتسم أمي وتنظر من جديد إلى الطفلة. «وأنا؟» تسأله. «هل تحبني؟»

يومئ **ديليب** برأسه من جديد. يقول: «نعم. نعم، أحبك.» تقهقه حماتي. «كلنا نحبك.»

يتجمعون حولها، مبتسمين لأمي **ولأنيكا**، في جانب واحد من الحجرة. أرى أمي تتمايل مستندة إلى **ديليب**.

أقول مقاطعةً: «لا بأس. لا بأس يا أمي. أنا **أنتارا**، وتلك هي **أنيكا**...»

توقفني **بيرڤــي** بيدها: «كفى الآن. إنها لا تتذكر، المسكينة.» تندفع نحو أمي. «**تارا**، ألا ينبغي أن نغني جميعا أغنية **لأنتارا**؟»

تبدأ **بيرڤــي** التصفيق وغناء كلمات أغنية. أبتسم، قبل أن أدرك أني لا أعرف الكلمات. يبدو اللحن مألوفا لكني لا أستطيع تحديد أين سمعته من قبل. يستمرون منتقلين إلى مقطع آخر، وأدرك أني لا أميز اللغة. إنها ليست المراتية، بالتأكيد. ربما تكون الكجراتية. لكن كيف تعرفها جدتي جيدا هكذا؟ لحن بنغالي؟ شيء لطاغور؟ الكل يغنون معها. تتذكر أمي الكلمات. تتوقف عيناي على **ديليب** وتميد بي الأرض. إنه يغني ويصفق.

زوجي، الذي يستطيع بالكاد أن يتكلم الهندية، يغني ترنيمة الأطفال.

تستمر الأبيات، تبدو بلا نهاية. الأغاني، عندما تكون غير مألوفة، تبدو طويلة بلا داع. تنتهي الأغنية فجأة ويصفق الجميع. ينظرون إلى أمي **وأنيكا**. ظهورهم لي، ويمكنني بالكاد أن أجد ابنتي وسطهم أصلا.

أقف وأرى أمي تعانق **ديليب**. **أنيكا** في ذراعها الآخر. تتعانق يدا **بيرڤــي** والزوجة الجديدة.

مرة أخرى أشعر أني غير مرئية، حتى ألاحظ أمي وهي تنظر إليّ.

عيناها متسعتان ولا تطرفان.

الحجرة دافئة، وأمد يدي إلى خط عنقي. لم ترفع أمي ذراعيها عن زوجي أو طفلتي. تراقبني، تستمر في مراقبتي. عيناها صافيتان وحادتان.

تراقب إحدانا الأخرى. أمي هادئة. أنا هادئة.

الجميع يضحكون ويبتسمون. مازالوا يهمهمون بلحن الأغنية التي لا أعرفها، مازالوا يلعبون أدوارهم في التمثيلية. يتركونها تفعل ما تريد لأنها مريضة.

إلا إذا كانت ليست مريضة على الإطلاق.

هل تحاول أن تكتب قصة بدوني؟ هل تحاول محوي؟ حتى وأنا أفكر في هذا، أشعر بنفسي تتبخر.

لم يجد الطبيب أي شيء قط. لا ترسبات، ولا تكونات.

يبدأون الأغنية من جديد، وهم مازالوا متجمعين حول أمي وديليب. لا تبدو أنيكا أكثر من غسيل مطوي على ذراعها. الأغنية تبعث على الجنون، واللغة غريبة. يكررونها مرتين ويبدأون دورة ثالثة. لا يلتفت أحد لينظر إليّ، حتى ليعترف بوجودي. هل يتحاشون تلاقي العيون بي حتى لا يضايقوا أمي؟ لا يريدون أن يكسروا التعويذة.

يهتف الجميع مهللين لتارا وللصغيرة أنتارا. يكررون الأغنية مرة أخرى. كم مرة يجب أن يعاد العرض قبل أن يصبح واقعا؟ لو جرى تمثيل كذبة بشكل كاف، هل تبدأ في أن تبدو حقيقية؟ هل يُخلق طريق للأكاذيب كي تصبح حقيقية في العقل؟

أقف وأصرخ فيهم كي يتوقفوا.

لا أحد يمكنه أن يسمعني، أصواتهم معا أعلى بكثير. يغرق صوتي في ضجتهم. أم أن صوتي ملتصق بأعماق حلقي؟ أشعر أن جوف حنجرتي عندما أتكلم خشن كشريط لاصق.

لم يعد أحد ينظر إليّ، ولا حتى أمي، والهواء في الحجرة قد حل محله شيء سام. لا بد أن هذا ما يبدو عليه الغرق. أسعل وأبدأ في محاولة التقيؤ. لا يلاحظ أحد.

لا أريد أن أموت. ليس هنا. ليس وهذه الأغنية تملأ الهواء. لا أستطيع التنفس وعليّ أن أخرج. لا بد أن أخرج.

على الجانب الآخر من الباب، ألهث. أنحني وأدع رأسي معلقة قرب ركبتيّ. ألم عِرق النسا الذي يجيء ويروح منذ ولادة **أنيكا** يصعد على ساقي. أغطي فمي بيدي لأكتم صرخة خافتة والصوت الذي يخرج صوت شخص آخر. ألمس وجهي. الرغبة المفاجئة للنظر إلى انعكاسي، للتأكد أنه مازال موجودا، رغبة عارمة.

أضغط زر استدعاء المصعد بشراسة. يغادر التوتر جسدي بينما تنزلق الأبواب منفتحة. داخل هذا القفص المتحرك يبدو أشبه بالبيت بطريقة لم ألاحظها من قبل قط وأرى نفسي في كل سطح – الجدران، السقف، الأرضية. يهبط المصعد برقة. ألاحظ أن مقدمة قميصي مبتلة، وأفكر في مضخة الثدي[52] وطفلتي، متأملة كم يتبدد من قوت **أنيكا**. طفلتي الصغيرة. صغيرتي **كالي**. الإنسانة الوحيدة في العالم.

آخذ سيجارة واحدة من بائع التنبول خلف بوابة البناية. يحدق في

52- مضخة الثدي هو جهاز ميكانيكي يساعد المرأة المرضعة على استخراج حليب الثدي.

البقع المحيطة بثدييّ لكنه لا يقول شيئا. أهمهم بأني سأدفع له لاحقا ويومئ برأسه.

يبدو الرصيف أشبه بأطلال عتيقة، وأدرك أني حافية فقط عندما أخطو على أرض مبتلة. بول بهيمة أو إنسان، أنا متأكدة. فتاة ترتدي سروالا قصيرا تقهقه في هاتفها الجوال. تتحرك قدماها ببطء، في إيقاع متوافق مع كلماتها، وتتوقف استجابة لما تسمعه، سر مبهج ما كي يجعلها تضحك ضحكا مكتوما. تمر بيدها على السور الخرساني، فاردة أصابعها، متصلة بالسطح الخشن دون خوف. أعتقد أني أعرفها من البناية، لكنها أكبر سنا مما أتذكر، في الرابعة عشر على الأقل، امرأة تقريبا، تتسكع دون اتجاه، لا تحمل قلقا تجاه شيء وواثقة بنفسها. تبتسم عندما تراني أرقبها، تفتح فمها على اتساعه، وأشيح بنظري بعيدا، أطرق ناظرة إلى ملابسي وأستدير متأخرة لأخفي فوضاي. أمشي في الشارع، حافية ومسرعة، غير متأكدة بعد من المكان الذي سأذهب إليه، لكني أستمر في التفكير فيها، فيما يتطلبه الحفاظ على تلك الابتسامة.

أتساءل إن كانوا قد لاحظوا أني رحلت بعد. لا بد أن الزوجة الجديدة والحماة قد استراحتا لأن أسوأ إزعاج لحياتهما قد اختفى. ربما ستنتهزان الفرصة للهروب بينما يمكنهما ذلك، حماتي مع ديليب وأنيكا، والزوجة الجديدة مع زوجها وابنها. لو رجعت الآن، هل سيكونون قد رحلوا قبل أن أعود؟ أتخيلهم يضحكون ويرقصون في نشوة حول أرجاء الحجرة، هاتفين لآلهتهم السريين، خالعين ثيابهم ومستحمين في النبيذ، كلهم معا، في طقس جنس جماعي ما، كانوا ينتظرون ليؤدوه بمجرد رحيلي. يمتزج داخلي الخوف والحنين. أشعر بألم قاطع في بطن قدمي، لكني لا أتوقف عن السير.

الشارع صاخب. أنظر حولي ولا أعرف أين أنا. هل تغيرت المدينة إلى

هذا الحد الهائل منذ انحباسي؟ هل كانت هذه هي الخطة طوال الوقت، أن يتجمعوا ويشاهدوني أذوب إلى لا شيء؟ ربما ذلك هو المغزى من الحمل، من الأمومة ذاتها. طفل يأتي ليبطل المرأة التي حملته، ليشقها نصفين بأمان.

ماذا كان قبل الآن؟ لا يمكنني أن أتذكر شكل حياتي. لكني أرى مستقبلها. هناك بلدات على التلال أريد زيارتها، وأماكن أريد النوم فيها – قمم الأشجار، حظائر الخشب، أسرَّة تشارباي في مزارع منسية. هناك رجال أريد أن أضاجعهم. أعرف أنه كان هناك استخدامات أخرى لجسدي فيما مضى، عندما كانت بطني بلا علامات، وحلمتاي غير متشققتين. وهناك تلك الكومة اللانهائية من صور وجه **ريزا باين** مشتعلة، لأنهي العمل الذي بدأته أمي، وصفحة فارغة من الورق حيث سأخلد نفسي بدلا منه.

يبدو أن ساقيّ تتحركان من تلقاء نفسيهما، لتأخذاني أبعد وأبعد. أصطدم بأجساد أخرى دون أن أراها. يناديني أحدهم وأتحرك أسرع، أتعثر قليلا وأجري عبر الشارع. ألهث، أسمع النداء من جديد. **تارا.**

أمي. كلما زاد اختلالها، كلما زاد وضوح هدفها، مثل صورة تم التقاطها بأقل فتحة ضوء ممكنة – تعتم الخلفية بينما يشتد تركيز البؤرة. لم يمنعها ديليب، ولماذا كان ليفعل ذلك؟ إذا كان بإمكانه أن يحبني، فبإمكانه أن يحبها. نحن في النهاية قابلتان للتبديل.

لن أتحرر منها أبدا. هي في نخاعي ولن أكتسب مناعة منها أبدا. ماذا كان زوج بيرڤـي ليقول عن طفيل متقدم جدا حتى أنه يجعل من نسله عائلا له؟ هناك شيء واسع الحيلة في استهلاك ما يتشبث بك.

من أعلى، تبدو قدماي بخير، لكن من أسفل أعرف أنهما مرضوضتان.

الرصيف مبتل مرة أخرى، لسبب غير مفهوم. أنظر حولي والرجل الذي باعني السيجارة يرقبني. خلفه، تميل الفتاة ذات السروال القصير على سور المجمع السكني، ناظرة باهتمام إلى شاشة هاتفها.

أنا خارج بنايتي.

لم أغادر المكان قط.

يغشيني ضوء النهار بينما أدخل الرواق المعتم. ساقاي ثقيلتان. أضغط زر المصعد وأدخل. في المرآة، أرى اللبن على ملابسي قد جف واصفرَّ.

أمي هناك في مواجهتي. أومئ برأسي وترد الإيماءة.

واقفة عند باب الشقة، مازال بإمكاني سماع أصواتهم بالداخل. أرن الجرس مرتين وأميل على الحائط، في انتظار أن يُسمح لي بالدخول من جديد.


محمد خطاب

شكر وتقدير

إلى كل من دعم المسودات الأولى لهذا الكتاب في وكالة تيبور جونز الأدبية وجامعة إيست أنجليا، خاصةً **نيل موخيريجي**، **مارتن بيك**، **أندرو كووان**. وإلى **مادلين كينت**، لأن الأمر يكون أحيانا واضحا، وأحيانا مراوغا. وإلى **كانيشكا جوبتا**، **راهول سوني**، **أودايان ميترا** من أجل العمل الرائع الذي قاموا به حتى تخرج الطبعة الهندية من هذا الكتاب.

وإلى **هرميون طومسون**، التي تفوق ما تشتهر به من البراعة واللطف، والتي جعل تحريرها هذا الكتاب أكثر مما أمكنني أن آمل. وإلى **سيمون بروسر** والفريق كله في دار نشر هاميش هاملتون لإيمانهم بهذه القصة.

وإلى **ماريا كاردونا سيرًا**، لدعمها الذي لا يكل لكل خطوة في الطريق. وإلى **آنا سولر-بونت** وكل الفريق في وكالة بونتاس.

وإلى أصدقائي وعائلتي على تشجيعهم. إلى **نيها سامتاني**، **شارلين تيو**، **كيت جوين**، **ومانالي دوشي** بالأخص.

إلى جدتي، على فضلها. وإلى **بودهي**، لتغيير كل شيء. وإلى زوجي، لتعرفه على صوتي في أي صفحة. وإلى والديّ، لكل ما أنا عليه.



عمل مقلق وقوي.. مفزع وفاتن منذ الجملة الأولى.

- الجارديان

تتمرد تارا على حياتها في فترة الشباب. تهجر زواجا بلا حب لتنضم إلى مقر للرهبان الهنود، وتتحمل فترة من العمل كشحاذة (غالبا نكاية في والديها الثريين) وتقضي سنوات وهي تطارد "فنانا" متشردا أشعث الهيئة - وفي ذيلها طفلة صغيرة. والآن هي تنسى الأشياء، تخطئ في حساب أجر خادمتها وتترك الغاز مفتوحا طوال الليل، وابنتها البالغة تواجَه بمهمة العناية بامرأة لم تعتنِ بها قط.

إنها قصة حب وقصة عن الخيانة. لكن ليس بين عاشقين، بل بين أم وابنة. رواية سكر محروق رواية حادة كالسكين ومنسوجة بذكاء لاذع، تفك الرباط المنفلت والخانق للذاكرة والأسطورة.. هذا الذي يربط امرأتين معا، ليشكلهما ويهدمهما بلا نهاية.

آڤني دوشي

ولدت في نيوجيرسي عام 1982، حصلت على بكالوريوس في تاريخ الفن من جامعة بارنارد في نيويورك وماجيستير في تاريخ الفن من كلية لندن الجامعية. حصلت على جائزة تيبو جونز لجنوب آسيا عام 2013 وزمالة تشارلز بيك عام 2014. نشرت كتاباتها في مجلة جرانتا والصانداي تايمز. تعيش آڤني حاليا في دبي مع أسرتها. (سكر محروق) هي روايتها الأولى. نُشرت في الهند تحت عنوان (البنت ذات الرداء القطني الأبيض). ووصلت روايتها إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر 2020.





ISBN 978-977-821-185-6